مختارات من الأدب العالمي للشباب

أحدب نوتردام

The Hunchback of Notre Dame

فيكتور هوجو

إعداد وتقديم
وفيق صفوت مختار

دار الطلائع

هوجو، فيكتور، ١٨٠٢ - ١٨٨٥

احدب نوتردام - The Hunchback of Notre Dame فيكتورهوجو

إعداد وتقديم وفيق صفوت مختار. – القاهرة: دار الطلائع للنشر والتوزيع، ٢٠١٧ .

ص٢٥٦؛ ٢٠سم.

تدمك ٦ ٨٠٩ ٢٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص الفرنسية

أ- مختار، وفيق صفوت (معد ومقدم)

ب- العنوان ٨٣٤

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٤٠٠٠

الترقيم الدولي: 978-977-277-809-6

تصميم الغلاف الفنان: إبراهيم محمد إبراهيم

● جميع الحقوق محفوظة للناشر ●

يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب دون إذن كتابي سابق من الناشر، وأية استفسارات تطلب على عنوان الناشر.

دار الطلائع

للنشر والتوزيع والتصدير

٣٢ شارع أحمد فخرى

مدينة نصر - القاهرة

تليفون: ٢٣٥٤٦٣٩٢ (٢٠٢+)

فاكس: ٢٣٥٤٦٣٩٣ (٢٠٢+)

E-mail : info@altalae.com

Web site: www.altalae.com

مقدمة

الصديق الكاتب والناشر الأستاذ / عبد اللطيف عاشور، رئيس مجلس إدارة دار الطلائع للطبع والنشر والتوزيع، هو صاحب رسالة نبيلة تصب في قلب الثقافة المصريَّة والعربيَّة، يحمل دائمًا أفكارًا خلَّاقة ومُبدعة هدفها الارتقاء بالعلوم والفنون والآداب. كان لي مشروع يتمحور في عرض وتلخيص روائع الأدب العالمي متسلسلًا ومتجمعًا في ثلاثة إصدارات سوف تكون متتالية، أعجبته الفكرة وراقت له، ثم فاجأني إلى جانب هذا بفكرةٍ عبقريةٍ كان قد رصدها في ذاكرته من قبل، ولمَّا تلاقت أفكارنا ورؤانا فاتحني بمشروعه الذي يتبلور في إصدار سلسلة متتالية –بإذن الله– من الروائع الأدبية العالمية، ولكنها تتميَّز عن مشروعي الخاص بأن تكون أكثر اتساعًا، وأكبر عُمقًا، بمعنى أن يتم تقديم عمل واحد كاملًا متكاملًا، بحيث تصبح هذه الأعمال زادًا لا غنى عنه لفئةٍ من أهم فئات المجتمع المصري والعربي وهي فئة الناشئة والشباب ممَّن يحتاجون إلى تثقيف ذواتهم، وإثراء ملكاتهم، والارتقاء الأمثل للانفتاح على الموروث الثقافي العالمي بما يشتمل عليه من آداب راقية مؤثرة، لكبار المُبدعين والمبدعات على اختلاف مشاربهم وتنوع ثقافاتهم، وترك لي مهمة البحث والتنقيب لنبدأ السلسلة بشكلٍ عملي ومنهجي، بحيث تتواصل بقدر ما يُعطينا الله سبحانه وتعالى من وقتٍ وجهدٍ وعُمْرٍ، لكنه في النهاية مشروع تنويري ثقافي رائع.

كان جسورًا ومتحمسًا، داعمًا ومؤيدًا، لا يبغي ربحًا أو عائدًا ماديًا، ولكنه يبغي تتويج رسالة دار الطلائع الرائعة بهديةٍ ثمينةٍ لناشئة وشباب

مصر والعالم العربي من الجنسين. لا يخفى أنَّ العمل الذي نبدأه على الفور لا يتوقف عند فئات الناشئة والشباب، بل سيجد -بإذن الله تعالى- صدى عظيمًا من الفئات العُمْرية الأكبر سنًّا التي لم يُحالفها الحظ في قراءة تلك الروائع العالمية، لأنَّنا نراعي دائمًا أن يكون أسلوبنا الأدبي سهلًا يسيرًا، لا يكتنفه الغموض، أو أمراض الكتابات الأخرى من إسهابٍ أو إطنابٍ لا عائد ولا طائل منه.

سوف تكون اختياراتنا لتلك الأعمال الأدبية العالمية مبنية على تقديم الأروع والأجمل والأعمق، نُقدِّم أعمالًا تؤصِّل في نفوس ناشئينا وشبابنا القدوة والمثل الأعلى، وتمنحهم الفكر الواعي المستنير، والثقافة الشاملة الراقية، والاستفادة قدر المستطاع من الدروس والعبر التي تمنحنا إياها دائمًا مثل هذه الإبداعات العالمية الثمينة.

سنبدأ، على بركة الله وتوفيقه، سلسلة الأدب العالمي للناشئة والشباب برائعة "فيكتور هوجو"رواية "أحدب نوتردام" جاهزة للقراءة اليسيرة الممتعة والمدهشة، نغوص فيها مع الكاتب الفذ في أجواء ساحرة نتعلَّم منها ما يؤكد مُثلنا العُليَا، ويقوي من ثراء معلوماتنا وخبراتنا، لا نتوقف عند كاتب أو عمل بعينه، كما لن نقدم إلَّا الذي يستحق التقديم لأنَّنا في دار الطلائع، وأنا أزعم أنَّني واحد من هذه المنظومة الرائعة، والكتيبة المناضلة، لا نُقدِّم للقارئ المصري أو العربي إلَّا ما يستحق التقديم.

الشكر بالطبع موصول للناشر الصديق، المتحمس دومًا لشباب وطنه، ولجميع العاملين بالدار: إخلاصهم وتفانيهم ومحبتهم.

والله ولي التوفيق
وفيق صفوت مختار

تمهيد

وصف "شارل بودلير" Charles Baudelaire (1821 - 1867) "فيكتور هوجو" بأنه: "عبقريٌّ بلا حدود". وعندما سُئل "أندريه جيد André Gide (1869 - 1951)" عمّن يعتبره أعظم شعراء فرنسا، أجاب: "يا إلهي.. إنه فيكتور هوجو.. ومَنْ غيره؟!" .

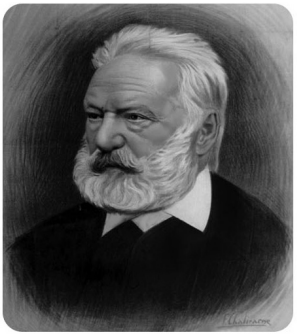

ولد "فيكتور هوجو" Victor Hugo بمدينة "بيزانسون" Besancon، في 26 من فبراير 1802. تنقل "هوجو" بتنقل عمل أبيه في أكثر من دولةٍ. ولمَّا بلغ العاشرة من عُمْره عاد إلى باريس، فالتحق بمدرسةٍ خاصَّةٍ، حيث تعلَّم اللاتينية واليونانية. تزوج "هوجو" من "أديل فوشيه" Adele fuchsia في أكتوبر 1823 .

في 22 مايو عام 1885، توفي "هوجو"، فعُرِّض جثمانه ليلة كاملة تحت قوس النصر، وفي اليوم التالي سارت باريس كلُّها (حوالي من 2 إلى 3 مليون شخص) وراء نعشه الذي حُمل على عربةٍ طافت به أرجاء المدينة حتى وصلوا إلى مقبرة "البانثيون" حيث دُفن هناك.

أصدر "فيكتور هوجو" ديوان الشرقيات" Les Orientales في عام 1829، والذي استوحاه من الثورة اليونانية على الأتراك. كانت الصور الخيالية، وقوة الإيقاع من الأسباب الرئيسة لنجاح هذا الديوان. وفي عام

1831 أصدر ديوان "أوراق الخريف" Les Feuilles d'automne، حيث يتحدَّث فيه عن أطفاله وأبيه بحرارةٍ وحُبٍّ. وفي ديوان "أغاني الغسق" Les Chants du crépuscule الصادر في عام 1835، نجده وقد سخط على الملكية الواهنة، أمَّا ديوانه "المناجاة القلبية" Les Voix intérieures الذي صدر في عام 1837، فقد أعلن عن أمنيته في أن يقوّي سُلطان الشعب ضدّ الاستبداد. وجاء ديوان "الأشعة والظلال" Les Rayons et les Ombres عام 1840م، بقصائد اختص بها والدته، كما تحدَّث عن ذكريات طفولته.

ثم ظهر ديوانه "الحصاد" Les Châtiments عام 1853، حيث يصف آلام الشعب، و يدعوه للثورة، ولكنه يرفض فكرة الانتقام. وفي عام 1856 يُصدر ديوان "التأمُّلات" Les Contemplations، والذي يرثي فيه ابنته الشابة التي رحلت في ريعان شبابها. ثم أبدع ديوان "أسطورة القرن" La Légende des siècles، وهو يتألَّف في صورته النهائية من ثلاثة كتب نُشرت متتابعة أعوام: 1859، و1877، و1883، حيث يتضح إيمان "هوجو" بالضمير الإنساني، ويعتقد أنَّ هناك حياة أبدية يُثاب فيها الأبرار، كما يؤمن بإله عادل، مُحبّ للخير، قادر على التسامح، ثم يُنادي بضرورة تحقيق إرادة الله للخير، وبالتالي نبذ كل وسائل العنف.

ظهرت الرواية التاريخية مع مطلع الرومانتيكية، فقد خلع "والتر سكوت" Walter Scott (1771 - 1822) رونقًا فريدًا على هذا النوع من القصَّة في إنجلترا، وكانت رواية" أحدب نوتردام" Notre - Dame de Paris (The Hunchback of Notre - Dame) - التي صدرت

في عام 1831، لـ"هوجو" هي التحفة الرائعة للعصر الرومانتيكي في مجال الرواية التاريخية. في الرواية خيال مُبدع، وشخصيات تبدو أكبر من الحياة، والواقع، ومع ذلك حقَّقت كل شخصية من شخصيات الرواية لنفسها، في ذهن القارئ ـ مهما كان جنسه ـ حياة خاصَّة بها. فالأحدب "كوازيمودو"، على سبيل المثال، وقع في حُبِّ شابة جميلة، عطفت عليه، ولم تسخر من عاهته كالباقين، فيحدث التغيُّر الكبير في حياته، ويمتلك القدرة على تغيير مجرى الأحداث، مع أنَّه كان منهزمًا، وعاجزًا عن الفعل.

لقد قال "ألفونس دو لامارتين" Alphonse de Lamartine (1790 - 1869) عن الرواية: "إنَّها عملٌ ضخم، إنَّها قطعة من صخر، من عهدٍ يسبق الطوفان.. هي شكسبير النثر الروائي، وملحمة القرون الوسطى". ظهرت الرواية في العديد من الأفلام السينمائية ابتداء من عام 1923، وحتى عام1997، لكن من أشهر تلك الأفلام: الفيلم الذي قام ببطولته "أنتوني كوين" (Anthony Quinn (1915 - 2001)، و"جينا لولو بريجيدا" Gina Lollobrigida (ولدت في 4 يوليو 1927) في عام 1956.

ومن أهم روايته "الاجتماعيَّة" البؤساء" Les Misérables التي نُشرت في عام 1861، وهي التي تُندِّد بظلم العقوبات، ووسائل ردّ اعتبار المحكوم عليهم. يقول الشاعر والناقد الفرنسي الكبير "تيوفيل جوتييه" Théophile Gautier (1811- 1872) في وصفه للبؤساء: "إنَّها ليست جيدة، وليست رديئة، فهي ليست من ابتكار إنسان، ولكنها ظاهرة من ظواهر قوى الطبيعة، إنَّها ملحمة في النقد الاجتماعي، فيها دفعة المحيط ولها عُمقه، إنَّها حُمم تتدفَّق فتُبرز من جوفه تماثيل بالغة الضَّخامة تتوهَّج بنيرانها". تحوَّلت الرواية إلى أكثر من عشرة أفلام سينمائية روائية طويلة، بالإضافة إلى إنتاجها كرسومٍ متحركةٍ.

وكان قد كتب"هوجو" رواية "هان الإسلندي" Han d'Islande، وهي رواية تحكي قصَّة حدث جرى في النرويج في القرن السابع عشر.. ومن الروايات الاجتماعيَّة الخالدة لـ"هوجو"، رواية "مذكرات محكوم عليه بالإعدام". Le Dernier jour d'un condamné والتي طالب فيها بإلغاء عقوبة الإعدام. لقد ظهر أثر الرواية ووقعها عندما أرسل رئيس وزراء البرتغال خطابًا رسميًا إلى "هوجو" يُخبره بأنَّ بلاده ألغت عقوبة الإعدام.

أمَّا رواية "عمَّال البحر" Les Travailleurs de la Mer (فهي تحكي قصة شاب يُدعى "جيليات" موضع سخرية من أفراد المجتمع الذي يعيش فيه، يقع في حُبِّ فتاة تُدعى "داروشات"، يقوم بالعديد من المغامرات كي يحظى بالزواج منها. وكتب كذلك قصَّة "الرجل الذي يضحك" L'Homme qui rit، وهي قصَّة رائعة يسردها "هوجو" بأسلوبه الراقي، ممزوجة بالإنسانيَّة، تُخاطب الروح، وتنفذ إلى الأعماق، حيث يتجلى الله في وجوه البشر المساكين. وفي منفاه كتب"هوجو" رواية تاريخية بعنوان "قصَّة جريمة" Histoire d'un crime 1re partie في عام 1852، تحكي عن الانقلاب الحكومي الذي قام به "نابليون الثالث"، لم يستطع نشرها إلَّا في عام 1877. ولعلّ من أهم المسرحيات التي أبدعها "هوجو" "مسرحية" كروميل "Cromwell في عام 1827، وقد حقَّقت نجاحًا في الأوساط الفنية والأدبية، وهي مسرحية تاريخية تُعالج حياة رجل السياسة الإنجليزي اللورد "أوليفر كروميل" Oliver Cromwell (1558 - 1699) ، وبهذه المسرحية، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ـ بحقٍّ ـ زعيم الحركة الرومانسية في الأدب. وفي ليلة الخامس والعشرين من فبراير 1830 عُرضت مسرحية" هرناني" Hernani في باريس، وقد أحدث نجاح المسرحية ثورة في الأدب الفرنسي. وفي عام 1832، عُرضت مسرحية "الملك يلهو" Le roi s'amuse فلم تنل أي

نجاح. ثم ظهرت مسرحية "لوكريس بورجيا" Lucrezia Borgia في عام 1833، فلاقت نجاحًا لا بأس به.

حظي "هوجو" بمكانةٍ رفيعة بين عظماء عصره، فحينما قدَّم حفيده إلى إمبراطور البرازيل الذي كان يزور فرنسا عام 1878، قائلًا: "اسمح لي مولاي في تقديم حفيدي لجلالتك"، أجابه الإمبراطور: "ليس هنا إلَّا صاحب جلالة واحد هو فيكتور هوجو".

كما حظي بحُبِّ الشعب الجارف، فمن النوادر التي رُويت: أنَّه في أحد الأيام كان الإمبراطور "نابليون الثالث" (1808-1873) يسير في مركبته الإمبراطورية بأحد شوارع باريس الكبرى، فتكاثرت الجماهير حوله كي يُشاهدوه عن قرب، فَسُر بتلك الشعبية الجارفة التي ظن أنَّه يتمتَّع بها، ولكنه ما لبث أن رأى الجماهير تتفرَّق عنه، ونظر ناحية الجماهير التي تركته فجأة، فإذا هم يلتفون حول أحد المارة ويهتفون بحياته، فلمَّا سأل عن الخبر قالوا له إنَّ المار الذي اجتذب الجماهير إليه هو "فيكتور هوجو"، فغضب الإمبراطور غضبًا شديدًا، وأمر أحد رجال الشرطة بالتحقيق مع "هوجو" بتهمة الإخلال بالأمن العام!!

وعند بلوغه الثمانين من عُمْره، احتفلت فرنسا بأسرها بشاعرها العظيم كملكٍ متوج، ومرّ أمام بيته في باريس حوالي ستمائة ألف شخص، بينما الأديب الكبير يُحييهم من شرفته، كما سبق أن احتفى مسرح "الكوميدي دي فرانسيز" عام 1880م، بمرور نصف قرن على أوَّل عرض لمسرحية "هرناني".

كان قوة تمضي للأمام، بقلبه زهرة لم يستطع أحد أن يقطفها، وبعقله أفكار قد حان وقتها كي تُنير الآفاق، لقد كان "فيكتور هوجو".. هذا الرجل.

في القاعة الكبرى
AT THE GREAT HALL

بتاريخ اليوم، تكون قد مضت 348 سنة و6 أشهر و19 يومًا على سكان باريس منذ أن أيقظتهم ضجة الأجراس التي راحت تقرع بعنفٍ في الضواحي القديمة الثلاث. على أنَّ هذا اليوم، السادس من يناير 1482، لم يكن ممَّا يحتفظ التاريخ بذكراه، كما لم يكن في الحادث الذي أثار أجراس باريس وبورجوازييها ما يلفت النظر، فلم يكن من غزوات البيكارديين، ولا ثورة طلاب في الكنيسة، أو موكب الملك مرهوب المقام داخلًا المدينة، بل ولا مهرجان شنق اللصوص في قصر العدالة بباريس. كما لم يكن مناسبة لهبوط موكب سفارة ذي زينات ورايات ممَّا كثر حدوثه خلال القرن الخامس عشر. إذ مرّ يومان فقط على وصول السفراء الفلاماندِيين، المُكلفين بإنجاز عقد الزواج بين ولي العهد و«مارجريت دي فلاندر» Margaret de Flanders، إلى باريس، والذين استقبلهم كاردينال دي بوربون مُرغمًا، وهو المنزعج منهم.

ولكن في الواقع، فإنَّ الذي بعث الحركة والسرور لدى سكان باريس بأسرهم صباح السادس من يناير، هو البهاء المُضاعف ليوم الملوك وعيد المجانين. لقد كان من المُقرَّر في هذا اليوم أن توقد نيران الفرح في «جريف Greve»، وأن يُحتفل بغرسة مايو(آيار) في كنيسة «براك» Braque، ومشاهدة مسرحية «السرّ» في قصر العدالة. وقد نودي بها كلها مساء اليوم السابق على صوت البوق في مفارق الطرق، من قِبل رئيس الشرطة.

في ذلك الصباح ظلت البيوت والمحلات مغلقة، وكانت الجماهير الحاشدة من المواطنين رجالًا ونساءً تتجه نحو تلك الأماكن التي ذكرناها من قبل. إلَّا أن الشطر الأعظم من هذه الحشود اتجهت صوب ميدان نيران الفرح، كما اتجه بعضهم لمشاهدة مسرحية «السرّ» التي ستقدَّم في قاعة «القصر الكُبرى».

كانت جموع الشعب تتدفق بخاصَّة في الشوارع المؤدية إلى قصر العدالة، لأنَّهم كانوا يعلمون أنَّ السفراء الفلاماندیین الذين هبطوا باريس أوَّل البارحة قد عزموا على مشاهدة مسرحية «السرّ»، وانتخاب بابا المجانين، الذي سيجري أيضًا في البهو الكبير، ولم يكن من السهل يومئذ أن يدخل المرء إلى هذا البهو، وهو الذي اشتهر بأنَّه أكبر قاعة مسقوفة في العالم. كما أنَّ باحة القصر التي امتلأت بالناس بدت للمتفرجين من نوافذهم وكأنَّها بحر هادر.

كانت الصيحات والضحكات وصدى وقع آلاف الأقدام تبعث ضجيجًا شديدًا وصخبًا عظيمًا. وكانت الأبواب والنوافذ والأسطح مزدحمة بآلاف الوجوه الهادئة الناظرة إلى القصر.

وكان جانب من هذه القاعة الضخمة مشغولًا بالمنضدة الرُّخامية، التي عبارة عن قطعة واحدة طويلة، عريضة وذات سماكة ليست بالقليلة. وكان يقف حول زوايا المنضدة الرُّخامية الأربع أربعة جنود خلال فترات الأعياد أو حفلات تنفيذ الإعدام.

كما ارتفعت وسط القاعة منصة بُنيت خصيصًا للوفود الفلمنكية، والشخصيات المشهورة ذات الحظوة لمُشاهدة المسرحية.

كان من المتوقع أن يبدأ عرض المسرحية عند إتمام الدقات الاثنتي عشرة لساعة القصر الكبيرة، وهو بالطبع وقت متأخر لعرض تمثيلية مسرحية، ولكنه وُضع خصيصًا ليلائم السفراء الضيوف.

وعلى ذلك فقد كانت هذه الجماهير الغفيرة تنتظر منذ الصباح حتى أنَّ عددًا غير قليل من الفضوليين كانوا يرتجفون من البرد منذ انبلاج الفجر، بل إنَّ بعضهم كان يؤكِّد أنَّه قد قضى الليل كله عند الباب الكبير ليكون أوَّل الداخلين. كان الجمهور يتضخَّم في كل فترةٍ، فأخذ أفراده، كما يكون الماء حين يطفو فيتجاوز حواجزه، يتسلقون الجدران، ويحتشدون حول الأعمدة، ويتكاثرون فوق الشرفات البارزة، والحواجب المنحوتة، يُضاف إلى كل هذا الضيق، ونفاد الصبر، والخصومات التي تنفجر لأتفه الأسباب، تبعثها صدمة مرفق حاد، أو دعسة حذاء، والتعب الذي يُسبِّبه الانتظار الطويل، هذه كلها تثير نوعًا من الأسى والمرارة في صخب الجمهور الذي حُبس وديس وخُنق، قبل حلول ساعة وصول السفراء. فلا تستمع غير الشكاوى والشتائم ضدّ الفلاماندیين، ورئيس التجار، وكاردينال دي بوربون، وقاضي القصر، والجنود حاملي القضبان الخيزرانية، والبرد والحر والجوّ السيئ، وأسقف باريس، وبابا المجانين، والتماثيل، وهذا الباب المغلق، وتلك النوافذ المفتوحة، كل هذا يحدث مع تسلية جماعات الطلاب والخدم المتفرقين بين الناس، والذين كانوا يمزجون هذا العبوس الغاضب بلجاجتهم وفكاهاتهم الشريرة. كانت بين هؤلاء طائفة من هذه الشياطين المرحة التي تجلس بجرأةٍ بالغةٍ فوق السور وفوق قمم الأعمدة بعد أن تحطَّم زجاج إحدى النوافذ، ومن هناك ترسل أبصارها وفكاهاتها إلى الداخل والخارج، من خلال حركاتهم الساخرة وضحكاتهم المُتفجرة والنداءات الهازئة التي كانوا يتبادلونها من

أقصى البهو إلى أدناه، يسهل على المراقب أن يلاحظ بأنَّ هؤلاء الشباب مع رفاقهم لم يكونوا يشاركون بقية المشاهدين في ضجرهم وتعبهم.

كان أحدهم ينادي صديقًا أشقر كشيطان صغير، فيقول له- «أُقسم بأنَّك جوهان فرولو دي مولاندينو Joannes Frollo de Molendino! أنت حقًّا تُسمّى عفريت الطاحونة؛ لأنَّ ذراعيك وساقيك تشبه الأذرع الأربعة للمطحنة الهوائية.. منذ متى وأنت هنا؟».

فيجيبه «جوهان»: «أقسم برحمة الشيطان إنَّني هنا منذ أكثر من أربع ساعات، وإنَّني لأرجو أن تدرج هذه الساعات في حساب الزمن الذي سأمضيه في المطهر، لقد سمعت مُنشدي ملك صقلية الثمانية يرتلون الآية الأولى لقداس الساعة السابعة في الكنيسة المقدسة».

فأجابه آخر: «إنَّهم منشدون رائعون حقًّا، فالأوْلى بالملك أن يسأل القديس يوحنا إذا كان يُحب اللاتينية مرتلة بروفانسية».

فصرخت امرأة واقفة تحت النافذة قائلة: «لقد فعل هذا خصيصًا ليستخدم مرتلي ملك صقلية الملعونة».

فأجابها شخص ضخم وقور كان يغلق فتحتي أنفه، وهو يقف إلى جانب العجوز بائعة السمك قائلًا: «هدوء أيتها العجوز.. لقد كان من الواجب إقامة القداس، فهل تريدين أن يمرض الملك مرَّة أخرى؟».

فقال طالبٌ صغيرٌ: «لقد تكلمت بشجاعةٍ ياسيد» جيل لوكورنو «Gilles Lecornu حائك أثواب الملك».

فانفجرت قهقهة الطلاب الشديدة مستقبلة اسم الحائك المسكين، وتسمرت العيون عليه، وقد جاهد «لوكورنو»، ودون أن ينطق بكلمةٍ واحدةٍ، بأن يختفي عن الأنظار، ولكن دون جدوى.

وأخيرًا بادر أحدهم إلى مساعدته، وكان قصيرًا ضخمًا ووقورًا مثله، فقال: «إنَّها لعنة أن يتحدث الطلاب على هذا النحو مع بورجوازي! كانوا في أيامنا يجلدونهم بحزمةٍ من العصي ثم يحرقونهم بها بعد ذلك». فانفجر الطلاب بالضحك.

ثم قال أحدهم بتهكمٍ: «لقد عرفته، إنَّه الأستاذ» أندريه مونييه «Andry Musnier».

فغمغم السيد «أندريه» قائلًا: «ليأخذكم الشيطان».

فقال «جوهان»: «اسكت يا أستاذ أندريه، أو ألقى بنفسي فوق رأسك».

ثم قال أحدهم: «كم هم رائعون رجالنا في الجامعة، إنَّهم لا يحترمون امتيازاتنا الخاصَّة في يومٍ كهذا.. فليسقط العميد.. والناخبون.. والمراقبون».

فدمدم الأستاذ «أندريه» وهو يسد أذنيه: «هذه نهاية العالم».

ثم صاح رجلٌ ممَّن كانوا على النافذة: «العميد! ها هو يمر هناك». فتحوَّلت كل العيون نحو المكان في الحال.

ثم سأل «جوهان»: «هل هو حقًّا عميدنا الوقور الأستاذ» تيبو «Thibaut؟».

فأجاب الجميع: «نعم.. نعم.. إنَّه الأستاذ» تيبو « العميد».

والواقع أن العميد والشخصيات الجامعية كانوا ساعتئذ يتجهون في موكبٍ جليلٍ أمام السفارة ويجتازون القصر. أمَّا الطلاب المتزاحمون على النافذة فقد استقبلوهم بسخريتهم اللاذعة وتصفيقهم الهازئ. وقد تلقى العميد، وهو على رأس جماعته الدفعة الأولى من هذا التصفيق وتلك السخرية، فكانت قاسية شديدة، كانوا يقولون:

«مرحبًا أيها العميد تيبو، أيها الأبله العجوز، والمقامر العتيد».

«ليحفظك الله، هل قامرت أكثر هذه الليلة؟».

في أثناء هذه التهكمات كان الأستاذ «أندريه مونييه» يميل على أذن حائك أثواب الملك، السيد «جيل لوكورنو»: «أقول لك، أيها السيد، إنَّها نهاية العالم. إنَّنا لم نشهد من قبل أبدًا مثل هذا التجاوز يصدر من جماعةٍ من الطلاب، إنَّها مبتدعات العصر التي أضاعت كل شيء.. إنَّها نهاية العالم تقترب».

وهنا دقت ساعة الظهيرة.

فصرخ الجميع بصوتٍ واحدٍ «آه!.. ها!..». وسكت الطلاب، ثم انبعثت حركة كحركة نقل الأثاث في البيت، وصعدت أصداء الأقدام والرؤوس وارتفعت معها انفجارات عامَّة من السعال، كل يحاول الانتظام والتمركز، ثم ساد صمت كبير، فبقيت الأعناق كلُّها مشدودة، والأفواه جميعها مفتوحة، والأنظار كلُّها متجهة نحو المنضدة الرخامية.

كان الجمهور ينتظر منذ الصباح ثلاثة أشياء: الظهر، وسفارة الفلاندرز، ومسرحية «السرّ». وقد وصل الظهر في الوقت المُحدَّد فقط، ولم يظهر أحد على أي من المنصة أو المسرح.

كان الجنود الأربعة دائمًا هناك ساكنين جامدين كتماثيل مدهونة، واتجهت الأبصار كلُّها نحو المرتفع المُخصَّص للوفود الفلاماندرية، كان الباب مغلقًا، وكان المرتفع خاليًا.

كانت الصدمة شديدة.

وانتظر الجميع طويلًا ولكن شيئًا لم يأت، ولم يحدث أبدًا، فبقي المرتفع خاليًا والمسرح صامتًا، وهنا انبعث الغضب بعد نفاد الصبر، فانطلقت الكلمات الهائجة تسري بصوت منخفض «السرّ! السرّ!».. كانوا يدمدمون بصوتٍ خافتٍ. كانت الرؤوس تمتد، إنَّها العاصفة التي ما تزال في مرحلة الدمدمة تطفو منتشرة فوق الجماهير، وكان «جوهان» أوَّل مَنِ اجتذب شرارتها الأولى:

«السر وليذهب الفلاماندیين إلى الشيطان، صرخ ملء رئتيه وهو يتلوى كالحية.

فراح الجمهور يُصفق مُكرِّرًا:

«السرّ! وليذهب الفلاماندیين إلى كل الشياطين».

وردد أحد الطلاب قائلًا: «نُريد السرّ حالًا أو نشنق قاضي القصر».

وصرخ الشعب: «حسنًا ما فعلت.. ولنبدأ بجنوده الواقفين».

وتبع ذلك هتاف كبير، فبدأ الجنود الأربعة يصفرون وينظر بعضهم إلى بعض، أمَّا الجمهور فقد اتجه نحوهم وقد أخذ المرتفع الخشبي الذي يفصل الجنود عن الجمهور يهبط متهاويًا تحت ثقل الناس وضغطهم.

كانت الفترة حرجة جدًّا.

وفي هذه اللحظة بالذات ظهرت شخصية جديدة لم يكن الجمهور يراها، حتى توقف فجأة وتحوَّل غضبه إلى فضولٍ، وكأنَّه سِحر ساحر:

«سكوت.. سكوت».

وتقدَّمت هذه الشخصية حتى حافة المنضدة الأمامية وكل عضو من أعضائها يرتجف لا سيما وإنَّها لم تكن بعد واثقة مطمئنة.

وهنا شاع الهدوء شيئًا فشيئًا مرَّة أخرى، ولم يبق غير الدمدمة الخافتة التي تنتشر دائمًا في صمت الجماهير.

ثم قال: «أيها السادة البورجوازيون.. إنَّ لنا الشرف بتقديم مسرحية أخلاقية جميلة أمام صاحب النيافة الكاردينال، وعنوانها القضاء الصالح للسيدة مريم العذراء.. أمَّا أنا فسأقوم بتمثيل دور «جوبيتر» Jupiter.. ونيافته يرافق في هذه اللحظة السفارة المحترمة للسيد دوق دوتريش، التي حجزت في هذه الساعة للاستماع إلى خطاب السيد عميد الجامعة عند «بورت بوديه» وسنبدأ مباشرة بعد وصول نيافة الكاردينال».

كان «جوبيتر» يلبس ثوبًا رائعًا يُذكِّر الناس بأزياء اليونانيين القدماء، امتزج فيه المحمل والأشرطة الملوَّنة واللحية التي تملأ صفحتي الوجه.

❋❋❋❋

المسرحية
THE MYSTERY

بينما كان «جوبيتر» يخطب، كان الإعجاب الذي أثاره ثوبه الرائع، يختفي مع أقواله، وعندما بلغ الخاتمة المنكودة لخاطبه، التي يقول فيها: «وسنبدأ مباشرة بعد وصول نيافة الكاردينال»، ضاع صوته في خضمِ هادرٍ من الهتافات الصاخبة: «ابدأوا حالًا! السرّ! السرّ! حالًا!». هكذا كان يصرخ الشعب.

ويُسمع صوت الطالب «جوهان» عاليًا مرتفعًا فوق كل الأصوات مخترقًا لغط الجماهير، كما لو كان صوت مزمار في جوقة متنافرة الموسيقى، قائلًا: «ابدأوا حالًا».

ويُعربد الطلاب المتسلقون فوق النوافذ وعلى رأسهم روبان بوسبان Robin Poussecpain قائلين: «ليسقط جوبيتر.. وكاردينال دو بوربون».

أمَّا «جوبيتر» المسكين فقد ترك الصاعقة تنزل به، مشدوهًا ضائع الرشد، مُصفر الوجه، فحمل قبعته بيدهِ وأخذ يُحيّي الجماهير، وهو يرتجف متمتمًا: «نيافته.. السفراء.. مارجريت دو فلاندر..». لم يكن يعرف ما يقول. كان في أعماقه خائفًا من أن يُشنق، أن يُشنق من الجماهير لأنَّه ينتظر، أو أن يُشنق من قِبل الكاردينال لأنَّه لم ينتظر. وكان من حُسن حظه أنْ بادر أحدهم إلى إنقاذه من هذا الحرج، وتحمَّل المسؤولية بدلًا عنه.

كان إنسانًا يقف في الفراغ الذي يحيط بالمنضدة الرُّخامية، لم يكن أحد قد رآه بعد، لأنَّ قامته الطويلة الرقيقة كانت مختبئة وراء قطر عمود يسكن إليه. كان إنسانًا طويلًا رقيقًا، أشقر اللَّون يميل إلى الصُّفرة، وهو شابٌّ أيضًا رغم التجاعيد في جبهته ووجنتيه مع عينين لامعتين، وفم باسم، وقد اقترب من المنضدة الرُّخامية وأشار إلى «جوبيتر»، ولكن «جوبيتر» لم ير إشارته، فتقدَّم الرجل خطوة أخرى وقال: «جوبيتر! يا عزيزي جوبيتر!»، ومع ذلك لم يسمع نداءه. ثم أخذ يصرخ الرجل: «ميشيل كيبورون» Michel Giborne»، فقال «جوبيتر» وكأنَّه استيقظ فجأة: «مَنْ يناديني؟». فأجابه الرجل ذو اللباس الأسود- «أنا»، فقال «جوبيتر»: «آه»، فقال الرجل الأشقر: «ابدأ حالًا! وارض الناس. وأنا أضمن لك تهدئة السيد قاضي القصر الذي يضمن بدوره تهدئة نيافة الكاردينال».

وتنفس «جوبيتر» الصعداء. ثم صرخ بكل ما في رئتيه من قوَّةٍ في الجمهور الذي كان يتابع هتافاته الصاخبة ضدَّه: «سادتي البورجوازيين، سنبدأ حالًا»، وانفجر البهو بالتصفيق.

أمَّا الرجل المجهول الذي استطاع أن يُحيل العاصفة بسِحر ساحر إلى هدوءٍ تامٍّ فقد دخل ثانية بكل تواضع في ظل عموده، وكان حريًا به أن يبقى مختفيًا، صامتًا كما كان من قبل، لولا أنَّ امرأتين شابتين جالستين في الصَّف الأوَّل من صفوف المُشاهدين كانتا قد لاحظتا حديثه مع «جوبيتر».

قالت إحداهما مُشيرة إليه بالاقتراب: «أيها المُعلِّم». فبادرتها جارتها قائلة ـ وكانت جميلة، رائعة المُحيَّا، متزينة بأبهى الثياب: «أوه، يا عزيزتي

«لياناردِ» «Lienarde، إنَّه ليس كاهنًا، فهو علماني، لذلك لا تناديه بلقب المُعلِّم، بل بلقب السيد».

قالت «لياناردِ»: «أيها السيد».

فاقترب الرجل المجهول من الحاجز، الذي يفصل الجمهور عنه ثم سألها باهتمامٍ بالغٍ قائلًا: «ماذا تبغيان مني أيتها الآنستان؟».

فأجابت «لياناردِ» خجلا: «أوه، لا شيء يا سيدي، إنَّها جارتي «جيسكات» Gisquette التي ترغب في التحدُّث إليك».

فردت «جيسكات»: «لا، أبدًا «لياناردِ» هي التي نادتك بلقب المُعلِّم فصححت لها نداءها».

ثم قال: «إذًا ليس عندكما ما تقولانه لي!!».

وما كاد الرجل الأشقر يخطو خطواته الأولى منسحبًا حتى بادرته «جيسكات» قائلة له: «هل تعرف الجندي الذي سيلعب دور السيدة البتول في مسرحية السرّ؟».

فرد: «أتقصدين «جوبيتر».. أليس كذلك؟».

قالت «لياناردِ»: «بلى، فهل تعرفه؟».

أجاب: «بالطبع يا سيدتي، إنَّني أعرفه فهو ميشيل كيبورون».

فردت «لياناردِ»: «إنَّ له لحية مهيبة».

قالت «جيسكات»: «هل تعدنا بأن يكون السرّ اليوم جميلًا؟».

فأجابها: «لا شك في ذلك»، ثم أضاف قائلًا في نوعٍ من الغرور:

«إنَّني يا سيدتي مؤلِّف هذه المسرحية».

قالت الفتاتان مشدوهتين: «أحقًّا ما تقول؟».

فأجاب الشاعر: «نعم، حقًّا أنا الذي صنعت المسرحية، إنَّني أُدعى بطرس جرنجوار Pieer Gringoire».

كان الطالب «جوهان» متيقظًا ومتنبهًا لما يدور، فصرخ فجأة قائلًا، وسط جوّ الانتظار المسالم الذي أعقب جوّ الضجيج الصاخب: «جوبيتر! السيدة البتول! التمثيلية! ابدأوا أو نعاود سيرتنا الأولى!».

انبعثت موسيقى من آلاتٍ عاليةٍ ومنخفضةٍ، ثم ارتفعت الستارة وظهر من خلفها أربعة أشخاص مرقشين ملونين، ثم تسلقوا سلم المسرح، وانتظموا في صَفٍّ واحدٍ أمام الجمهور، فحيوه تحيةً عميقةً، ثم صمتت الموسيقى، وابتدأت مسرحية السرّ، وبدأ الأربعة، بعد أن تلقوا من الجمهور ثمن تحياتهم تصفيقًا حادًّا مدويًا وسط صمت ديني عميق.

كان «جرنجوار» يقف على بُعد خطوات من المسرح، وهناك كان يصغي وينتظر ويتأمَّل ويتذوق. وكان صدى التصفيق المُشجع الشديد الذي استقبل به تمهيد المسرحية، ما يزال يتجاوب في نفسه. تستغرقه التأمُّلات المنتشية التي يُشاهد بها المؤلِّف أفكاره تهبط واحدة وراء الأخرى في فم الممثل وعبر صمت المشاهدين.

لم يكن «جرنجوار» يقرب شفتيه من الكأس المُسكرة لفرحه وانتصاره، حتى سقطت قطرة من المرارة فامتزجت بها.

إنَّه شحاذ ذو أسمال بالية لم يخرج من جولته بطائلٍ، وقد ضاع في خضم هذه الجماهير، التي لم يجد في جيوب جيرانه منها تعويضًا له عن خسارته، فتخيَّل أنَّ انتصابه في مكانٍ مناسبٍ قد يلفت إليه الأنظار والصدقات، فتسلق، خلال الأبيات الأولى من تمهيد المسرحية، بمساعدة دُعامات المرتفع المُخصَّص للضيوف، الحاجب الذي يُحيط بحاجز المسرح في جانبه السفلي، وهناك جلس مستدرًا انتباه الجموع وشفقتها بأسماله الممزقة، وبجرحٍ بشعٍ كان يُغطي ذراعه اليمنى، وهو لم ينبس بكلمةٍ واحدةٍ. وقد أتاح صمته للتمهيد أن ينطلق دون ضجة أو عقبة.

كان من سوء حظ هذا الشحاذ أنْ رآه الطالب «جوهان» المُقيم فوق دُعامته، فغلبت عليه قهقهة مجنونة، ثم صرخ قائلًا، دون أن يُعير أي اهتمام لمقاطعة المشهد، وإشاعة الاضطراب خلال الصمت العميق: «انظر هذا الخبيث المريض يسأل صدقة!!».

اضطرب «جرنجوار»، كما لو أصابته رعدة كهربائية، وتوقف التمهيد، وتلفتت الرؤوس كلُّها إلى الشحاذ الذي لم يفقد توازنه، بل اغتنمها فرصة مناسبة للربح الوفير فأخذ يضحك ضحكةً كسولةً، مغمضًا عينيه نصف إغماضة، وهو يقول بصوتٍ خفيضٍ: «صدقة لله.. يا رجال الإحسان».

ثم صرخ «جوهان» مرَّة أخرى: «هذا صديقنا كلوبين ترويفو Clopin Trouillefou».

ورمى المتسول بقطعةٍ نقديةٍ صغيرةٍ في قبعته المتسخة.

بعث هذا المشهد في نفوس المشاهدين سرورًا بالغًا؛ فصفق عدد غير قليل منهم، وعلى رأسهم الطالب «روبان بوسيان».

كان «جرنجوار» شديد الغضب، فلم يكد يرجع إلى نفسه بعد زوال أثر المفاجأة حتى راح يصرخ في الممثلين الأربعة: «تابعوا! تابعوا عملكم». وفي هذه الأثناء خضع الممثلون لإلحاحه. أمَّا الجمهور الذي شهدهم يرجعون إلى ما كانوا عليه من الكلام، فأخذ يستمع وقد فَقَد الكثير من المتعة خلال الانقطاع بين جزئي المسرحية.

وفكَّر «جرنجوار» صامتًا في كل هذا، ومع هذا انتشر الهدوء شيئًا فشيئًا مرَّة أخرى، وكان الطالب قد سكت، أمَّا الشحاذ فكان يُعد قطع النقود المتجمعة لديه، ويضعها في قبعته البالية المتسخة. وتغلبت المسرحية في النهاية.

وفجأة، وفي وسط عرض المسرحية، فُتح باب المرتفع المُخصَّص للضيوف، وهو الذي كان مغلقًا في وقتٍ غير مناسبٍ، ثم أصبح فتحه الآن أقلّ مناسبة للوقت، وتردد صدى صوت الحاجب مُعلنًا وصول صاحب النيافة كاردينال دو بوربون.

❊ ❊ ❊ ❊

الكاردينال
THE CARDINAL

مسكين «جرنجوار»، كانت انفجارات كل الأسهم النارية الضخمة لعيد القديس يوحنا،وانطلاق نيران20 بندقية،وانفجار المدفعية الشهيرة لبرج بيلي،التي قتلت سبعة من البورغونيين في طلقٍ واحدٍ بعد الحصار الذي منيت به باريس في29 سبتمبر 1465،كانت كلَّها أقلّ تأثيراً في قسوة تمزيق أذنيه خلال هذه اللّحظة التمثيلية الرائعة من الكلمات القليلة التي نطق بها فم الحاجب:»صاحب النيافة كاردينال دو بوربون».

ولم يكن ذلك لأنَّ «جرنجوار» يخاف الكاردينال أو يحقره، فما كان له ذاك العطف ولا هذا الزهو. فقد كان «جرنجوار» من ذوي الأذهان المتفتحة، المعتدلة، الهادئة، من الذين يعرفون دائمًا كيف يحتفظون برباطة جأشهم أمام كل طارئ.

لم يكن هناك حقد على الكاردينال، ولا كراهية لحضوره، بل العكس، فقد كان لشاعرنا كثير من سلامة الرأي بحيث يضع ثمنًا خاصًا لبلوغ تلميحاته المُتعدِّدة في تمهيده المسرحي، وبخاصَّة تمجيد ولي العهد، وأصحاب النيافة.

كان «جرنجوار» مستمتعًا بما يُحس به ويراه ويلمسه في هذه الجموع التي رغم كونها من رعاع القوم، كانت مندهشة، بل تشهق أمام فقراته الشعرية المفعمة بالمشاعر في تهنئة ولي العهد بزفافه.

لقد حدث ما كان ينتظر حدوثه، فقد أشاع دخول الكاردينال اضطرابًا في صفوف الجماهير، وتلفتت كل الرؤوس إلى المرتفع الخاصّ، فلم يعد يُسمع غير: «الكاردينال! الكاردينال!» تردده على كل الأفواه. أمَّا التمهيد المسرحي المسكين فقد صمت مرَّة أخرى.

ووقف الكاردينال برهة من الزمن فوق عتبة المرتفع الخاص، بينما كان يطوف ببصره اللامُبالي بين الجماهير، فتضاعفت الضجة.

كل شخص كان يُريد أن يراه رؤية أحسن، فكانت هذه الرؤية من نصيب مَنْ وضع رأسه فوق أكتاف جيرانه. الواقع أنَّه كان شخصية عالية المقام، فكان مشهده أروع من أية مسرحية أُخرى.

كان الكاردينال إنسانًا طيبًا، يقضي حياة مرحة، ويستمتع مختارًا بمزارع «شايو» الملكية، ولهذه الأسباب كان قريبًا من جمهور باريس.

ولا شك أنَّ هذه الشعبية التي كان قد اكتسبها بحقٍّ، قد حالت عند دخوله دون أن يكون له استقبال سيئ من قِبل الجمهور الغاضب قبيل ذلك. كما أنَّ الكاردينال كان رجلًا جميلًا، يرتدي ثوبًا أحمر شديد الملاءمة له، ومعنى ذلك أنَّ كل النساء كانت إلى جانبه، وبالتالي النصف الأحسن من الجماهير. والثابت أنَّه من الظلم الشديد وفساد الذوق، أن يُسخر من كاردينال لجعل الناس ينتظرونه في المسرح، حين يكون رجلًا جميلًا، وحين يُحسن حمل ثوب أحمر.

إذًا فقد دخل الكاردينال وقام بتحية الحاضرين، بهذه الابتسامة المتوارثة التي يستعملها الكبار مع الشعب، واتجه بخطواتٍ بطيئةٍ إلى مقعده المخملي

ذي الحُمرة القرمزية، متخذًا هيئة مَنْ يُفكر في شيءٍ آخرٍ، أمَّا موكبه من الأساقفة والكهنة فقد قام بحملةٍ شديدةٍ على حاشيته في المنصة مع مضاعفة للضجة والفضول في أرض البهو الكبير.

أمَّا فيما يتعلَّق بالطلاب فقد كانوا يحلفون مُجدفين. لقد كان اليوم يومهم، يوم عيد المجانين، يوم تهكمهم وفسوقهم، فلا يعيب محرم ولا شفاعة مستقبحة. كانت هناك ثرثارات مجنونات بين الجماهير، وفي وسط هذا الصخب كانت الشتائم الغليظة المنكرة ترتفع وتنتشر بشكلٍ مُخيفٍ من هذه الألسنة المنطلقة، كان كل هذا لا يصل تمامًا إلى المنصة الخاصة، كما أنَّ التأثُّر لم يكن كبيرًا من نفس الكاردينال، مادامت هذه الحريات هي جزءًا من تقاليد الناس. لقد كان للكاردينال همٌّ آخر دلت عليه قسمات وجهه، همٌّ كان يتبعه عن قرب وقد دخل معه تقريبًا إلى المنصة في الوقت الذي دخل فيه إليها، همُّ سفارة الفلاندر.

ومصدر همِّه ليس في أنَّه كان سياسيًّا محترفًا، وإن كان يُفكِّر في النتائج المنتظرة لزواج السيدة ابنة عمِّه «مارجريت دي بورغونيا» مع السيد ابن عمِّه «مارشال» ولي عهد فيينا، أو في مدى بقاء التفاهم المُصطنع بين دوق دوتريش وملك فرنسا، أو في كيفية استقبال ملك بريطانيا المزدري لابنته، فقليلًا ما يشغله هذا الأمر كله. لقد كانت هذه السفارة في جانب آخر، كان شديدًا عليه أن يجد نفسه مُرغمًا على الاحتفال ببعض مَنْ لا يعرف من البورجوازيين، وهو النبيل العظيم، أو ببعض صغار الرؤساء، وهو الكاردينال

الكبير، أو بفلاماندیین شاربي البيرة، وهو الفرنسي، فيجد نفسه مُرغمًا على أن يفعل هذا كلَّه أمام الجمهور.

تلفت الكاردينال نحو الباب بأروع لطف في العالم، حين أعلن الحاجب بصوته الجهور عن وصول السادة رُسل دوتريش، كانوا 48 سفيرًا لـ«مكسيمیليان دوتريش»، على رأس الموكب الأب «جيهان» كاهن «سان برتان». وشاع صمت كبير ترافقه ضحكات مختنقة للاستماع إلى الأسماء المُضحكة والصفات البورجوازية التي كان يدلي بها كل من السفراء إلى الحاجب بوقارٍ هادئ، والذي كان بدوره يُرسل هذه الأسماء والصفات مختلطة ممتزجة مشوهة إلى الجماهير.

ومع ذلك فإنَّ بينها استثناء واحدًا فقط، لقد كان وجهًا دقيقًا ذكيًا كيسًا، وكان نوعًا من فم القرد والدبلوماسي، تقدَّم الكاردينال نحوه ثلاث خطوات باحترامٍ عميقٍ، وهو يُدعى «غليوم ريم» Guilume Rym مستشار مدينة «غان» Chent وحاكمها التنفيذي.

كانوا قلَّة أولئك الذين يعرفون حقيقة «غليوم ريم»، فهو عبقرية فذة، جديرة أن تطفو بقوَّةٍ فوق الحوادث في زمن الثورات، ولكنها كانت في القرن الخامس عشر معزولة في المؤامرات، مكتوبًا عليها أن تعيش في الدهاليز. على أنَّه كان موضع تقدير شديد من قِبل أوَّل هدَّام في أوروبا «لويس الحادي عشر»، الذي كان يدس معه ويتآمر دون كلفة، ثم يضع يدَه غالبًا على حاجات الملك السرية المجهولة من قِبل هذه الجماهير، والذي كان أدب الكاردينال مع شخصية هذا الدساس، يُجملها ويمنحها روعة بالغة.

صانع الأحذية!!
SHOEMAKER!!

بينما كان حاكم «غان» والكاردينال يتبادلان التحيات، ويتكلمان بصوتٍ خفيض، تقدَّم رجلٌ ذو وجه عريض، وكتفين قويتين، مُصاحبًا لـ «غليوم ريم»، فأوقفه الحاجب، ظنًّا منه أنَّه سائس ضلّ الطريق:

«ها، يا صديقي، إنَّك لن تمرّ».

أمَّا الرجل ذو السترة الجلدية فدفعه بكتفه، قائلًا: «ماذا يبغي مني هذا الأحمق؟». قالها بصوتٍ جعل البهو كلَّه متنبهًا إلى هذه المُحادثة الغريبة، ثم قال: «ألَا ترى أنَّني تابع له؟».

فسأله الحاجب: «ما اسمك؟».

«جاك كوبانول! Jacues Coppenole».

«صفاتك؟».

«صانع أحذية ذات السلاسل الثلاث، في مدينة غان».

وتراجع الحاجب. لقد كان ممكنًا أن يُعلن عن مجيء رؤساء المدن وشيوخ القرى، أمَّا صانع الأحذية، فهذا شيء صعب عليه!!

كان الكاردينال كمَنْ يقف فوق كومة من الدبابيس. الشعب كلُّه يرى ويسمع. وقد مضى عليه يومان وهو يُجهد نفسه في لحس هذه الدببة الفلاماندية؛ ليجعلها لائقةً أمام الجمهور، لقد كانت الإهانة شديدة فائقة.

وفي هذه الأثناء تقدَّم «غليوم ريم» بابتسامته اللطيفة، من الحاجب، وهمس بصوتٍ منخفضٍ: «أعلن عن المُعلِّم جاك كوبانول، مُساعد شيوخ مدينة غان».

فرد الكاردينال بصوتٍ مرتفعٍ: «أيها الحاجب أعلن عن المُعلِّم جاك كوبانول مُساعد شيوخ مدينة غان العظيمة».

كان الجهر بالصوت خطأ، وكان «غليوم ريم» قادرًا على تجنُّب هذه الصعوبة، ولكن «كوبانول» قد سمع ما قاله الكاردينال، فصرخ بصوتٍ هادرٍ كالرعد: «لا! جاك كوبانول، صانع أحذية، هل نسيت أيها الحاجب؟ لا أكثر ولا أقلّ! أليس صانع الأحذية شيئًا جميلًا؟».

وقام «كوبانول» بتحية الكاردينال بفخرٍ بارزٍ، ورد الكاردينال هذه التحية إلى البورجوازي القوي، الذي يخافه «لويس الحادي عشر» نفسه.

بلغ الجميع مقاعدهم، ولكن بدا على وجه الكاردينال الهمّ، أمَّا «كوبانول» فكان هادئًا واثقًا متكبرًا، يرى أنَّ صفته كصانعٍ للأحذية لا تقلّ عن أيَّة صفة أخرى.

وفي هذه الأثناء لم يكن قد انتهى كل شيء بالنسبة لهذا الكاردينال المسكين. لقد كان عليه أن يشرب كأس هذه المرافقة السيئة حتى الثمالة.

نعرف الشحاذ الوقح الذي كان يتشبث منذ بداية المسرحية بحواف المنصَّة الكاردينالية، فهو لم يترك مكانه منذ وصول الضيوف الأجلاء. وبينما السادة الأحبار والسفراء يتكومون كالسمك فوق مقاعد المنصَّة كان

هو يجلس في راحةٍ تامةٍ وقد شبَّك ساقيه بشجاعةٍ ظاهرةٍ فوق قاعدة المنصَّة. كانت الوقاحة نادرة جدًّا، فلم ينتبه إليها أحد في بداية الأمر؛ لانشغال الجميع في مكانٍ آخر. أمَّا هو فلم يكن يُلاحظ شيئًا في البهو، فيهز رأسه جيئًا وذهابًا مُكرِّرًا في خضم الضجة من وقتٍ لآخر، كما لو أنَّها عادة آلية له: «صدقة لله، أرجوكم!». والثابت أنَّه كان الرجل الوحيد، بين الحضور، الذي لم يلتفت برأسه ليشهد الشِّجار الناشب بين «كوبانول» والحاجب.

وقد أرادت المُصادفة أن يأتي السيد صانع الأحذية في «غان»، بعد أن فاز بعطف الجماهير، وتركزت عليه الأبصار فيجلس في الصَّف الأوَّل من المنصَّة فوق الشحاذ، ولم يندهش أحد من رؤية السفير الفلامندي يفحص ببصره الشحاذ الغريب الطريف تحت بصره، ثم يربت بلطفٍ بالغٍ على هذه الكتف المُغطاة بالأسمال. والتفت الشحاذ، فكانت المفاجأة، لقد تم التعارف فيما بينهما، فانطلق صانع الأحذية والشحاذ يتحدثان بصوتٍ منخفضٍ دون أي مبالاة بعالم المُشاهدين، وأيديهما متشابكة، بينما كانت أسمال «كلوبان ترويفو» ممدودة فوق جوخ المنصَّة الذهبي كأنَّها أثر دودة الفراش فوق برتقالة.

وقد أثارت طرافة هذا المشهد الفريد من الضجيج المجنون والمتعة الشديدة في البهو ما لم يلبث الكاردينال أن لاحظه وانتبه إليه، فانحنى نصف انحناءة، ولما لم يستطع أن يرى من مكانه غير قبعة «ترويفو» البشعة، خُيِّل إليه أنَّ الشحاذ كان يطلب صدقة من «كوبانول»، فصرخ في ثورةٍ على هذه الجرأة الوقحة، قائلًا: «ألق أيها السيد قاضي القصر بهذا الشحاذ في

النهر». فقال «كوبانول»: «يا صليب يسوع!، يا سيدي الكاردينال! إنَّه أحد أصدقائي». ومنذ تلك اللَّحظة أصبح لـ «كوبانول» رصيد كبير لدى الشعب الباريسي، وفي مدينة «غان»؛ لأنَّ أُناسًا من هذا الطراز، قادرون على كسبه حين يكونون على غير نظام.

وعض الكاردينال على شفتيه، وانحنى فوق جاره الأب رئيس دير القديسة «جنفياف» Genevieve، وقال هامسًا: «كم هم ممتعون هؤلاء السفراء الذين أرسلهم إلينا السيد الأرشيدوق ليطلبون يد السيدة مارجريت!». فأجاب الأب: «إنَّ نيافتك تضيع لياقتك مع هذه الفناطيس الفلاماندية!».

لم يكف «جرنجوار» عن الاضطراب والحركة دفاعًا عن سلامة تمهيده المسرحي حين دخل الكاردينال. فألح على الممثلين بادئ الأمر أن يتابعوا عملهم بصوتٍ مرتفعٍ، بعد أن رآهم يتوقفون، ولما لم يجد مَنْ يستمع إليهم، أوقفهم ثم لم يكف خلال ربع ساعة مرَّت على انقطاع التمثيل عن فحص الأرض بقدميه والتحرُّك إلى كل مكان، والطلب من «جيسكات»، و«ليانارد» بأن تُشجعا جيرانهما على متابعة المشهد المسرحي والإصغاء إليه دون جدوى. إنَّ أحدًا من الناس لم يترك الكاردينال والسفارة والمنصَّة، المركز الوحيد لدائرة الإشعاع البصري. ومع ذلك فقد تخيَّل شاعرنا طريقة جديرة بإنقاذ الموقف حين يرى أن الهدوء استتب قليلًا.

قال ملتفتًا إلى رجل شجاع، ضخم، ذى وجه صبور: «سيدي، ما رأيك لو نبتدئ من جديد؟».

«وماذا؟» قال الجار؟

قال «جرنجوار»: «ها! السرّ!».

فأجاب جاره: «كم ستسرك؟».

واكتفى «جرنجوار» بهذا التأييد النصفي، فبدأ يصرخ مختلطًا بالجمهور قدر استطاعته: «عاودوا السرّ مرَّة أخرى! عاودوه!».

فقال «جوهان دو مولاندينو»: «يا للشيطان! ماذا يغنون هناك؟ (إذ كان جرنجوار يُثير ضجة أربعة أشخاص) قولوا! يا رفاق ألم ينته السرّ بعد؟ إنَّهم يريدون معاودته! ليس هذا من العدل في شيء».

فصرخ الطلاب جميعًا: «لا! لا! ليسقط السرّ! ليسقط!».

ولكن «جرنجوار» ضاعف جهده وهو يصرخ: «عاودوا! عاودوا!».

فلفتت هذه الاحتجاجات الصاخبة الكاردينال. فقال لرجلٍ أسود واقفًا على بُعد خطوات منه: «أيها السيد قاضي القصر هل هؤلاء الناس في جرن ماء مُقدس فيثيرون هذه الضجة المُزعجة؟».

فاقترب القاضي من نيافته، مع خوفه الشديد من انزعاجه، وشرح له متلعثمًا الوقاحة الشعبية، إنَّ الظهر قد وصل قبل نيافته، وإنَّ الممثلين قد أُرغموا على الابتداء دون انتظار نيافته.

فانفجر الكاردينال ضاحكًا: «أقسم أنَّ السيد عميد الجامعة كان جديرًا أن يفعل مثل ذلك.. ماذا تقول في هذا أيها السيد غليوم ريم؟».

فأجاب «غليوم ريم»: «سيدي لنكتفِ بما أصبناه من التخلُّص من نصف المسرحية، فهو ربح لنا».

وسأل القاضي: «وهل يستطيع هؤلاء الصعاليك أن يتابعوا مهزلتهم؟».

قال الكاردينال: «تابعوا! تابعوا! والأمر عندي سواء، إنَّني سأقرأ في كتاب صلاتي أثناء هذه الفترة».

تقدَّم القاضي إلى طرف المنصَّة، وصرخ قائلًا، بعد أن أسكت الجموع بإشارةٍ من يده: «أيها البورجوازيون، أيها القرويون.. لقد تفضَّل نيافة الكاردينال فأمر بمتابعة المسرحية».

رجعت شخصيات المشهد التمثيلي إلى مكانها، وأمل «جرنجوار» أن يستمع الناس على الأقل إلى ما تبقى من إنتاجه. ولكن هذا الأمل لم يلبث أن أصابته الخيبة، شأن أوهامه الأخرى. لقد استتب الهدوء الصامت حقًا بين المُشاهدين، ولكن «جرنجوار» لم يلحظ أنَّه في الوقت الذي كان يصدر فيه الكاردينال أمره بالمتابعة، كانت المنصَّة ما تزال غير ممتلئة، وأنَّ شخصيات جديدة تُشكل جزءًا من الموكب تتابع الدخول، وكانت أسماء هذه الشخصيات وألقابها تقذف عبر محاوراته المسرحية بصرخات الحاجب المتقطعة، فتحدث فيها تخريبًا شديدًا.

بأية مرارة كان «جرنجوار» يشهد ما بناه من المجد والشعر يتساقط قطعة قطعة، ويُفكِّر في أنَّ هذا الشعب كان على أهبة الثورة على قاضي القصر، رغبة منه في الاستماع إلى المسرحية! وهو الآن غير مبالٍ بها! هذه المسرحية نفسها التي بدأت بتأييد جماهيري كاسح. ويُفكِّر في أنَّ أعوان القاضي من الجنود كانوا على شفا خطوة من المشنقة! كم يتمنى لو أنَّه احتفظ بساعة الفرحة هذه! الساعة التي كان فيها تأييد الجمهور للمسرحية تأييدًا كاملًا تامًا.

ومع ذلك فقد توقف مونولوج الحاجب الوحشي، لقد وصل الجميع، وتنفس «جرنجوار» الصعداء مرَّة أخرى، وتابع الممثلون عملهم بشجاعةٍ. ولكن السيد «كوبانول»، صانع الأحذية، يقف فجأة، فيسمعه «جرنجوار» يلقي وسط الإنصات والانتباه، هذا الخطاب المستهجن:

«سادتي بورجوازيي باريس، وسادتها الريفيين، إنَّني لا أعرف وصليب يسوع ماذا نصنع هنا، إنَّني أرى هناك في الزاوية فوق القوائم أُناسًا على وشك الاقتتال، وإنَّني أجهل ما إذا كان هذا هو ما تدعونه بالسرِّ، إلَّا أنَّه غير مسل ولا ممتع. إنَّهم يختصمون باللسان، ثم لا شيء وراء ذلك. هناك ربع ساعة يمرّ وأنا أنتظر لطمة واحدة. ولكن شيئًا لم يحدث. إنَّهم جبناء لا يخدشون أنفسهم إلَّا بالإهانات. لقد كان من الواجب استدعاء مُصارعين من لندن أو روتردام، وهناك تجدون لكماتٍ بقبضات اليد يُسمع صداها من الساحة، أمَّا هؤلاء فيبعثون على الشفقة والرثاء. إنَّ عليهم ـ على الأقلّ ـ أن يُقدموا لنا رقصة موريسكية أو بعضًا من المساخر المُضحكة! فليس هنا ما كان قد قيل لي من قبل. لقد كنت وعدتُ بعيدٍ للمجانين. وقيل لي إنَّني سأشهد حفلة انتخاب البابا. واعلموا أنَّ لنا نحن في «غان» بابا للمجانين. فلسنا متخلفين عنكم في هذا الأمر. ولكن هناك ما نصنعه نحن: نجتمع على هيئة جمهور كبير كما هو الأمر هنا، ثم يدخل المتسابق رأسه عبر ثقب ويُكشر للآخرين، فمَنْ كانت له أقبح تكشيرة بتأييد الجميع انتُخب بابا. إنَّه شيء شديد الإمتاع، فهل تريدون أن نختار بابا لكم على طريقة بلدي؟ إنَّه على كل حال سيكون أقلّ مللًا من الاستماع إلى الثرثارين هؤلاء، فإذا رغبوا أن يصنعوا تكشيرتهم في الكوة مثلنا كانوا من اللاعبين.. ماذا تقولون أيها السادة البورجوازيون؟!

إنَّ هنا ما يكفينا من النماذج الخشنة الغليظة في كلا الجنسين لنضحك على الطريقة الفلاماندرية، ولنا ما يكفي من الوجوه القبيحة لنأمل في تكشيرةٍ لائقةٍ جميلةٍ».

لقد كان «جرنجوار» راغبًا في الردِّ ولكن الدهشة والغضب والتقزز قد نزعت منه القدرة على الكلام.

استقبل الشعب خطاب صانع الأحذية بحماسةٍ شديدةٍ، وأصبحت الآن كل مقاومة شيئًا لا فائدة منه. ولم يبق غير الانسياق مع التيار العاصف، فخبأ «جرنجوار» وجهه بيده، فهو لم يسعفه الحظ فيكون له معطف يُقنِّع به رأسه.

❊ ❊ ❊ ❊

بابا المجانين

THE POP OF FOOLS

أُعد كل شيء في طرفة عين لتنفيذ فكرة «كوبانول» صانع الأحذية. وتم اختيار الكنيسة الصغيرة القائمة تجاه منضدة الرُّخام مسرحًا للتكشيرات. ثم كُسر لوح زجاجي رُسمت عليه وردة جميلة فوق الباب، ليُتيح مجالًا حرًّا لدائرةٍ من الحجر يمدّ المتنافسون رؤوسهم منها. وكان يكفي للوصول إليها أنْ يتسلق المتبارون فوق برميلين وُضع أحدهما فوق الآخر.

وقد تم الاتفاق على أن يُغطي كل مرشح -رجلًا أو امرأةً- وجهه ويبقي مختبئًا في الكنيسة حتى ساعة ظهوره؛ ليجعلوا للتكشيرة صفة الجِدة والفعالية الكاملة. وقد امتلأت الكنيسة الصغيرة بالمتنافسين في فترةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ، ثم أُغلق الباب عليهم.

«كوبانول» من مكانه يُصدر الأوامر، ويُنظم كل شيء. أمَّا الكاردينال فقد انسحب من حاشيته كلِّها خلال الفوضى الصاخبة، بحجة الأعمال وأداء صلوات العصر، دون أن يتأثَّر الجمهور بمبارحته للمكان.

وبدأت التكشيرات، ففجَّرت الصورة الأولى التي ظهرت في الكوة، بأجفانٍ منقلبةٍ مُحمرة، وفم مفتوح على صورة شدق حيواني، وجبهةٍ مُجعَّدةٍ، قهقهات كانت قويةً للغاية. وفي هذه الأثناء لم يكن البهو الكبير أقلّ من جبل الأولمب، صخبًا وحركةً وحيويةً. ثم تتابعت التكشيرات ثانية وثالثة، ثم أخرى، والقهقهات تتضاعف باستمرار تصاحبها دبدبات وأقدام تفحص الأرض وتدقها دقًّا.

لقد كان هذا الاحتفال النهم يتحوَّل فلامنديًا بصورةٍ متزايدةٍ. لنتصوَّر أنفسنا وسط الصخب الشديد في معركةٍ حربيةٍ. لم يعد هناك طلاب وسفراء وبورجوازيون ورجال ونساء، كل شيء قد تماهى وسط الفوضى المشتركة. فلم يعد البهو الكبير غير أتون واسع من المرح واللهو؛ حيث كل فم صرخة، وكل عين لمعة، وكل وجه تكشيرة، وكل فرد من الأفراد موقف على هيئةٍ خاصَّةٍ. كان الكل يصرخون ويعوون. وكانت تنطلق من كل هذه الجماهير المتحمسة، كبخار الأتون، ضجة، خشنة، حادة، لاذعة، صافرة كأجنحة الذباب.

- «انظر هذا الوجه!».

- «إنَّه لا يساوي شيئًا!».

- «لننظر وجهًا آخر!».

- «انظر هذا الشدق الذي كأنَّه شدق ثور، لا ينقصه غير القرون!».

- «إلى آخر!».

«جرنجوار» قد استعاد هدوء أعصابه، بعد أن مرَّت فترة الانهيار الأولى. ثم تصلَّب أمام الخصومة الشديدة. كان يقول لرجاله الممثلين للمرَّة الثالثة، وهم آلاته الناطقة: «تابعوا!». ولم يلبث، وهو يمشي بخطواتٍ واسعةٍ أمام المنضدة الرُّخامية، حتى أحس برغبةٍ خاصَّةٍ في الظهور بدوره أمام كوة الكنيسة الصغيرة، لا لشيءٍ، إلَّا لتكون له لذة التكشير أمام هذا الشعب العاق. ثم قال مُردِّدًا: «ولكن لا، فهذا شيء لا يليق بنا نحن، فلا انتقام، لنقاوم حتى النهاية، إنَّ سلطان الشعر كبير على الشعب، إنَّني سأعود بهم، وسنرى مَنْ ينتصر عليه، التكشيرات أم الفنون الجميلة؟!».

والمؤسف أنَّه قد بقي المشاهد الوحيد لمسرحيته السرّ. وزاد الموقف سوءًا حتى أنَّه لم يعد يرى وسيلة صالحة غير أن يمدّ رأسه من الكوة. لا، بل إنَّ الرجل الضخم الصبور، الذي كان «جرنجوار» قد استشاره في موقف حرج سابق، بقي متوجهًا نحو المسرح، أمَّا «جيسكات»، و «ليانارد» فقد هربتا منذ زمن بعيد.

تأثَّر «جرنجوار» في أعماق قلبه بإخلاص مشاهد العرض الوحيد، فاقترب منه ووجه إليه كلامه، وهو يهز ذراعه هزًّا خفيفًا؛ لأنَّ الرجل الشجاع كان قد اتكأ على الحاجز وأخذته سِنة من النوم.

قال «جرنجوار»: «سيدي إنَّني شاكر لك».

فأجاب الرجل الضخم، وهو يتثاءب: «على ماذا؟».

فرد الشاعر: «إنَّني أرى ما يُزعجك، إنَّها هذه الضجة التي تحول دون أن تستمتع بسهولةٍ.. ولكن كن مطمئنًّا، سينتقل اسمك إلى الأحفاد، هل تسمح باسمك؟».

– «رينو شاتو «Renault chateau حافظ أختام الحصن وأختام باريس في خدمتك يا سيدي».

– «سيدي إنَّك هنا الممثل الوحيد لآلهة الشعر».

فأجاب حافظ الحصن: «إنَّك شديد اللطف يا سيدي».

ورد «جرنجوار» في حماسةٍ: «إنَّك الإنسان الوحيد الذي تفضَّل بالاستماع إلى المسرحية، فكيف تجدها؟».

فأجاب الرجل في نصف يقظة: «لا بأس بها».

كان على «جرنجوار» أن يكتفي بهذا المديح؛ لأنَّ عاصفة من التصفيق، ممتزجة بالهتافات، قطعت حديثهما. لقد انتُخِب بابا المجانين.

كان الشعب يصرخ في كل مكان: «نووال! نووال! نووال!».

والحق أنَّها تكشيرة رائعة تلك التي ظهرت في ذاك الوقت من خلال الكوة. فبعد أن تتابعت كل الوجوه من خلال الكوة دون أن تُحقق البشاعة النموذجية المتكونة في الخيالات التي أثارها الاحتفال النهم الشديد، لم يبق للفوز في الاستفتاء غير تلك التكشيرة فائقة السموّ التي بهرت المجتمعين منذ قليل. لقد صفق المُعلِّم «كوبانول» نفسه، و«كلوبان» الذي اشترك في المباراة، حيث اعترف بالهزيمة.

ظهر الفائز: أنفٌ صلبٌ، وفمٌ يُشبه حدوة الحصان، وعينٌ يسرى صغيرة يسدها حاجب أصهب أشعث، بينما العين اليمنى مختفية اختفاءً كاملًا وراء ورم شديد الضخامة، وأسنانٌ منخورةٌ متكسرة مفلولة منتشرة هنا وهناك في فوضى ظاهرة كأنَّها شرفات الحصن. وشفةٌ متضخمة عَلَتْها سن من أسنان الفم فبرزت إلى الخارج كأنَّها ناب فيل، وذقنٌ متشعبةٌ هوجاءُ.

كان التأييد الهاتف تأييدًا جماعيًّا، فانطلق الناس نحو الكنيسة الصغيرة، وأُخرج منها بفخامةٍ فائقةٍ، الرجل السعيد، بابا المجانين، وهنا كانت المفاجأة والإعجاب قد بلغت القمة. لقد كانت التكشيرة هي وجهه، وبتعبيرٍ آخر كان شخصه كلّه تكشيرة. رأسٌ كبيرٌ تكاثف فيه شعر أصهب، وبين الكتفين حدبة برز جانبها الآخر من الأمام، وأفخاذ وأرداف غريبة لا تتلامس إلَّا بالركبتين، فإذا نظرنا إليها من الأمام ظهرت وكأنَّها منجلان تلاقيا عند القبضة، أقدامٌ عريضةٌ، ويدَان مُخيفتان بشعتان، وهو مع هذا التشويه كلّه يملك من الحيوية

المرعبة والخفة والشجاعة شيئًا كثيرًا. إنَّه في الحقيقة استثناء غريب من القاعدة الخالدة التي تفرض أن تكون القوَّة كالجمال نتاجًا للأجسام. كان هذا هو البابا الذي اختاره المجانين لأنفسهم.

وعندما ظهر هذا العملاق المرعب ذو العين الواحدة على عتبة الكنيسة الصغيرة، كان جامدًا، ذا شكل مربع، داخلًا طوله في عرضه، مربعًا على قاعدته، ذا ثوب أحمر وبنفسجي، وقد انتشرت أكوام النقود من حوله.

الرجل العملاق عندما ظهر، عرفه الجمهور سريعًا، فصرخ بصوتٍ واحدٍ: «هذا هو كوازيمودوQuasimodo المعوج الساقين».

كانت النساء يُغطين وجوههن، تقول إحداهن- «أوه! أي قرد كريه!».

فترد الأخريات: «خبيث في حدود قبحه».

وتضيف الثالثة: «إنَّه الشيطان».

ورابعةٌ تقول: «لقد أتاني في مساءٍ سابقٍ وكشر في كوتي، فخفت خوفًا شديدًا، ظنًّا مني أنَّه رجل».

أمَّا الرجال فقد كانوا، على العكس من النساء، فرحين، وكانوا يصفقون، أمَّا موضوع الضجة الصاخبة «كوازيمودو» كان لا يزال واقفًا عند باب الكنيسة الصغيرة لا يريم، قاتمًا وقورًا. وقد ترك الناس يُعجبون به.

ثم تقدَّم منه أحد الطلاب ويُدعى «روبان بوسبان» يضحك منه عن قرب، فاكتفى «كوازيمودو» بأخذه من حزامه ثم قذف به على بُعد عشر خطوات منه في وسط الناس، فعل هذا دون أن ينطق بكلمةٍ واحدةٍ.

اقترب المُعلِّم «كوبانول» منه، مُعجبًا به، وهو يقول: «يا صليب يسوع، إنَّك أجمل قبح رأيته في حياتي، وإنَّك تستحق بابوية روما». فلم يجب «كوازيمودو».

ثم قال له صانع الأحذية: «هل أنت أصم؟» وتقدَّمت عجوز تخبر «كوبانول» عن صممه.

فقال صانع الأحذية ضاحكًا ضحكةً فلاماندية ضخمة: «يا صليب يسوع! إنَّه بابا بالكامل».

وصرخ «جوهان»، الذي نزل أخيرًا من قمة دعامته ليرى «كوازيمودو» عن قرب قائلًا: «ها! لقد عرفته، إنَّه قارع أجراس أخي الكاهن، مرحبًا كوازيمودو».

وفي هذه الأثناء انطلق الشحاذون والنشالون والخدم مجتمعين مع الطلاب وهم يحملون التاج البابوي من الورق المقوى، وكذلك الثوب المضحك لبابا المجانين.

وترك «كوازيمودو» هؤلاء يلبسونه التاج والثوب دون أن تطرف له عين في نوعٍ من خضوعٍ متكبرٍ. ووُضع فوق محفة مزركشة. وحمله اثنا عشر رجلًا من جمعية المجانين فوق أكتافهم. وهنا ارتسم على الوجه الحزين العملاق ذي العين المفردة فرح مر، شديد الازدراء، حين رأى تحت قدميه المشوهتين كل الرؤوس الجميلة لهؤلاء الرجال الذين استقامت أجسامهم وحُسن صنع أعضائهم.

وابتدأ الموكب المهيب لبابا المجانين طوافه في بهاء القصر ومماشيه قبل خروجه في الشوارع ومفارق الطرق.

الأسميرالدا.. الأسميرالدا
LA ESMERALDA.. LA ESMERALDA

«جرنجوار» ومسرحيته قد صمدا صمودًا شديدًا أثناء هذا المشهد كلِّه، فلم ينقطع ممثلوه، تحت تأثيره، عن إلقاء مسرحيتهم، ولم ينقطع هو شخصيًا من الاستماع إليها.

لقد اتخذ موقفه من الضجة القائمة، مُصممًا على السير حتى النهاية، آملًا رجوع الناس إليه. وقد انتعش شعاع الأمل حين رأى بابا المجانين «كوازيمودو»، وصانع الأحذية «كوبانول»، والموكب الصاخب لهذا البابا يخرجون من الصالة في ضجةٍ عاليةٍ، واندفع الجمهور من ورائهم في تعطشٍ شديدٍ.

قال: «حسنًا، ها هم المُفسدون يذهبون»، ولكن المؤسف أنَّ الجمهور كلَّه كان من المُفسدين، فخلا البهو الكبير كلُّه في طرفة عين.

والحق أنَّه قد بقي فريق من المُشاهدين، بعضهم متفرِّق هنا وهناك، والبعض الآخر مجتمع حول الدُّعامات، نساء وعجزة وأطفال، أرهقهم ما سمعوه من الضجة والصخب.

وكان بعض الطلاب باقيًا فوق حواجب النوافذ، ينظرون في استغراقٍ إلى الميدان، وفكَّر «جرنجوار» قائلًا: «حسنًا، هناك عددٌ كافٍ من الناس للاستماع إلى نهاية السرّ، إنَّهم قليلون، ولكنَّهم من النخبة، من المثقفين».

أمَّا السيمفونية التي كان عليها أن تُحدث الأثر الكبير عند وصول القديسة البتول في فصلٍ من فصول المسرحية، بعد فترةٍ قصيرةٍ، فلم تكن موجودة. لقد لاحظ «جرنجوار» أنَّ موسيقاه قد حملها موكب بابا المجانين. ثم قال في ألمٍ ممتزجٍ بالصبر: «انتقلوا إلى ما وراء هذا المشهد».

واقترب من جماعةٍ من البورجوازيين الوجهاء، الذين خُيِّل إليه أنَّهم يتحدثون عن مسرحيته. وهاك بعضًا من المُناقشة الدائرة بينهم:

«هل تعرف أيها المُعلِّم «شناتو»، فندق «نافار» الذي كان ملكًا للسيد «تيمور»؟».

- «نعم، إنَّه قائم تجاه كنيسة براك».

- «حسنًا، لقد أجرته خزانة الدولة لـ «غليوم أليكساند» بمبلغ ست ليرات، وثمانية دراهم في السنة».

- «كم ترتفع الأسعار!!».

فقال «جرنجوار» لنفسه: «هيا! إنَّ الآخرين يستمعون».

وصرخ، فجأة، واحد من أولئك القابعين فوق النوافذ: «الأسميرالدا.. الأسميرالدا في الميدان».

فأحدثت هذه الكلمة أثرًا سِحريًّا. وقفز الجميع من البهو نحو النوافذ مُتسلقي الجدران لينظروا مُرددين: «الأسميرالدا.. الأسميرالدا».

وفي الوقت نفسه سُمعت في الخارج ضجة تصفيق شديد. قال «جرنجوار» وهو يُشبِّك يديه حزنًا: «ماذا تعني هذه الأسميرالدا؟ آه! يا إلهي! الظاهر أنَّ دور النوافذ قد أتى الآن!!».

والتفت نحو المنضدة الرُّخامية فوجد أنَّ المسرحية قد توقفت. لقد كانت الفترة فترة ظهور «جوبيتر» مع جوقته، ولكن «جوبيتر» بقي جامدًا تحت المسرح.

وخرج الشاعر الثائر، قائلًا: «ميشيل كيبورون، ماذا تصنع هنا؟ أليس هذا دورك؟ اصعد الآن!».

قال «جوبيتر» بخجلٍ: «آسف يا سيدي، فإن طالبًا أتى وأخذ السلم!». ونظر «جرنجوار»، فتحقق من الأمر. وانقطعت كل علاقة بين عُقدة المسرحية وبين حلها.

فدمدم «جرنجوار» قائلًا: «ولِمَ أخذ هذا السلم بالذات؟ فأجاب «جوبيتر» بطريقةٍ مُثيرة للشفقة: «أخذها ليرى الأسميرالدا!». لقد قال: انظروا، هذا سلم غير مستعمل، ثم أخذه.

كانت هذه آخر الصدمات. وقد تلقاها «جرنجوار» بصبرٍ راضٍ، ثم قال لممثليه: «ليحملكم الشيطان! سأدفع لكم إن دُفع لي!».

وهنا تراجع «جرنجوار» منخفض الرأس، ولكن كقائد الجيش الباسل، الذي هو آخر مَنْ يتراجع ويعترف بهزيمته.

كان يُزمجر بين أسنانه، قائلًا، وهو ينزل درجات سلالم القصر الملتوية: «كم هم أغلاظ حمقى هؤلاء الباريسيون، إنَّهم يأتون ليستمعوا إلى مسرحية السرّ، فلا يسمعون منها شيئًا! لقد شغلوا بكل الناس، بـ«كلوبان ترويفو»، بالكاردينال، بـ«كوبانول»، بـ«كوازيمودو»، بالشيطان! أمَّا بالسيدة مريم البتول فلا!. ولو كنت أعلم لأعطيتكم كثيرًا من العذارى، أيها الكسالى الأغرار! لقد أتيت لرؤية وجوه، فما رأيت غير الظهور! صحيح أنَّ هوميروس قد تسول في القرى اليونانية، وأنَّ نازون قد مات منفيًّا عند المسكوفيين، ولكنني أرجو أن يسلخ الشيطان جلدي إنْ أنا فهمت ما يعنون بكلمة الأسميرالدا! فما هي هذه الكلمة؟ إنَّها فيما يُخيَّل إليَّ لُغة المصريين القُدماء!!».

❊ ❊ ❊ ❊

إلى أين المسير؟
WHERE TO GO ?

يهبط الليل باكرًا في يناير؛ لذلك كانت الشوارع مظلمة حينما خرج «جرنجوار» من القصر. وقد سرَّه هذا الليل الهابط؛ كي يسير متخفِّيًا في شارع مظلم خال من الناس، ويتأمَّل فيه متمهلًا.

لم يكن يدري أين يقضي ليله بعد الإخفاق المُشين الذي أصاب محاولته المسرحية، ولم يكن يجرؤ على الدخول إلى منزله، شارع ـ جروينا سورلو ـ Grenier-Sur L'Eau، وهو الذي اعتمد على ما كان يجب أن يدفعه له السيد رئيس الشرطة، مُقابل قصيدته في تهنئة الزوجين الملكيين على زفافهما، ثم يدفع بدوره للسيد صاحب منزله ما كان مدينًا له به من أجور سكن لستة أشهر، أي اثني عشر درهمًا.

وبعد أن فكَّر قليلًا، تذكَّر أنَّه قد لمح في الأسبوع الماضي، في شارع «لاسافتري» La Savaterie، عند باب منزل مستشار في البرلمان، درجًا قال في نفسه عنده: «إنَّه يصلح يومًا وسادة جيدة جدًّا لمتسولٍ أو شاعرٍ».

وشكر العناية الإلهية التي أرسلت إليه هذه الفكرة، ولكنه بينما كان يستعد لاجتياز ميدان القصر ليبلغ مداخل المدينة القديمة الملتوية، رأى موكب بابا المجانين يخرج من القصر ويتجه مُعترضًا طريقه بصيحاتٍ عاليةٍ، وأنوار من المشاعل كبيرة، والآلات الموسيقية التي أُخذت منه.

وقد بعثت هذه المناظر الألم في وجدانه، فهرب. كان في خضم مغامراته الفاشلة يحس أن كل ما يذكره يؤلمه ويُدمي جراحه. أراد أن يسير فوق جسر

القديس ميشيل، ولكنه وجد فيه أطفالًا يتراكضون هنا وهناك وفي أيديهم رماح ملتهبة وصواريخ.

قال «جرنجوار» في نفسه: «ليصب الطاعون هذه المشاعل النارية». ثم وجد أمامه شارعًا بدا من الظلمة والعزلة بحيث توقع أن يتخلص فيه من كل الأصداء ومن كل إشعاعات العيد. وتقدَّم فيه، ولم تكن فترات قصيرة تمرّ به، حتى صدمته إحدى العقبات فتعثرت قدمه ووقع على الأرض. إنَّه حذاء مايو(أيار) الذي كانت صعاليك الصبيان قد وضعوه عند باب رئيس البرلمان احتفالًا بروعة هذا اليوم. قد تحمَّل «جرنجوار» هذه الصدمة الجديدة ببطولةٍ بالغةٍ، ثم نهض واتجه نحو حافة الماء. وبعد أن قطع الجدار الطويل لحدائق الملك، فوق هذه الأزقة غير المبلطة حيث كانت الأوحال تبلغ كعب قدمه، وصل إلى نهاية الجهة الغربية من المدينة القديمة، وتأمَّل قليلًا جزيرة رُعاة البقر الصغيرة.

لقد كانت هذه الجزيرة الصغيرة تبدو له كتلة سوداء وراء المجرى المائي الضيق المائل إلى البياض والذي يفصله عنها، فيتبيَّن فيها الناظر عند بزوغ نور ضئيل، كوخًا كان يلجأ إليه رُعاة البقر عند الليل.

وفكَّر «جرنجوار» قائلًا: «كم أنت سعيدٌ يا راعي البقر! فأنت لا تُفكِّر في المجد ولا تنظم قصائد تهنئة على زفاف! وماذا يهمك من الملوك الذين يتزوجون! لا تعرف إلَّا الحشائش التي تنبت فوق مراعيك الخضراء لتقضمها بقراتك! وأنا الشاعر الفنان، يُهزأ بي وأُهاجم، ثم أرتجف من البرد الشديد، وأجد نفسي مديونًا باثني عشر درهمًا، وأمَّا نعلي فهو من الشفافية بحيث

يصلح زجاجًا لمصباحك! شكرًا يا راعي البقر! لقد أراح كوخك نظري، وأنساني باريس!!».

واستيقظ من نشوته الغنائية على فرقعةٍ مزدوجةٍ انطلقت فجأة من الكوخ السعيد، لقد كان راعي البقر يُشارك نصيبه في متع النهار ويُطلق ألعابًا ناريةً.

لقد سحقت هذه الفرقعة أعماق «جرنجوار».

فصرخ قائلًا: «أيها العيد الملعون! هلا ستلاحقني في كل مكان؟أوه! يا إلهي! حتى عند راعي البقر؟». ثم نظر إلى نهر السين عند قدميه وقد استولت عليه رغبة محمومة بشعة.

وقال: «أوه! لكنت أُغرق نفسي مختارًا، لو لم يكن الماء شديد البرودة!».

وهنا سرى في جلده عزم يائس على الاندماج في وسط العيد والذهاب إلى ميدان «جريف» بعد أن عجز عن التخلُّص من بابا المجانين، وأحذية مايو(أيار)، والمشاعل الملتهبة، والمفرقعات.

وردد قائلًا: «قد أقع هناك في كل حال على جمرةٍ من نار الفرح تبعث الدفء في جسدي، وأتعشى بفتاتٍ من الشعارات الكبيرة الثلاثة المصنوعة من السكر الملكي، والتي يجب أن تكون موضوعة فوق مقصف المدينة العمومي».

❋ ❋ ❋ ❋

الراقصة الغجرية
THE GYPSY DANCER

كان «جرنجوار» يرتعد من البرد حين بلغ ميدان «جريف»، وقد اتخذ طرقه إلى الميدان فوق جسر الطحانين، ولكن عجلات مطاحن الأسقف قد أصابته برشاش مائها فابتلت بذلته. ثم أسرع مُقتربًا من نار الفرح التي كانت تشتعل رائعة وسط الميدان، ولكن جمهورًا كبيرًا كان يُحيط بها فلا يترك منفذًا.

قال في نفسه: «سحقًا لكم أيها الباريسيون»، ثم أضاف: «ها هم يضيقون الخناق عليَّ! ومع ذلك فأنا في حاجةٍ ماسةٍ إلى زوايا المدفئة. إنَّ حذائيَّ يشربان الماء، كما بكت هذه المطاحن الملعونة من فوقي غزيرة الدموع! كم هو شيطان لعين! أسقف باريس مع طواحينه! وكم أتمنى أن أعرف ما يستطيع أسقف أن يعمله بطاحونةٍ! فهل ينتظر أن يُصبح أسقفًا طحانًا! ولئن لم يبق غير لعنتي ليكونه، فإنَّني أمنحه إيّاها كما أمنحها لكاتدرائيته وطواحينه أيضًا، لنر قليلًا ما إذا كان هؤلاء البلهاء سيزعجون أنفسهم! إنَّني أسألكم عمَّا يصنعونه هنا؟! إنَّهم يتدفأون! كم هذا لذيذ! إنَّهم ينظرون أكداسًا من الأخشاب الضئيلة تحترق! كم هو مشهد جميل!».

ثم أدرك بعد مزيد من التدبُّر والتفكُّر، أنَّ الدائرة التي كوَّنها المُشاهدون حول النار أوسع من أن تسمح له بالتدفئة بنار الملك.

لم يكن هذا الحشد الكبير من الجماهير منجذبًا بجمال الهشيم والأخشاب المحترقة فقط، لقد كانت في الفضاء الرحب بين النار والجمهور فتاة ترقص. وطبيعي أنَّ «جرنجوار» لم يستطع للوهلة الأولى أن يحكم ما إذا كانت هذه الفتاة كائنًا بشريًا أو شيطانةً من الجن، أو ملاكًا.

الفتاة لم تكن طويلة، ولكنها كانت تبدو كذلك، وقوامها الدقيق ينطلق جريئًا، وكأنَّه سهم ذو ريش، لقد كانت سمراء، ولكن جلدها في نظر المُراقب، يبدو في وضح النهار وكأنَّه يجب أن تكون له الشعاعة الذهبية للرومانيات والأندلسيات. وكذلك قدمها، فقد كانت أندلسية صغيرة، ضيقة في راحةٍ، بحذائها الحلو اللطيف. كانت ترقص، وتدور، وتُثير حولها إعصارًا عاصفًا فوق بساط فارسي عتيق. كانت عيناها السوداوان الكبيرتان تقذفان من حولها الناس ببريقٍ لامعٍ كلَّما لوحت وهي تدور، بوجهها المُشع مارة بالقرب منهم.

كانت الأنظار كلُّها موجهة إليها، والأفواه كلُّها فاغرة، والواقع أنَّها بينما كانت ترقص على صدى دقات دفِّها الذي كانت ترفعه ذراعاها المُستديرتان الصافيتان إلى فوق رأسها، دقيقة، دقيقة، مُفعمة بالحياة، وبينما كانت تحمل مشدها الذهبي الأملس، وثوبها المنتفخ المرقش، وكتفيها العاريتين، وساقيها الممشوقتين اللتين تنكشف عنهما «تنورتها» بين الفينة والفينة، وشعرها الأسود، وعينيها اللاهبتين، كانت تبدو مخلوقة ممَّا وراء الطبيعة.

قال «جرنجوار» في نفسه: «الحقيقة، إنَّها حورية من الآلهة». وفي هذه الأثناء انحلت من شعرها ضفيرة ودرجت فوق الأرض قطعة من النحاس الأصفر كانت بها موصولة، قال: «آه! إنَّها غجرية!!».

وهكذا اختفى كل وهم من أوهامه.

وعادت الفتاة ترقص مرَّة أخرى، ورفعت سيفين عن الأرض، وركَّزت رأسيهما فوق جبهتها ثم جعلت تديرهما في اتجاه مُعاكس لاتجاه دوراتها الراقصة. لقد كانت في الحقيقة الصريحة الواضحة فتاة من الغجر.

بين هذه الآلاف من الوجوه التي كان يلونها اللَّهب باللَّون الأحمر القرمزي، كان هناك وجه يبدو أكثر استغراقًا في تأمُّل الفتاة الراقصة. لقد كان وجه رجل، صارم، هادئ وقاتم. لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عُمْره فيما يظهر. وهو الذي خفيت بذلته وراء الحشود التي كانت تُحيط به، وكان أصلع في الوقت نفسه، لم يبق له غير خصلات من شعرٍ أبيض متناثرٍ، وابتدأت التجعُّدات تنحفر في جبهته العالية العريضة، أمَّا في عينيه الغائرتين فقد كان شبابًا عجيبًا وحياة لاهية، وقد أبقى عينيه موصولتين بالغجرية.

وبينما كانت فتاة السادسة عشرة ترقص مجنونة، كانت أحلام «جرنجوار» اليقظة فيما يظهر تزداد قتامة بصورةٍ مُضطردةٍ. وكانت تلتقي على شفتيه بين الفينة والفينة، ابتسامة وزفرة، ولكن ابتسامته كانت أكثر ألمًا من زفرته.

وتوقفت الفتاة عن الرقص بعد أن أخذ منها التعب مأخذه، فصفق لها الجمهور في حُبٍّ خالصٍ.

قالت الغجرية.

«دْجالي» Djali

وهنا شاهد «جرنجوار» عنزة صغيرة جميلة بيضاء، حذرة، شديدة اليقظة، يُزينها قرنان ذهبيان، وأظلاف ذهبية، وعقد ذهبي أيضًا، كانت العنزة جاثمة فوق طرف من أطراف البساط الفارسي القديم، تنظر إلى سيدتها الراقصة.

قالت الراقصة: «دْجالي، لقد جاء دورك!».

وقدَّمت وهي تجلس، بحركةٍ رقيقةٍ لطيفةٍ، إلى عنزتها، الدفّ الذي كانت تحمله.

ثم تابعت قائلة: «دْجالي! في أي شهر نحن من السنة؟». فرفعت العنزة ظفلها الأمامي ونقرت به الدفّ نقرة واحدة. لقد كان الشهر الأوَّل من السنة في الحقيقة، وصفق الجمهور.

ثم رددت الفتاة، قائلة، وهي تقلب دفّها: «دْجالي! في أي يوم من الشهر نحن؟».

ورفعت «دْجالي» ظفلها الذهبي الصغير، ونقرت على الدفِّ ست نقرات متتابعة.

وتابعت الغجرية أسئلتها مع حركةٍ جديدةٍ من حركات الدفّ: «في أي ساعة نحن من هذا اليوم؟».

فنقرت «دْجالي» سبع نقرات في الوقت نفسه الذي كانت فيه ساعة بيت الأعمدة بالميدان تدق السابعة.

لقد كانت الجماهير في دهشةٍ غامرةٍ حقًّا.

– «إنَّ وراء هذا كله لسِحرًا!». عبارة أطلقها صوت من الجمهور. لقد كان صوت الرجل الأصلع الذي لم تكن عيناه تفارقان الفتاة الغجرية.

صمتت الفتاة حائرة، والتفتت تنظر، لكن التصفيق المتفجر قد أفسد هذه الملاحظات الشرسة، بل إنَّه محا كل أثر لها في نفس الفتاة التي راحت تتابع محاوراتها مع العنزة الصغيرة.

– «دْجالي»! كيف يكون تصرُّف السيد غيشار جران– ريبي قائد رُماة المدينة في موكب المسيح إلى الهيكل؟».

فانتصبت «دْجالي» واقفة على قدميها الخلفيتين وأخذت تثغو وهي تمشي بوقارٍ هو من اللطف بحيث إن جموع المُشاهدين قد انطلقت في ضحكةٍ عاليةٍ أمام الإخلاص المصطنع لقائد رُماة المدينة.

وقالت الفتاة، وقد شجعها النجاح المتعاظم: «دْجالي! كيف يعظ السيد جاك شارمولو، نائب الملك في محكمة الكنيسة؟». فجلست العنزة على مؤخرتها جلسة مطمئنة وأخذت تثغو وهي تمدّ قدميها الأماميتين بطريقةٍ هي من الغرابة بحيث إن جاك شارمولو قد ظهر فيها، بحركته وبهجته وأوضاعه المختلفة، لولا خلو المشهد من الفرنسية واللاتينية الرديئتين.

هذا والجمهور يصفق بحماسةٍ بالغةٍ متعاظمةٍ. وارتفع صوت الرجل الأصلع مرَّة ثانية، وهو يقول: «هذا تدنيسٌ وانتهاكٌ لحرمة المقدسات».

والتفتت الفتاة مرَّة أخرى، وقالت: «آه! إنَّه هذا الإنسان الكريه نفسه!». وكشرت له في حركةٍ ظهرت وكأن عهدها به قديم، واستدارت حول كعبها، وانطلقت تجمع عطيات الناس في دفّها الذي كانت تحمله.

ونزلت قطع النقود كالمطر، حتى بلغت «جرنجوار» الذي وضع يده في جيبه بحركةٍ طائشةٍ، ثم لم تلبث أن توقفت، وعقَّب الشاعر قائلًا: «يا للشيطان!»، بعد أن وجد فراغ جيبه. كانت الفتاة تنظر إليه بعينيها الكبيرتين، وتمدّ دفّها منتظرة، أمَّا «جرنجوار» فقد كان ينهمر العرق من على جبينه.

لم يلبث لحُسن حظه، أن أنجده حادث طارئ. لقد صرخ صوت حاد منطلق من أشدّ الميدان قتامة، يقول: «هل ستذهبين أيها الجرادة الغجرية؟». فالتفتت الفتاة مذعورة، إنَّه لم يعد صوت الرجل الأصلع، بل كان صوت امرأة، صوتًا خبيثًا.

ومع ذلك فإنَّ الصوت الذي ذُعرت منه الغجرية، قد بعث المرح في مجموعةٍ من الأطفال كانت تضطرب بهم خُطاهم هناك.

قالوا صارخين وقد أطلقوا ضحكات غير منتظمة: «هذه حبيسة برج رولان، إنَّها السجينة التي تدمدم! فهل لم تتناول عشاءها حتى الآن؟ لنحمل إليها بقية فتات مقصف المدينة!».

وانطلق الجميع نحو بيت الأعمدة.

وفي هذه الأثناء استغل «جرنجوار» اضطراب الراقصة وانكفأ يختبئ، وذكَّره هتاف الأطفال أنَّه هو أيضًا لم يتناول عشاءه بعد. وانطلق نحو المقصف. ولكن سيقان الأطفال كانت أفضل من ساقيه، فلم يكد يبلغ المكان حتى وجد أنَّهم قد أتوا على ما فيه من طعامٍ. ولم يبق على الجدار غير زهور ممشوقة من الزنبق، تتخللها ورود.

كانت أحلام يقظته هذه تستغرق انتباهه كلَّه بصورةٍ متزايدةٍ، حين انتزعه منها، غناء الفتاة الغجرية.

كان غناؤها رائعًا روعة رقصها، كانت الكلمات التي تغنيها من لغةٍ يجهلها، بل كانت تبدو له مجهولة من قِبل الفتاة نفسها. لقد بعث غناء الغجرية اضطرابًا في أحلام «جرنجوار» اليقظة، ولكن كما يكون الاضطراب الذي تبعثه البجعة في الماء. كان يستمع إليها في نوعٍ من لذةٍ غامرةٍ ونسيان مطلق لكل شيء، لقد كانت الدقائق الأولى التي لم يشعر فيها بالألم منذ ساعات طويلة كثيرة.

وكانت الدقائق قصيرة.

فقد ارتفع الصوت النسائي نفسه يقطع هذا الغناء، بعد أن قطع رقص الغجرية من قبل. قالت المرأة صارخة من زاوية الميدان المظلمة نفسها: «هل ستسكتين يا زير جهنم؟».

وتوقفت الزير المسكين عن الغناء. وأغلق «جرنجوار» أذنيه، قائلًا: «أوه، يا للمنشار الوحشي الملعون، الذي حطم القيثارة!!». في تلك الأثناء ظهر موكب بابا المجانين، يتقدَّمه الغجر رجالًا ونساءً، في فوضى بالغة، مع صغار أطفالهم الذين كانوا يصرخون فوق أعناقهم بثيابهم الرثة، الباهتة البالية.

بالطبع كان من غير المتوقع في موكبٍ كهذا، أن ينطلق أحد الناس نحو «كوازيمودو» بابا المجانين بصورةٍ مفاجئةٍ، وأن ينتزع من بين يديه وبحركة غاضبة ثائرة، عصاه الخشبية الذهبية، شارة بابويته المجنونة.

لقد كان هذا الرجل الجريء، هو نفسه، الرجل الأصلع الذي بعث القشعريرة في الفتاة الغجرية المسكينة بأقواله وتهديداته وكُرهه، قبيل ذلك بقليل، حين كان مختلطًا بجماعة الفتاة الغجرية. لقد كان يلبس زيه الكهنوتي. وقد عرفه «جرنجوار» حين خرج من بين الناس في صرخة اندهاش: «إنَّه أستاذي، دوم كلود فروللو Dom Claude Frollo يا للشيطان!! ما الذي يبغيه من هذا الأعور الكريه؟إنَّه سيقتل نفسه!!».

والواقع أنَّ صراخًا مرعبًا قد ارتفع. فقد نزل «كوازيمودو» المُخيف من المحفة، فاستدارت النساء حتى لا يرينه يُمزِّق الكاهن.

وبقفزةٍ واحدةٍ بلغ الكاهن، ونظر إليه ثم جثا على ركبتيه، أمَّا الكاهن فقد انتزع قبعته، وحطم عصاه، ومزق ثوبه. وبقي «كوازيمودو» جاثيًا، مطأطئ الرأس، مضموم الكتفين.

ثم كانت بينهما محاورة غريبة بالإشارات والحركات؛ لأنَّ كلًا منهما لم يكن يتكلم. أمَّا الكاهن، فواقفٌ ثائرٌ، مُهدَّدٌ، طاغ، وأمَّا «كوازيمودو» فراكعٌ، متواضعٌ، ضارعٌ. وفي هذه الأثناء بدا «كوازيمودو» قادرًا على سحق الكاهن بطرف إبهامه لو أراد ذلك.

وأخيرًا أشار الكاهن إلى «كوازيمودو»، بعد أن هز كتفه القوية بقسوةٍ، أن يقف ويتبعه. فوقف «كوازيمودو» وهو يتبعه. قال «جرنجوار»: «هذا شيء رائع حقًّا، ولكن أين أجد ما آكله؟».

في الشارع المظلم
IN THE DARK STREET

راح «جرنجوار» يتتبع الغجرية مستسلمًا إلى الأقدار.

لقد رآها تسير، مع عنزتها، في شارع «الكوتلليرى»، فسار فيه.

كان يقول في نفسه: «ولِمَ لا؟!».

كانت الفتاة الغجرية تُسرع الخُطى، تتقدَّمها عنزتها الجميلة، كانت تنظر إلى البورجوازيين الذاهبين إلى بيوتهم، وتشهد الحانات التي تغلق أبوابها، لعلها هي الوحيدة المستيقظة إلى الآن.

كان يُفكِّر، قائلًا في نفسه: «يجب أن تسكن الفتاة في مكانٍ ما، فللغجريات قلب طيب! مَنْ يعرف؟!».

في تلك الأثناء، كانت الشوارع، تزداد إظلامًا وخلاءً، وكان جرس إطفاء الأنوار قد قرع منذ زمن طويل، بحيث لم يعد يمرّ فوق أرض الشوارع غير أفراد بين الواحد والآخر مسافة طويلة.

انساق «جرنجوار» وراء الغجرية، في هذه المتاهة من الأزقة المُبهمة، الغامضة. كان يقول: «هذه الشوارع لا تملك غير القليل من المنطق». وقد كاد يضيع في هذه الآلاف من المسالك التي تصب دائمًا فيما يُشبهها، لولا أنَّ الفتاة الشابة كانت تسير في طريقٍ خُيِّل إليه أنَّه يعرفه، تسير دون تردد، بخطواتٍ تزيد سرعتها باطراد.

والواقع أنَّه قد نبَّه الفتاة إلى وجوده منذ قليل، فكانت تلتفت إليه برأسها في محاولاتٍ متكررةٍ، قلقةٍ ومضطربةٍ، حتى أنَّها قد جُمدت في مكانها في إحدى هذه المحاولات، مستفيدة من بروز شعاع من النور عبر أحد المخابز لتثبته بنظرها من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه، ولم تكد تفعل حتى لاحظ «جرنجوار» تلك التكشيرة الصغيرة التي ارتسمت على وجهها، وتابعت الفتاة طريقها.

دفعت هذه التكشيرة الصغيرة «جرنجوار» إلى التفكير، فقد كان فيها على حلاوتها شيء من الاحتقار والسخرية. فبدأ يخفض رأسه، ويعد بلاطات الشارع، ويتتبع الفتاة على مسافةٍ أبعد قليلًا من قبل، حين سمعها ترسل صرخة ثاقبة، عند مفرق شارع غيَّبها عن نظره.

فأسرع الخُطى.

كان الشارع غارقًا في ظلمةٍ دامسةٍ، ومع ذلك فإنَّ فتيلًا مُبللًا بالزيت، يحترق في قفصٍ حديدي عند قدمي القديسة العذراء لزاويةٍ من الشوارع، قد سمح له أن يعرف الغجرية وهي بين ذراعي رجلين يجتهدان في إخماد صراخها. أمَّا العنزة المسكينة فخفضت رأسها، مذعورة، تثغو.

صرخ «جرنجوار»: «ساعدونا أيها الحرس»، ثم تقدَّم بجرأةٍ. فالتفت إليه أحد الرجلين اللذين كانا يمسكان الفتاة. فوجد فيه وجه «كوازيمودو» المُرعب والمُخيف.

لكن «جرنجوار» لم يهرب، إلَّا أنَّه لم يتقدَّم بعد ذلك خطوة واحدة.

فاقترب «كوازيمودو» وألقى به أرضًا على بُعد أربع خطوات منه بظهر كفه. ثم انطلق سريعًا في الظلام حاملًا الفتاة مطوية فوق إحدى ذراعيه كأنَّها منديل حريري، ورفيقه يتبعه، والعنزة المسكينة تركض وراءهم بثغائها الذي يبعث على الشفقة.

أمَّا الغجرية البائسة فكانت تصرخ: «أيها المجرم! أيها المجرم!».

فانطلق صوت كأنَّه الرعد العاصف أرسله فارس برز سريعًا من مفرقٍ مجاور، قائلًا: «قفا أيها البائسان واتركا لي هذه الفاجرة». كان قائدًا من قواد رُماة الرمح الملكي، مُسلحًا من فوق رأسه حتى أخمص قدميه، وبيده سيف عريض مسلول.

فانتزع الغجرية من على ذراع «كوازيمودو» المبهور، ووضعها عرضًا فوق سرج حصانه، وبينما كان الأحدب المُخيف ينطلق ليسترجع فريسته، بعد أن رجعت نفسه إليه، برز خمسة أو ستة من الفرسان الذين كانوا يتبعون قائدهم عن قرب وفي قبضة كل منهم سيف مستقيم ذو حدين، إنَّها كتيبة من الحرس الملكي تقوم بعملية تفتيش.

وقُبض على «كوازيمودو» وقُيِّد، فكان يزمجر، ويعض، ولو كان الوقت نهارًا، لما كان هناك شك من أن وجهه وحده، الذي يُزيده الغضب قبحًا وبشاعةً جدير بأن يبعث الرُّعب في أفراد الكتيبة.

أمَّا رفيقه فقد اختفى وسط المعركة.

وانتصبت الغجرية برشاقتها الحلوة فوق سرج الضابط، وأمسكت بيديها كتفي الرجل الشاب، وثبتت فيه نظرها لعدة ثوان، كما لو أنها كانت سعيدة بجمال طلعته، وبالنجدة الطيبة التي حملها إليها، ثم قطعت الصمت لتبادره بقولها، وقد زادت من حلاوة صوتها الرقيق:

«ما اسمك أيها الضابط؟».

فأجاب وقد انتصب قوامه: القائد فوبوس دي شاتوبارPhoebus De Chateaupers.. في خدمتكِ ياجميلتي».

فردت قائلة: «شكرًا».

وبينما كان الضابط «فوبيوس» يفتل شاربيه، تركت نفسها لتنزلق إلى أسفل الحصان كالسهم الواقع على الأرض، ولاذت بالفرار.

❊ ❊ ❊ ❊

خداع الشيطان!

SATAN DECEIVE!

بقي «جرنجوار» مطروحًا على بلاط الشارع تجاه العذراء الطيبة وهو في غمرةٍ من الضياع إثر سقوطه. ثم بدأ يستعيد وعيه، فشعر في الدقائق الأولى أنَّه يطوف في أحلام يقظة، كانت تمتزج بين الغجرية وعنزتها، وبين قبضة «كوازيمودو» القاسية. ولم تدم هذه الحالة طويلًا؛ فقد أيقظه إحساس مؤلم بالبرد في الجزء الذي يُلامس بلاط الشارع من جسده، فقال فجأة: «من أين يأتيني هذا البرد؟».

ثم أدرك أنَّه وسط جدول الشارع الموحل.

قال: «يا للشيطان الأحدب العملاق ذي العين الواحدة!».

ثم عزم على النهوض، ولكنه كان مرهقًا، فأرغم على البقاء في مكانه، وسد أنفه بيده التي بقيت حرة غير مُقيَّدة.

ثم صرخ مرَّة أخرى: «آه! إنَّني أكاد أتجمَّد من هذا الصقيع!».

وفجأة انتشر في جوانب نفسه إحساس جديد ذو طبيعة جديدة.

لقد كان فريق من الأولاد، من هؤلاء المتوحشين العُراة، الصغار الذين طالما امتلأت بهم أزقة باريس تحت اسم «المُشردين»، كانت جماعة من هذه الكائنات الغريبة تنطلق نحو المفترق الذي يجثم فيه «جرنجوار»، بضحكاتٍ وصرخاتٍ تبدو غير مُبالية بنوم الجيران.

كانوا يجرون وراءهم كيسًا لا شكل له، وكانت ضجة «قباقيبهم» جديرة بإيقاظ الأموات. و«جرنجوار» الذي لم يكن قد أصبح في عِدادهم، قد نهض أو يكاد.

كانوا ينادون بأعلى أصواتهم: «لقد مات أوستاش موبون العجوز، لقد مات منذ قليل! إنَّنا نحمل فراشه، وسنقيم نار الفرح.. إنَّ اليوم يوم الفلاماندیین!».

وها هم يلقون الفراش فوق «جرنجوار»، الذي اقتربوا منه دون أن يروه، وفي الوقت نفسه انتزع أحدهم قبضة من القش ليشعلها من مصباح العذراء الطيبة.

كاد صاحبنا يضيع بين الماء والنار، فنهض واقفًا، وألقى بالفراش فوق الأولاد الصعاليك، وفر هاربًا.

صرخ الأولاد قائلين:

«أيتها العذراء، هذه روح التاجر العجوز».

وهربوا هم أيضًا.

وبقي الفراش سيدًا منتصرًا في ميدان المعركة، وقد أكَّد «بلفوريه» Blforah الأب القاضي، أنَّ الفراش قد جُمع في اليوم التالي في أُبهةٍ بالغةٍ، من قِبل كهنة الحي، ثم حُمل إلى خزانة كنيسة القديسة «أوبورتون» Ooborton، حيث جعل منه شماس الكنيسة حتى عام 1789 مورد رزق لا بأس به، زاعمًا أنَّ تمثال العذراء قد استطاع بمُجرَّد وصوله في ليل 6 -7 يناير 1482 أن يبعث الحياة في جسم «أوستاش موبون»، الذي خبأ روحه وهو يموت، بأسلوبٍ خبيثٍ، في كيس فراشه، مُحاولًا خداع الشيطان!!

في بلاط العجائب
IN THE COUR DES MIRACLES

وبعد أن أطلق شاعرنا «جرنجوار» ساقه للريح، دون غاية مقصودة، متجهًا إلى كل زاويةٍ يراها من زوايا الشوارع، مجتازًا عددًا من الأزقة، باحثًا عن منفذ له خلال كل المنعطفات الموجودة، توقف فجأة، وقال في نفسه، وقد ضغط بإصبعه على جبهته: «يبدو لي أيها المُعلِّم بطرس جرنجوار أنَّك تركض كالمعتوه.. ويبدو لي أنَّك عندما سمعت ضجة قباقيبهم وهم يركضون في الجنوب، بينما تهرب أنت في الشمال، لذلك فإنَّ أمامك أحد أمرين: إمَّا أنَّهم قد هربوا وإذًا يكون فراش القش الذي تركوه وراءهم هو السرير المضياف الذي تسعى وراءه منذ الصباح، والذي أرسلته إليك السيدة العذراء بصورةٍ عجائبيةٍ، أو أنَّ الأطفال لم يهربوا، وفي هذه الحالة وجب أن يضعوا الشعلة في الفراش، حيث النار الطيبة التي تحتاج إليها لتجفف ثيابك وتتدفأ.. وإنَّه لمن الجنون أن تهرب تاركًا وراءك ما تُفتش عنه.. فأنت إذًا أحمق».

وهكذا رجع، باحثًا عن الفراش القش مرَّة أخرى.

وذهبت جهوده كلُّها مع الريح، وأخيرًا نفد صبره وانهارت أعصابه فانطلق صارخًا: «ملعونةٌ أنتِ أيتها المفارق». ولم يلبث أن رأى نوعًا من شعاع أحمر، وقع نظره عليه، في نهاية زقاق طويل ضيق، فقال: «حمدًا لله، إنَّ هناك فراش القش يحترق».

ولم يكن يخطو خطوات قليلة في الزقاق الطويل، حتى وقع نظره على شيء غريب فريد، لقد كانت تزحف هنا وهناك كتل غامضة لا شكل لها، متجهة كلَّها نحو اللَّهب الذي يتذبذب في نهاية الشارع.

تابع «جرنجوار» طريقه، ولم يلبث حتى بلغ موطن هذه الديدان، التي كانت تنسحب بكسلٍ بالغ، وباقترابه منها، لم يجد أمامه غير مُقعَّد بائس يقفز على يديه، فكأنَّه عنكبوتٌ حقل جريح لم يعد له غير قدمين فقط، ثم سمعه يطلب منه المُساعدة بصوتٍ حزين وباللغة الإيطالية.

فقال «جرنجوار»: «ليحملك الشيطان، وليحملني معك!».

ثم التقى كتلة ثانية، فإذا كسيح مُصاب في الوقت نفسه بعرج، وذراعه مقطوعة، وقد حيّاه هذا الكائن، وهو يمرّ به، ثم صرخ في أذنيه يطلبُ الصدقة بالإيطالية أيضًا.

لقد أراد مُضاعفة الخُطى، ولكن شيئًا حجز الطريق دونه للمرَّة الثالثة، كان هذا الكائن هو رجلًا أعمى، نحيل الجسم، بوجه يهودي، ذي لحية، فطلب منه باللاتينية، وبصوتٍ صافر من أنفه، وبلهجةٍ هنغارية، المُساعدة، فالتفت نحو الأعمى، وقال له: «يا صديقي! لقد بعتُ في الأسبوع الماضي آخر قميص لي!».

ولم يكد يقول ذلك حتى استدار وتابع طريقه، ولكن الأعمى أخذ يُطيل خطواته في الوقت نفسه، ولم يلبث المُقعد والكسيح أن انطلقا مُسرعين، وأخذ الثلاثة يتزاحمون متدافعين وراء «جرنجوار» المسكين، وهم يغنون أغاني تسولاتهم المعهودة.

وصرخ «جرنجوار» وهو يسد أذنيه، ثم راح يركض، فركض الأعمى وراءه، ثم تبعهما الكسيح فالمُقعَّد.

وكلَّما ازداد إمعانًا في اجتياز هذا الزقاق، كان المُقعّدون، والعمي، والعرج يتزاحمون حوله، أمَّا العور والمُصابون بالبرص فقد اتجهوا كلهم

نحو النور، خارجين من المنازل، والأزقة الصغيرة، وكوي الأقبية، يصيحون ويعوون متمرغين في الأوحال.

لم يستطع «جرنجوار» الفكاك منهم، فلقد فات الأوان، ثم وجد المتسولين الثلاثة يمسكون به، وأخيرًا بلغ نهاية الزقاق الذي يصب في ميدان كبير حيث كانت تتذبذب مئات من الأنوار المُتفرقة في ظلمة الليل الحالكة. ألقى «جرنجوار» بنفسه في الميدان، آملًا أن يتخلص بسرعة ساقيه من الأشباح الثلاثة المشوهة، التي تعلقت به، فصرخ الكسيح مُلقيًا عكازيه راكضًا وراءه بساقين هما خير ساقين داستا بلاط باريس، وفي هذه الأثناء انتصب المُقعّد على قدميه، عندها قنع «جرنجوار» بصفحته الثقيلة المُغلَّفة بالحديد، أمَّا الأعمى فقد كان ينظر إليه بعينين يتقد منهما الشرر.

فقال الشاعر مذعورًا: «أين أنا؟!».

أجاب طيف رابع، كان قد التحق بهم: «أنت في بلاط العجائب!».

فرد «جرنجوار»: «قسمًا بروحي، إنَّني أرى العمي يبصرون، والعرج يركضون، ولكن أين الرَّبّ المُخلص؟!».

ثم ارتفعت صرخة واضحة النبرات، في غمار طنين الجماهير الغريبة العجيبة التي كانت تُحيط بالمسكين، قائلة:

«لنحمله إلى الملك».

ودمدم «جرنجوار»، بصوتٍ هامس: «أيتها القديسة العذراء، أملكٌ هنا! إنَّه يجب أن يكون تيسًا!».

ثم رددت الأصوات كلّها: «إلى الملك! إلى الملك!».

وحُمل «جرنجوار» البائس إلى ملكهم.

سأل الملك، هو في أعلى برميله:

«مَنْ هو هذا التافه؟».

فارتعد «جرنجوار» من الخوف. لقد ذكَّره هذا الصوت القميء، بصوت آخر مَنْ وَجه إلى مسرحيته في الصباح السابق ضربة قاضية، وهو يخنخن وسط المُشاهدين: «أرجوكم إحسانًا وصدقة»، ثم رفع رأسه فوجد أمامه المتسول «كلوبان ترويفو» نفسه، فقال متلعثمًا: «أيها المُعلِّم.. يا صاحب السعادة، يا صاحب الجلالة، كيف يجب أن أدعوك؟».

– «ادعني كما تشاء.. قل يا رفيقي، أو يا صاحب السادة، أو يا صاحب الجلالة، بشرط أن تسرع.. ما عساك أن تقول دفاعًا عن نفسك؟».

تذمر «جرنجوار»، ثم قال: «هذا شيء لا يسرني»، وتابع متلجلجًا: «إنَّني ذاك الذي في الصباح الفائت.. «فقاطعه «كلوبان» قائلًا بعصبيةٍ: «اسمك أيها التافه ولا شيء أكثر من ذلك.. اسمع إنَّك أمام حُكام ثلاثة أقوياء.. نحن قُضاتك.. لقد دخلت إلى مملكة الأوباش دون أن تكون واحدًا منهم، فانتهكت حرمة امتيازات مدينتنا، وإذًا يجب أن تُعاقب، اللَّهم إلَّا إذا كنت لصًّا متسولًا أو مُتشردًا.. هل أنت واحد من هؤلاء؟ اذكر ما عندك، وأعلن عن صفاتك».

قال «جرنجوار»: أنا آسف جدًّا، فليس لي مثل هذا الشرف، إنَّني مؤلِّف..».

– «يكفي هذا!»، قالها «ترويفو» مُقاطعًا.

– «إنَّك ستشنق، إنَّه شيء بالغ السهولة، إنَّ القانون الذي تدينون به اللصوص هو نفسه الذي تُدانون به، فإذا كان قاسيًا فأنتم المسؤولون عنه.. إنَّني سأشنقك تسلية للصوص، كما أنَّك ستعطيهم محفظتك يشربون بما فيها من نقود. وإذا كان عندك من السخريات ما تُحب أن تصنعه، فهناك في المستودع حيث يوجد صليب من الحجر سرقناه من إحدى الكنائس، فنمهلك أربع دقائق لكي تلقي بروحك فوق رأسه».

وبعد طول مداولات ومشورات، قال «ترويفو»: «اسمع.. أنا لا أرى ما يمنع من شنقك.. ونحن لا نريد بك شرًّا، هناك وسيلة تنقذ بها نفسك مؤقتًا.. هل تريد أن تكون واحدًا من؟».

قال «جرنجوار» بصوتٍ مرتفعٍ ممتلئ: «نعم أُريد ذلك بكل تأكيد».

فرد «كلوبان»: «هل توافق على أن تكون واحدًا من أفراد العصابة؟».

أجاب «جرنجوار»: «نعم العصابة على وجه التحديد».

ثم اقترحوا عليه القيام بتفتيش التمثال الخشبي.

تمثالًا خشبيًّا علَّقه اللصوص بالحبل في عنقه، وقد أُلبس قماشًا أحمر، وعُلق فيه آلاف من الأجراس الصغيرة.

وهنا أشار «كلوبان» إلى موطئ قدم خشبي مترجرج، موضوع تحت التمثال، فقال لـ «جرنجوار»: «اصعد فوقه!».

فاعترض «جرنجوار»، فأمره للمرَّة الثانية بالصعود.

فصعد «جرنجوار» فوق الموطئ الخشبي، ثم توصل إلى تحقيق توازن بين ذبذبات في رأسه وذراعيه.

ثم قال آخر: «أمَّا الآن فارفع قدمك اليمنى إلى ساقك اليسرى، وقف على طرف قدمك اليسرى».

فقال «جرنجوار»: «يا صاحب السيادة، إنَّك تُصر إذًا على أن أكسر عضوًا من أعضائي!!».

فقال «كلوبان»: اسمع يا صديقي، إنَّك تُكثر من الكلام: إنَّك ستنتصب فوق طرف قدمك، وبهذه الطريقة تبلغ جيب التمثال، تبحث فيه ثم تخرج محفظة موجودة بها، وإذا فعلت هذا كلَّه دون أن نسمع طنين أي جرس من الأجراس، أصبحت من ثمّ واحدًا من النشالين اللصوص».

قال «جرنجوار» متسائلًا: «وإذا طن أحد الأجراس؟».

- «نشنقك، هل فهمت؟!».

قال «جرنجوار» بصوتٍ منخفض: أوه! هل يمكن أن ترتبط حياتي بأقلِّ ذبذبةٍ من أحد هذه الأجراس؟»، ثم أضاف: «أوه! أيتها الأجراس لا تقرعي، أيتها الجلاجل لا تجلجلي!».

رفع «جرنجوار» قدمه اليُمني حول قدمه اليسرى، ثم مدّ ذراعيه، ولكنه بينما كان يلمس التمثال، تأرجح جسده الذي لم تبق له غير قدم واحدة، فوق الموطئ الخشبي ذي الأرجل الثلاثة، فأراد بصورةٍ آليةٍ أن يستند إلى التمثال، ففقد توازنه، وسقط ثقيلًا على الأرض، وقد أصمَّه الطنين الرهيب لآلاف أجراس التمثال الصغيرة، ثم سمع صوت «ترويفو» وهو يقول:

«ارفعوا هذا الأبْله، واشنقوه بقسوةٍ».

ونهض، وقد رُفع التمثال الخشبي ليحل «جرنجوار» محله.

فاقترب منه «كلوبان» حيث وضع الحبل على عنقه، وقال له وهو يربت على كتفه: «وداعًا أيها الصديق، إنَّك لن تستطيع الآن خلاصًا!».

وتهيأ الجميع لشنقه. يا لها من لحظات مريرة!

وفجأة، قال «كلوبان»: «انتظروا قليلًا، لقد كدت أنسى، لقد جرت العادة عندنا ألَّا نشنق رجلًا إلَّا بعد أن نسأله إذا كانت ترغب فيه إحدى النساء، وهذه فرصتك الأخيرة، يجب أن تتزوج نشالة، أو مصيرك الحبل».

ثم نادى «كلوبان» على النساء.

طبيعي أن يكون «جرنجوار» في هذه الحالة قليل الإغراء بالنسبة لأيّة امرأة.

وبدت النشالات قليلات التأثُّر أمام هذا الاقتراح، فلقد سمعهن «جرنجوار» البائس يقلن: «لا! لا! اشنقوه!».

وفي هذه الأثناء خرجت ثلاث منهن من صفوف الجمهور، كانت الأولى فتاة ضخمة، ذات وجه مربع، تأملت بانتباه شديد سترة الشاعر المُحزنة، والتي كانت بالية ممزقة، وكشرت الفتاة، ثم قالت مجمجمة: «رايةٌ قديمةٌ!». ثم أردفت متوجهة إلى «جرنجوار»: أين معطفك؟».

قال: «لقد أضعته!».

- «وقبعتك؟».

- «لقد أُخذت مني!».

- «وحذاءاك؟».

- «لقد بدآ يفقدان نعليهما!».

- «ومحفظتك؟».

- «آسف - إنَّني لا أمتلك درهمًا واحدًا!».

أجابت النشالة، وهي تُدير ظهرها له:

«اترك نفسك تُشنق، وقلْ شكرًا!!».

أمَّا الثانية، فهرمة، سوداء، كريهة، ذات قبح يُلفت النظر، دارت حول «جرنجوار»، الذي كان يرتجف من مُجرَّد تصوره أنَّها غير راغبة فيه، ولكنها قالت في جمجمة بين أسنانها: «إنَّه هزيل جدًّا!!» وابتعدت.

وكانت الثالثة فتاة ذات شباب متوسط، غير شديدة القبح، فقال لها «جرنجوار» المسكين بصوتٍ خفيضٍ متوسلٍ: «أنقذيني!!». فتأملته مُشفقة خلال برهة صغيرة ثم خفضت عينيها، وعقدت ثنية في تنورتها، ووقفت مُتردِّدة، ثم قالت أخيرًا: «لا! عشيقي يضربني!!».

وفي هذه الأثناء، قال «كلوبان»:

«لقد أبرمت الحكم، اشنقوه».

ثم ارتفع صراخ عظيم بين الأوباش، وهم يقولون:

«الأسميرالدا! الأسميرالدا!».

فارتعد «جرنجوار»، واستدار نحو الجهة التي صدر عنها الصوت الهادر. ثم قال مشدوهًا «الأسميرالدا؟!».

لقد كانت هذه المخلوقة النادرة، ذات سلطان قاهر، باهر بجمالها، حتى في بلاط العجائب.

اصطف الجميع رجالًا ونساءً، يستقبلونها، وهي تمرّ، ثم اقتربت من «جرنجوار» بخطواتٍ خفيضةٍ، تتبعها عنزتها الظريفة «دْجالي»، و«جرنجوار» اقترب إلى الموت منه إلى الحياة، فتأملته الفتاة صامتة في برهةٍ وجيزةٍ، ثم قالت لـ «كلوبان»:

«هل ستشنقون هذا الرجل؟».

أجابها أحد ملوك الأوباش: «نعم يا أختاه، إلَّا إذا قبلتِ باتخاذه لكِ زوجًا؟».

وتحرَّكت شفتها السُّفلي في تكشيرتها الصغيرة الحلوة، ثم قالت:

«إنَّني آخذه!».

ثم حمل هذا الملك جرَّة من الطين، قدَّمتها الغجرية بدورها إلى «جرنجوار»، وقالت له:

«ارم بها الأرض!».

وتحطمت الجرَّة فكانت قطعًا أربعةً.

وهنا قال هذا الملك، واضعًا يديه فوق الجبهة:

«أيها الزوج، إنَّها زوجتك، أيها الأخت، إنَّه زوجكِ لأربع سنوات.. اذهبا!!».

ليلة زفاف غريبة!

A STRANGE WEDDING NIGHT!

وجد شاعرنا نفسه، خلال وقت قصير، في غرفةٍ صغيرةٍ، مُحكمة الإغلاق، بالغة الدفء، جالسًا أمام منضدة تبدو كأنَّها لا تطلب خيرًا من لقيماتٍ في قفصٍ للطعام مُعلَّقًا، وحيدًا مع فتاة جميلة، لم تكن بادية الاهتمام به أو الانتباه إليه.

كانت تروح وتجيء، تُحرِّك بعض المقاعد، أو تتحدَّث مع عنزتها، وتضع تكشيرتها هنا وهناك. وأخيرًا أتت لتجلس قريبًا من المنضدة، فاستطاع «جرنجوار» أن يتأمَّلها مليًّا، وهو يقول في نفسه: «هذه هي الأسميرالدا؟ أية مخلوقة سماوية! بل وأية راقصة شوارع! وجهت إلى مسرحيتي في الصباح ضربتها المميتة، وهي التي أنقذت حياتي عند المساء.. قسمًا بشرفي، إنَّها امرأة جميلة! لقد وجب أن تكون مُغرمة بي غرامًا حتى الجنون إذ أخذتني على هذه الطريقة.. لا أدري كيف حدث ذلك كله، ولكنني زوجها..».

اقترب «جرنجوار» من الفتاة، فتراجعت إلى الوراء.

قالت: «ماذا تُريد مني؟».

– «هل لكِ أن تسأليني عنه يا أسميرالدا المعبودة؟».

وفتحت الغجرية عينيها الكبيرتين، وقالت:

«إنَّني لا أعرف ماذا تُريد أن تقول؟».

فرد «جرنجوار»: «ما هذا؟ ألستُ لكِ أيتها الصديقة الرفيقة، ألستِ لي؟!».

ثم أحاط قوامها بذراعيه، في سذاجةٍ تامّةٍ.

وانزلق أعلى جسد الفتاة من يديه، وقفزت مرَّة واحدة إلى الطرف الآخر من الحجرة، ثم انحنت واستقامت مرَّة أخرى، وقد أمسكت في يدها خنجرًا صغيرًا قبل أن يُتاح لـ «جرنجوار» من الزمن ما يرى به مصدر هذا الخنجر الذي كان قد خرج منه، فعلت كل هذا وهي ثائرة، فخورة، منتفخة الشفتين، مُحمرة الوجه.. وفي الوقت نفسه وقفت العنزة البيضاء إلى جانبها وكشفت لـ «جرنجوار» عن جبهة مُقاتلة عنيدة.

وتحوَّلت الفراشة دبّورًا لم تكن تطلب غير أن تلسع، أمَّا «جرنجوار» فقد وقف متسمرًا على قدميه، ينقل بين العنزة والفتاة نظرات ساذجة بلهاء.

قالت الغجرية: «يجب أن يكون إنسانًا غريبًا وشجاعًا».

فقال مبتسمًا: «عفوًا آنستي، ولكن، لِمَ اتخذتني زوجًا لكِ؟!».

- «هل كان يجب أن أتركك تُشنق؟».

فرد الشاعر، وفي نفسه قليل من الخيبة:

«وإذًا فلم يكن في نفسكِ، حين تزوجتِ مني، غير فكرة إنقاذي من المشنقة؟».

- «وأية فكرة أُخرى تُريد أن تكون لي؟!».

فعض «جرنجوار» على شفتيه، وقال:

«دعكِ من هذا، فلستِ حتى اليوم صاحبة انتصارات في ميدان الحُبّ فيما كنتُ أعتقد، ولكن ما هي المصلحة في تحطيم هذه الجرَّة المسكينة؟».

لم تجب.

وفي هذه الأثناء كان خنجر «الأسميرالدا» وقرنا العنزة في وضعٍ دفاعي.

فقال لها:

«أُقسم لكِ بنصيبي من الجنة ألَّا أقترب منكِ دون أن تأذني لي بذلك، ولكن أعطيني ما أتعشاه..».

ولم تجب الغجرية، بل كشرت تكشيرتها الصغيرة المزرية، ورفعت رأسها كالعصفور، ثم انفجرت ضاحكة، واختفى الخنجر الصغير كما كان قد ظهر.

وبعد برهة قصيرة، كان فوق المنضدة رغيف من الخبز، وقطعة من الشحم، وبضع تفاحات، وكوب من النبيذ.. وراح «جرنجوار» في شراهةٍ شديدةٍ يأكل.

أمَّا الفتاة فكانت تنظر إليه، مشغولة فيما يبدو بفكرةٍ أخرى، تبتسم لها بين وقتٍ وآخر، بينما كان كفها الرقيقة تمرّ حانية فوق رأس عنزتها الذكية.

وفكَّر «جرنجوار» بعد أن انتهى من تناول وجبته، ناظرًا إلى ما كانت تنظر إليه: «يا للشيطان! ما الذي يشغلها؟».

ثم رفع صوته قائلًا: يا آنستي!».

لم تكن تبدو سامعة له.

فردد بصوتٍ أعلى: «أيتها الآنسة أسميرالدا!».

يبدو أن ذهن الفتاة في مكانٍ آخر، لكن من حُسن حظه، أنَّ العنزة أخذت تشدّ كُمّ سيدتها برقةٍ وهدوءٍ، فقالت الغجرية بحدةٍ، كما لو كانت استيقظت في قفزةٍ واحدةٍ:

«ماذا تريدين يا دْجالي؟».

فقال «جرنجوار»: «إنَّها جائعة».

فأخذت «الأسميرالدا» تفتت قطعة من خبزٍ، فتأكلها العنزة من جوف كفها سعيدة.

حاول «جرنجوار» أن يستغل فترة إفاقتها من أحلام يقظتها، فقال:

«إذًا أنتِ لا تبغيني زوجًا لكِ؟».

وثبتت فيه الفتاة نظرها، ثم قالت:

«لا!».

وتابع «جرنجوار»:

«ولا كصديقٍ؟».

فنظرت إليه ثانية، وأردفت بعد فترة من التفكير:

«ربما!».

قال: «هل تعرفين ما تعنيه الصداقة؟».

أجابت الغجرية:

«نعم! إنَّها أن نكون أخًا وأختًا، أن نكون روحين تتجاوران ولكنهما لا تتداخلان، كما تكون إصبعان من أصابع اليد الواحدة».

وتابع «جرنجوار»:

«والحُبّ!».

قالت وفي صوتها اضطراب، وفي عينها بريق:

«أوه! الحُبّ! هو أن نكون اثنين، ثم لا نكون إلَّا واحدًا فقط. رجلٌ وامرأةٌ يذوبان معًا في ملاك، إنَّه السماء!».

ولم ييأس «جرنجوار» من متابعة المناقشة، فقال:

«وإذًا كيف يجب أن أكون حتى أبلغ موضع الإعجاب من نفسكِ؟».

– «يجب أن تكون رجلًا.. الرجل هو ذو الخوذة الحديدية في رأسه، والسيف في قبضة يده..».

قال «جرنجوار»:

«حسنٌ جدًّا فليس هناك رجل دون حصان، هل تُحبين أحدًا؟».

– «تقصد الحُبّ».

– «نعم أقصد الحُبّ».

وبعد أن توقفت قليلًا تُفكِّر، قالت بلهجةٍ خاصَّةٍ:

«سأعرف ذلك وشيكًا».

فوجهت إليه نظرة وقورة، وهي تقول:

«لن يسعني أن أُحب إلَّا الرجل القادر على حمايتي!».

احمرَّ وجه «جرنجوار» واعتبر التلميح تصريحًا، لقد كان بديهيًا أنَّ الفتاة تُلمح إلى القليل من المُساعدة التي كان قدَّمها إليها في الفترة الحرجة منذ عدة ساعات، فقال:

«وبهذه المناسبة، يا آنستي، أقول إنَّه قد كان واجبًا عليَّ أن أبدأ من هنا، فاغفري لي غفلاتي المجنونة: كيف صنعتِ حتى تخلصت من مخالب كوازيمودو؟».

فجعل هذا السؤال الغجرية تقشعر من الرُّعب والهول.

– «أوه! يا للأحدب الرهيب!!». قالت ذلك وهي تُغطي وجهها بيديها وترتجف.

فقال «جرنجوار»، وقد أبَى التنازل عن فكرته الحقيقية:

«إنَّه رهيب حقًّا، وكيف استطعتِ التخلُّص منه؟».

وابتسمت «الأسميرالدا»، ثم تنهدت، واحتفظت بالصمت.

فأردف «جرنجوار» مُحاولًا العودة إلى موضوعه:

«هل تعرفين لماذا كان يتبعكِ؟».

قالت الفتاة:

«وأنت لِمَ كنت تتبعني؟».

- «وأنا أيضًا لستُ أدري؟».

وبعد فترة من الصمت، قال:

«لِمَ يسمونكِ الأسمير الدا؟».

- «لستُ أدري؟».

وأخرجت من صدرها كيسًا صغيرًا مستطيلًا، معلقًا في عنقها بسلسلةٍ، تصدر عنه رائحة قوية من الكافور، وتغطيه قطعة من الحرير الأخضر، وسط بلورة خضراء شبيهة بالزمرد.

قالت: «من الممكن أن يكون هذا هو السبب!».

حاول «جرنجوار» أن يتناول الكيس، ولكنها رجعت إلى الوراء، قائلة:

«لا تلمسها، إنَّها تميمة فقد تؤذي السِّحر، أو يؤذيك السِّحر بدوره!».

- «وماذا تعني الأسمير الدا؟».

- «لستُ أدري؟».

- «من أية لُغة هي؟».

- «أظن من اللغة المصرية!».

قال «جرنجوار»: «لقد كنت أشك في ذلك، إنَّكِ لستِ من فرنسا؟»

- «لستُ أدري؟».

- «هل لكِ أقارب؟».

فانطلقت تُغني لحنًا قديمًا.

فقال «جرنجوار»: «حسنٌ جدًّا، ومتى أتيتِ فرنسا؟».

- «كنتُ صغيرة جدًّا!».

ثم قالت: «ولكنني لا أعرف اسمك؟».

- «بطرس جرنجوار».

- «إنَّني أعرف أسماء كثيرة أجمل منه!».

فقال: «كم أنتِ رديئة! ولكن لا بأس، لن أغضب أبدًا، فقد تحبينني بعد أن تزداد معرفتك بي».

ثم استطرد يقول: «سأحكي لكِ عن حياتي.. أبي شنقه البورغونيون، وأمي بقر بطنها البيكارديون، منذ عشرين عامًا، أصبحت يتيمًا في السادسة من عُمْري، ولا أدري كيف قضيت حياتي ما بين السادسة والسادسة عشرة، فقد كانت بائعة الفاكهة تقذفني بخوخةٍ هنا، والخباز يمنحني قطعة خبز هناك، وفي المساء كنتُ أسلم نفسي لرجال الشرطة الذين يلقون بي في السجن حيث أجد كومة من القش. انضويت في سلك الجندية، ولكن لم يكن لي من الجرأة ما يكفي لها، ثم دخلت سلك الرهبنة، فلم أكن تقيًّا، ثم عملت أجيرًا بين النجارين صانعي الفؤوس الكبيرة فحال ضعف جسدي دون أن أتحمَّل مشاق هذه المهنة. كنت راغبًا في التعليم المدرسي، وعندما رأيت أنَّني لا أصلح لأية مهنة جعلت نفسي بملء اختياري شاعرًا ومؤلِّف ألحان.. إنَّها وظيفة تسهل ممارستها حين نكون مُشردين.. ثم التقيت «دوم كلود فروللو» الأب المحترم، كاهن كنيسة نوتردام، الذي اهتم بي، بحيث

علمني اللاتينية.. وأنا مخرج مسرحية السرّ، كما أنَّني انتهيت من تأليف كتاب يتكوَّن من 600 صفحة.. وهكذا ترين أنَّني لستُ زوجًا خبيثًا فاشلًا».

وسكت «جرنجوار»، وهو يُراقب أثر خطابه في الفتاة الشابة، التي كانت عيناها مثبتتين في الأرض. كانت تقول في صوتٍ خفيضٍ «فوبوس»، ثم التفتت نحو الشاعر، وقالت:

«ماذا تعني كلمة «فوبوس؟».

ودون أن يدرك «جرنجوار» العلاقة القائمة بين خطابه وهذا السؤال، لم يجد ضيرًا من إبراز علمه، فأجاب في غطرسةٍ:

«إنَّها كلمة لاتينية تعني الشمس».

فأردفت مُعجبة: «الشمس!».

وأضاف «جرنجوار» من علمه: «لقد كان اسم أحد الرُّماة، وكان إلهًا»؟

ورددت المصرية: «إله!». وفي لهجتها شيء مثير يبعث على التفكير.

في تلك الأثناء انفصلت إحدى أساورها الجميلة وسقطت على الأرض، فانحنى «جرنجوار» يلتقطها في حماسةٍ فائقةٍ، ولكنه لم يكن يرفع رأسه حتى اختفت الفتاة الغجرية، وعنزتها، لقد سمع صرير قفل في باب الغرفة الذي يتصل بحجرةٍ مجاورةٍ، وينغلق من الخارج.

قال: «هل تركت لي سريرًا على الأقل؟».

ثم دار حول الحجرة، ولم يكن فيها من الأثاث ما يصلح للنوم، غير صندوق خشبي طويل، نُحت غطاؤه. قال وهو يصلح من نومه ما وسعه الإصلاح: «هيا بنا، عليَّ أن أصبر! إنَّها ليلة زفاف غريبة! وإنَّها لخسارة فادحة. لقد كان في هذا الزواج ذي الجرَّة المكسورة شيء ساذج، شيء يذكرني بعصر ما قبل الطوفان، فيدخل السرور في نفسي!!».

المخلوق الغريب!

A STRANGE LIVING CREATURE!

وُضع في صباح يوم أحد جميل، كائنٌ حيٌّ، فوق سرير خشبي إلى اليسار من رواق كنيسة نوتردام، تجاه تمثال القديس «كريستوفر» الكبير.

لقد جرت العادة أن يوضع الأطفال اللقطاء على هذا السرير، على مشهدٍ من الجمهور، فيأخذهم مَنْ كان يرغب فيهم.

إنَّ هذا الكائن الحي الذي يجثم ممدَّدًا فوق اللّوح الخشبي قد كان باعثًا على فضول عدد غير قليل من الناس، تجمعوا حول السرير. وكان هذا الجمع مؤلَّفًا في الجزء الأكبر منه من أفراد الجنس اللطيف. أربعةٌ منهن كن أكثر من غيرهن اهتمامًا بهذا الكائن، يلبسن الجيب السمراء، وينتمين إلى جماعةٍ دينيةٍ ورعةٍ.

قالت إحداهن، وهي تمعن النظر في المخلوق الصغير المعروض، وهو يبكي، ويتلوى فوق السرير الخشبي، مذعورًا أمام الأنظار الكثيرة:

«ما هذا يا أختاه؟!».

فردت عليها صديقتها:

«ما الذي سيؤول إليه أمرنا إذا كان الأطفال -اليوم- كلُّهم كذلك؟».

فقالت الثالثة:

«ليست لي أية دراية بالأطفال، ولكن النظر إلى هذا الطفل يجب أن يكون من الخطايا الكبيرة!».

- «إنَّه ليس طفلًا!!».

فبادرت السيدة الرابعة بقولها:

«إنَّ هذا الطفل وحش حقيقي، مقيت، مكروه!!».

فقالت إحداهن:

«أرجو ألَّا يُطالب به أحد من الناس!!».

الواقع إنَّ هذا الوحش الصغير، لم يكن طفلًا حديث الولادة، لقد كان كتلة صغيرة، شديدة الحركة، محبوسة في كيسٍ من القماش رُقم عليه اسم السيد «غليوم شارتيا» أسقف باريس، وقد خرج رأس هذه الكتلة من الكيس، وكان هذا الرأس شيئًا بالغ التشوُّه، فلم يُر فيه غير غابة من الشعر الأشقر، وعين واحدة، وفم وأسنان. كانت العين تبكي، والفم يصرخ، والأسنان تستعد للعض. وكان الشكل ينتفض في الكيس أمام دهشة الجمهور الذي يتزايد دون انقطاع.

وتوقفت إحدى السيدات أمام السرير، وهي تمرّ تقريبًا منه، وكانت امرأة غنية نبيلة، تمسك بيدها فتاة صغيرة جميلة في السادسة من عُمْرها، تأملت هذا المخلوق البائس فترة قليلة من الزمن.

قالت السيدة، وهي تدور متقززة:

«في الحقيقة أنَّني كنت أظن بأنَّهم لا يعرضون هنا غير الأطفال؟!».

وأدارت ظهرها، وألقت في الحوض النحاسي المُخصَّص للصدقات قطعة فضية تردد صداها بين الدراهم الصغيرة، فجعلت عيون النساء الطيبات الفقيرات تنتفخ كبيرة مُحملقة.

ثم يمرّ بعد ذلك عَالِم وقور وزوجته، فتقول الزوجة:

«ليس له غير عين واحدة، أمَّا الثانية فله فوقها دُمل كبير!».

فيرد زوجها العَالِم:

«إنَّها ليست دُملًا، بل بيضة محتوية على عفريت آخر مشابه له، وفوق عين هذا العفريت بيضة أخرى صغيرة محتوية على شيطان ثالث.. وهكذا دواليك».

فقالت سيدة كانت واقفة:

«من الخير لأهل باريس أن يُمدَّد هذا الساحر الصغير فوق وقدة من الحطب من أن يُعرض على لوحٍ خشبيٍ!!».

وقالت عجوز أيضًا:

«كومةٌ جميلةٌ ملتهبةٌ من الحطب».

وكان ثمة كاهن شاب يصغي منذ فترة من الزمن إلى آراء وتعليقات هؤلاء الناس. لقد كان لهذا الرجل وجه عابس، وجبهة عريضة، ونظرة عميقة، فأبعد الجمهور صامتًا، وتفحص الساحر الصغير، وقال الكاهن:

«إنَّني سأتبنى هذا الطفل!».

وخبأه تحت جبته، وانطلق به، فتبعه الحاضرون بعيونٍ مذعورةٍ.

فقالت إحدى السيدات الواقفات:

«لقد سبق أن قلت، إنَّ هذا الكاهن الشاب، السيد كلود فروللو هو رجلٌ ساحرٌ!».

❊ ❊ ❊ ❊

الكاهن

THE PRIEST

في الواقع لم يكن «كلود فروللو» إنسانًا عاديًا.

كان ينتمي إلى واحدةٍ من العائلات المتوسطة، وكانت هذه العائلة قد ورثت إحدى الإقطاعيات بعد مشاحنات قضائية.

كان والده قد أعده للكهنوت منذ حداثته، فتعلَّم اللاتينية، وتربَّى بحيث يُخفض عينيه، ويتكلم بصوتٍ خافتٍ، وكان والده قد زج به، وهو طفل صغير، في كلية «تورستي» الداخلية، فنما هناك مع كتبه الدينية واللغوية.

ومع ذلك فكان طفلًا حزينًا، وقورًا، رصينًا، يدرس بحماسةٍ، ويتعلم بسرعةٍ فائقةٍ. لم يكن يصرخ في فترات الاستراحة، ولم يكن يُكثر من مُخالطة الصاخبين في الشوارع، وقليلًا ما كان يهزأ بالطلاب الفقراء، أو أولئك الذين يتعلمون على نفقة الآخرين؛ بسبب شعرهم المحلوق على شكل الإكليل، وبسبب جبهتهم ذات الألوان الثلاثة: الفيروزي، والأزرق، والبنفسجي.

استطاع هذا الفتى وهو في السادسة من عُمْره أن يصمد في مادة اللاهوت الصوفي أمام كاهن الكنيسة، وفي اللاهوت المدرسي أمام عَالِم من السوربون.

تجاوز علم اللاهوت فأقبل على دراسة القوانين الكنسية، وبعد أن هضمها انتقل إلى الطب والفنون الحُرَّة، فدرس علم الأعشاب، وأصبح خبيرًا في إصابات الحُمى والرضوض.

ثم اجتاز في الوقت نفسه درجات الليسانس حتى رتبة الدكتوراه. كما درس اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية. وعندما بلغ الثامنة عشرة من عُمْره أنهى دراساته بنجاحٍ في أربع كليات. كان يبدو للفتى أنَّ للحياة غاية وحيدة، هي: المعرفة.

وقد حدث في هذه الفترة تقريبًا، أنَّ الصيف الملتهب لعام 1466 قد فجَّر وباء البرص الكبير، الذي راح ضحيته ما يُقارب 40 ألفًا من أهالي باريس. وشاع في الجامعة وقتئذ أنَّ شارع «تيرشاب» بصورة خاصَّة قد وقع ضحية لهذا الوباء، وهناك كان يسكن والدا «كلود» في وسط إقطاعيتهما. فانطلق الفتى مذعورًا نحو منزل والديه، ولمَّا دخل كانا قد فارقا الحياة في الليلة السابقة، ثم لم يجد غير أخيه، وهو طفل صغير، غارقًا في لفائفه، متروكًا فوق مهده، وكان ما يزال حيًّا يصرخ، فحمله فوق ذراعيه وخرج.

كانت هذه المأساة مصدرًا لأزمةٍ شديدةٍ في حياة «كلود»، لقد شعر وهو اليتيم، والأخ الأكبر، وسيد العائلة في التاسعة عشرة من عُمْره، أنَّه قد أوقظ بقسوةٍ شديدةٍ من أحلام مدرسته ليشهد حقائق العالم الحقيقية. هنا بلغ التأثُّر حده الأقصى؛ فأحبّ هذا الطفل، أخاه، بإخلاصٍ صادقٍ وهوى شديدٍ.

ونمت عاطفته نموًّا فريدًا، فهذا الطالب البائس الذي فُصل منذ طفولته عن والديه اللذين لم يكن يعرفهما، محجوزًا في كتبه أو يكاد، لم يجد فسحة من الوقت يشعر فيها بموضع قلبه، لقد جعله هذا الطفل الذي هبط فجأة من السماء على ذراعيه رجلًا جديدًا.

استسلم لحُبِّ صغيره «جوهان»، بعاطفةٍ متسمةٍ بالعمق والحماسة والتركيز. لقد كان هذا المخلوق اليتيم المسكين، الجميل، الأشقر، ذو الشعر المفتول يُثير لواعجه حتى أعمق أعماقه.

ومنذ ذلك الحين أخذ «كلود» ينظر إلى الحياة نظرة شديدة الرصانة، بعد أن شعر بالحمل الذي تنوء به كتفاه. ولم يعد التفكير في أخيه مناسبة يستجم بها من عناء الدرس، بل أصبح هدفه دراسته ونبوغه. فقرَّر تكريس نفسه لتهيئة مستقبل يُسأل عنه أمام الله، وألَّا تكون له زوجة، أو طفل آخر، وما أراد غير سعادة أخيه وحُسن ختامه. وهكذا توثقت صلته بالكهنوت ففتحت له كفاءاته وعلمه وصفته كمساعد مباشر لأسقف باريس أبواب الكنيسة، فأصبح كاهنًا بإذنٍ خاص من الكرسي المقدس، وهو بعد في العشرين من عُمْره.

وهنا استطاع أن يكسب احترام أفراد الدير التابع لكنيسة نوتردام وإعجابهم، وانطلقت شهرته العلمية من الدير إلى أواسط الشعب، فكان الرجل الساحر في نظر الكثير من الناس، لاسيما وأنَّ السِّحر أمر شائع في عصر الخرافات آنذاك.

إنَّ اقترابه من المخلوق الصغير البائس الذي كان موضع كُره المتجمعين وتهديدهم، ينم عن عاطفة قوية، فلقد وجد فيه هذا البؤس، وهذا التشوُّه، وذاك الضياع، صورة أخيه التي هزت نفسه بسرعةٍ مُضاعفةٍ، وفكرة أنَّ هذا الأخ كان سيلقي مثل هذا المصير فيما لو مات هو شخصيًّا.

لقد وجد الطفل مشوهًا كلَّه في الواقع، بعد أن أخرجه من الكيس، فكان لهذا الشيطان البائس الصغير، دُملٌ فوق عينه اليسرى، ورأسٌ قابع مستكين بين كتفيه، وعموده الفقري غير مستقيم، وصدره بارز، وساقاه مفتولتان، ومع ذلك كان يبدو شديد الحيوية، يُعلن صوته عن قوَّته وصحَّته.

وتزايد عطف «كلود» على هذه البشاعة، ونذر نفسه أن يُربي هذا الطفل حُبًّا بأخيه.

وعمَّد طفله المُتبني، وسماه «كوازيمودو» إمَّا ليؤرِّخ بهذه التسمية يوم عثوره عليه والتقاطه له، أو ليُشير بها إلى المدى الذي بلغه هذا المخلوق الصغير البائس من التشويه، والواقع أنَّ «كوازيمودو» كان شيئًا قريبًا من الإنسان، ولكنه ليس إنسانًا أبدًا.

❊ ❊ ❊ ❊

قارع أجراس نوتردام
RINGER BELLS OF NOTRE DAME

هكذا أصبح «كوازيمودو» شابًّا مكتمل النضج عام1482. وقد أصبح قبل ذلك بسنواتٍ قارع أجراس كنيسة نوتردام، بفضل الكاهن «كلود فروللو» أبيه بالتبني، والذي أصبح من كبار رجال الدين.

تعوَّد «كوازيمودو» ألَّا يرى في العالم شيئًا وراء الجدران الدينية التي ظللته، وهو الذي انفصل عن العالم بحاجزين، كأنَّهما القدر المحتوم: مولده المجهول، وطبيعته البشعة. فكانت نوتردام بالنسبة إليه، وبصورةٍ متتابعةٍ سيرًا مع نموِّه وتطوُّره: البيضة والعش والمنزل والوطن، فالعالم.

الثابت أنَّه قد كان هناك تناغم خفي سابق للوجود بين هذا المخلوق وتلك الكنيسة. فبينما كان يجر نفسه مُتعرِّجًا، أو في قفزاتٍ صغيرةٍ في ظلمات قبابها، وهو بعد صغير، كان يبدو بوجهه البشري وأطرافه الحيوانية، الحيوان الزاحف الطبيعي لهذا البلاط الرطب القاتم، والذي كانت تيجان الأعمدة الرومانية تُرسل من فوقه ظلالها في أشكالٍ غريبةٍ مثيرةٍ.

وعندما تعلَّق هذا المخلوق للمرَّة الأولى، بطريقةٍ آليةٍ بحبل الأبراج؛ فحرَّك الجرس، كانت هذه البادرة بالنسبة إلى «كلود فروللو» كبادرة طفل فُكَّت عُقدة لسانه للمرَّة الأولى وبدأ يتكلم. وهكذا توصل هذا المخلوق إلى التشبُّه بهذه الكنيسة، أو بتعبيرٍ آخر إلى الانغراس فيها، إلى أن يكون قطعة

منها لا تنفصم عنها، ثم أصبح ينام ويحيا فيها لا يخرج منها أبدًا أو يكاد، خاضعًا في كل آن لضغطها الخفي العجيب. على أنَّ جسم «كوازيمودو» لم يتشكَّل هو فقط بشكل الكاتدرائية، بل ذهنه أيضًا.

وُلد «كوازيمودو» أعرج، أحدب، أعور، وتوصَّل «كلود فروللو» إلى تعليمه النطق بعد جهد كبير متواصل، وصبر شديد، ولكن مصيرًا آخر كان ينتظر هذا الطفل اللقيط المسكين، لقد أصابته عاهة جديدة بعد أن أصبح قارع الأجراس في الرابعة عشرة من عُمْره، لقد مزقت الأجراس طبلة أذنه، فأصبح مُصابًا بالصمم.

وهكذا أُغلق الباب الوحيد الذي كانت الطبيعة قد تركته له مفتوحًا على العالم. وبانغلاق هذا الباب حيل بينه وبين شعاع النور والمرح الوحيد الذي كان يدخل إلى نفس «كوازيمودو»؛ فأصبحت كآبة هذا البائس كبشاعته كاملة مستعصية على الشفاء. يُضاف إلى هذا أنَّ صممه قد أصابه بنوعٍ من الخرس، أو لنقل العجز على النطق، فهو قد صمم على التزام الصمت، لا ينتهكه إلَّا حين يكون وحيدًا وذلك كي لا يُتيح للآخرين فرصة السخرية منه.

الثابت أنَّ النفس تتشوه حين تكون في جسدٍ ناقصٍ، فلم يكن «كوازيمودو» يحس بحركة نفسه في جسده المصنوعة على شكله إلَّا حركة بطيئة عمياء، أمَّا صورة الأشياء التي تنفذ إليها فقد كانت تخضع لعملية انعكاس ضخمة مُعقَّدة قبل أن تبلغ غايتها.

لقد كان رأسه وسطًا صاخبًا: تخرج الأفكار منه بعد دخولها إليه ملتوية، ومن هنا كانت أوهامه البصرية وأخطاؤه في الحكم على الأشياء، وانحرافاته التي كانت تضيع بها أفكاره، المجنونة تارة، والبلهاء تارة أخرى.

أوَّل أثر لهذا الجهاز المشؤوم، هو إشاعة الاضطراب في نظره الذي كان يُلقيه على الأشياء، فلم يكن يستقبل منها أية صورة مباشرة؛ فكان العالم الخارجي يبدو له أكثر بُعدًا عمَّا هو بالنسبة إلينا.

وأمَّا الأمر الثاني لبؤسه، فهو أنَّه أصبح به خبثًا، لقد كان في الواقع خبيثًا لأنَّه كان متوحشًا، وكان متوحشًا لأنَّه كان بشعًا.

أمَّا قوته التي نمت نموًّا مُدهشًا فقد كانت سببًا آخر لهذا الخبث، أنَّ هذا الخبث خبث مكتسب لا فطري، لقد كان منذ طفولته الأولى بين الناس يشعر بأنَّه مرذول ومُهان من الجميع، فكان النطق البشري في شأنه سخرية أو لعنة ليس إلَّا، حتى أنَّه لم يجد خلال نموِّه غير الحقد من حوله فأخذ هذا الحقد، واكتسب الخبث العام، لقد التقط السلاح الذي كانوا قد جرحوه به.

على أنَّه بعد هذا كلِّه لم يكن يلتفت إلى الناس إلَّا مُكرهًا. لقد كانت الكاتدرائية تكفيه فهي حمَّلتهُ بصور الملوك والقديسين والأساقفة ممَّن لم يكونوا يسخرون به، فالقديسون في الكنيسة أصدقاؤه وهم يباركونه أبدًا ثم لا يوجهون إليه غير نظرات هادئة عاطفة، أمَّا تماثيل الوحوش والشياطين فلم يحقد عليها أبدًا، فالوحوش حبيبة له لأنَّها تحتفظ به. وقد يقضي ساعات طويلة في بعض الأحيان فيجلس مختبئًا أمام واحد من هذه التماثيل يتحدَّث معه في صمتٍ، ثم يهرب حين يفاجئه واحد من الناس.

ولم تكن الكاتدرائية بالنسبة إليه مجتمعًا فقط، بل كانت العالم كلَّه. أو هي الطبيعة، لقد أحبّ فيها كل شيء حتى برج جرس النافذة والبرجين الكبيرين، إنَّها في نظره أقفاص ثلاثة كبيرة، ولا تغني طيورها التي ربّاها إلَّا له، ومع ذلك كانت هذه الأجراس سببًا في صممه.

إنَّ الصوت الوحيد الذي كان يستطيع أن يسمعه هو صوت الأجراس، وبهذا المعنى كان صوت الجرس الكبير أحب الأصوات إليه، فهو يؤثره على غيره في هذه الأسرة من الفتيات الصاخبات التي تضطرب من حوله في أيام الأعياد، وكان الجرس الكبير يُدعى «ماري» فهو وحده في البرج الجنوبي مع أخيه «جاكلين»، وهو جرس أصغر حجمًا منه مُحكم في قفصٍ أصغر من قفصه.

والحق أنَّنا نعجز عن تصوُّر فرحة «كوازيمودو» في أيام الأعياد حين يأذن له «كلود فروللو» الكاهن قائلًا: اذهب، هنا تمرّ سلسلة من الانفعالات ترافقها أصداء قدمي «كوازيمودو» صاعدة أو متسلقة حتى تبلغ غرفة البرج العُليا، ثم تبدأ الجوقة الرائعة التي تنفذ أصواتها النُّحاسية إلى أعماقه دون أي صوت آخر.

والواقع أنَّ الكاتدرائية كانت مخلوقًا لطيفًا وطيعًا تحت يدّ «كوازيمودو»، لقد كانت تنتظر إرادته لترفع صوتها العظيم، مأخوذة ب «كوازيمودو»ممتلئة به، فكأنَّه عبقريتها الخاصَّة. حتى ليكاد الناظر يقول: إنَّه هو الذي يبعث الحياة المتنفسة المتحرِّكة في هذا البناء العظيم، والواقع أنَّه كان دائمًا في كل مكان منها. كان المشاهدون يرون «كوازيمودو» في خوفٍ بالغٍ في أعلى برج من

الأبراج قزمًا غريبًا يتسلق ويزحف على أطرافه الأربعة، أو يهبط خارجًا فوق الهاوية قافزًا من نتوء إلى آخر باحثًا في فجوةٍ من الفجوات المنحوتة عن الغربان، أو يرونه في زاويةٍ مظلمة من الكنيسة خيالًا حيًّا جالسًا القرفصاء يُفكِّر في صمتٍ شديدٍ، وفي مرَّةٍ ثالثةٍ يُرى تحت برج من أبراج الأجراس برأسه الكبير ومجموعة أطرافه الفوضوية يتأرجح غاضبًا وهو يقرع الجرس عند صلاة العصر أو الغروب، وقد تقع الأبصار غالبًا في الليل على شكلٍ قبيحٍ يجري متمهلًا فوق الحاجز المُسنَّن الذي يتوِّج الأبراج ويُحيط بصدر الكنيسة ثم لا تلبث حتى تجد فيه «كوازيمودو» نفسه.

ومع كل ما سبق نذكر مخلوقًا بشريًا واحدًا كان «كوازيمودو» يستثنيه من دون الناس فلا يُصيبه بخبثه مع الآخرين وحقده عليهم، بل يُحبُّه كما يُحبّ كاتدرائيته أو أكثر، إنَّه «كلود فروللو».

فهو الذي التقطه، وتبناه، وغذاه، وربّاه. وكان من عادته أن يلجأ إلى حجر «كلود» حين يلحق به الأطفال أو الكلاب وهم يصرخون من حوله وهو طفل صغير.

و «كلود فروللو» هو الذي علمه النطق والقراءة والكتابة، وأخيرًا هو الذي جعله قارعًا للأجراس.

لقد كان عرفان «كوازيمودو» بالغ العمق، فائق العاطفة بلا حدود، وعرفانه هذا لم ينكص مرَّة واحدة، أو يكذب في مناسبةٍ واحدةٍ رُغم ما كان يلوح في الغالب على وجه أبيه بالتبني من خطوط التجهُّم والقسوة.

كان للكاهن في «كوازيمودو» عبدٌ بالغ الطاعة، فائق الخضوع، وعندما أُصيب قارع الأجراس بالصمم نشأت بينه وبين «كلود فروللو» لغة من الإشارات لا يفهمها أحد غيرهما، وهكذا كان الكاهن هو الكائن البشري الوحيد الذي احتفظ به «كوازيمودو» معه بعلاقته وصلاته.

ليس من سلطان في العالم يُضاهي سلطان الكاهن على قارع الأجراس، فبإشارةٍ واحدةٍ منه كافية لكي يلقي «كوازيمودو» بنفسه من أعلى أبراج نوتردام إرضاءً له، وتعبيرًا عن عظيم تعلُّقه به. إنَّه شيء مدهش حقًا أن توضع مثل هذه القوَّة الجسدية الهائلة التي يملكها «كوازيمودو» تحت تصرُّف إنسان آخر، فهناك دون ريب برّ بنوى، وتعلُّق عائلي، كما أنَّ هناك أيضًا انجذاب عقل بعقلٍ آخر. إنسان ذو جسد يتعثر ببشاعةٍ وذو عقل تنقصه المهارة يخفض رأسه وعينيه الضارعتين أمام ذكاء رفيع، عميق، قوي، متفوق. وأخيرًا كان العرفان فوق كل شيء آخر، عرفانٌ بلغ مداه حدًّا يعجز عن مقارنته بأي شيء مثله. وهكذا نستطيع القول بأن «كوازيمودو» يُحبّ سيده تمامًا.

❋ ❋ ❋ ❋

السحر والساحر!
MAGIC AND MAGICIAN!

كان «كوازيمودو» في عام1482 قد بلغ العشرين من عُمْره تقريبًا، وكان «كلود فروللو» في السادسة والثلاثين: أحدهما نما وكبر، وثانيهما أسن وشاخ.

أصبح «كلود» كاهنًا رصينًا قاسيًا على نفسه، وقورًا، مُتجهّم الوجه، رجلًا مسؤولًا عن النفوس والأرواح، لقد أصبح شخصيَّة طاغية، فهو مُساعد أسقف باريس، ورئيس 160 من الكهنة الريفيين.

كان الكل يرتجف أمامه ابتداءً من الشمامسة الصِّغار حتى كهنة نوتردام، حين يمرّ بطيئًا مُفكِّرًا، مضموم الذراعين، حاني الرأس حتى صدره، فلا يكاد أحد يرى من وجهه غير جبينه العريض الأصلع.

إلَّا أنَّ «كلود فروللو» لم ينس العلم، أو تربية أخيه الأصغر. ولكن شيئًا من المرارة قد خالط هذه الأشياء الحلوة في حياته؛ فالصغير «جوهان فروللو»، المُلقب بـ«الطاحونة»، نسبة إلى المكان الذي أُرضع فيه، لم يكن قد نما في الاتجاه الذي أراده «كلود». لقد كان الأخ الكبير ينتظر طالبًا ورعًا، مُطيعًا، ولكن الأخ الأصغر، كان كتلك الشجيرات التي تخدع صاحبها فتتجه نحو الجانب الذي يخلو من الهواء والنور، إنَّه لم يكن ينمو إلَّا حيث الكسل، والجهل، والفجور، كان شيطانًا حقيقيًا، ولكنه في الوقت نفسه كان فكهًا، ذكيًا، بحيث يبعث الابتسامة بين شفتي أخيه «كلود».

وقد أرسل «كلود» أخاه إلى كلية «تورشي»، فكان يؤلمه حقًّا أنْ يُصبح هذا المعبد التعليمي الفذ موضعًا لفضائح أخيه الصغير، بعد أن كان موطنًا يفتخر باسمه.

كان يوجه النصائح لأخيه الصغير في بعض الأوقات في شيءٍ من الشدة والصرامة، ولكن صغيره لا يلبث حتى يتصدى له بجرأةٍ بالغةٍ، ومع ذلك كان للفتي قلبًا طيبًا.

كان «جوهان» تارة يضرب طالبًا حديث العهد بالجامعة، وأحيانًا يُحرِّض جماعة من الطلاب ليسطوا على إحدى الحانات ويضربوا صاحبها، وهو أخيرًا مهمل في تعلُّم اللغة اللاتينية.

لهذا كلِّه شاع الحزن والأسى واليأس في نفس «كلود»؛ فانصرف إلى العلم، الذي لا يغش صاحبه على الأقل، ويُكافئه دائمًا على فائق عنايته به. وهكذا ازداد عمله باطراد، وبالتالي زاد جموده باعتباره كاهنًا، ثم زاد حزنه باعتباره إنسانًا من الناس.

إنَّ «كلود» بدأ يحفر بعيدًا إلى ما وراء التخوم الموضوعة له، فنزل هابطًا إلى ما دون العلم المادي المحدود، بل لعلّه خاطر بروحه وجلس في كهفٍ حول المنضدة السرية للكيميائيين، والمُنجمين، وغيرهم. هذا على الأقل ما يفترضه الناس ويتخيلونه حقًّا أو باطلًا.

من الثابت أنَّه شُوهد ماشيًا على امتداد شارع «لومبارد» Lombardi في أوقاتٍ كثيرةٍ، ثم داخلًا في نوعٍ من التخفي إلى بيتٍ صغيرٍ قائم في الزاوية التي يلتقي فيها شارع الكُتَّاب وشارع «ماريفو» Maryfu. لقد كان

هذا المنزل هو ذاك الذي بناه «نيقولا فلاميل» Nyqula flamyl ومات فيه، والذي بدأ ينهار بعد أن خلا بموت صاحبه، ومع ذلك فإنَّ سَحرة كل البلدان قد استعملوا جدرانه ليحفروا أسماءهم. ويؤكِّد بعض الجيران أنَّهم شاهدوا «كلود» من خلال إحدى الكوى وهو يُقلِّب الأرض، ويحفرها، ويجرف ترابها في هذين الكهفين اللذين غطى «فلاميل» جدرانهما بأبياتٍ من الشعر وكلمات من اللغة الهيروغليفية. وقد افترض العارفون أنَّ «فلاميل» قد أخفى في أرضه الحجر الفلسفي، فبقي الخيميائيون قرابة قرنين من السنين يُقلبون أرض هذين الكهفين، حتى تحوَّل البيت إلى غبار، واندثر تحت تأثير حفرياتهم ومحاولاتهم اليائسة.

والثابت أخيرًا، أنَّ الكاهن قد اختار لنفسه حجرة صغيرة قائمة بين البرجين في الكنيسة، مُطلة على الجرف، وإلى جانبها قفص الأجراس. لا يدخل أحد إلَّا بإذنه، حتى الأسقف كما يقولون. أمَّا ما كانت تحتويه هذه الحجرة، فهذا ما لم يكن أحد يعرفه، ولكن كان يُرى من محلة الجريف، في الليل البهيم، في كوةٍ صغيرةٍ موجودة في مؤخرة البرج، ضياء أحمر، يظهر ويختفي، ثم يظهر مرَّة أخرى بصورةٍ متقطعةٍ غريبةٍ، يبدو كأنَّه يصدر عن نار لا عن نور.

لم تكن في هذا كلِّه براهين كافية على مزاولة الكاهن «كلود» للسِّحر، ولكن ما فيها من الدخان كان كافيًا لافتراض وجود النار. لقد زعم كهنة الكنيسة اعتبار «كلود» روحًا تائهةً في ممرات جهنم، ضائعة في كهوف علم

الاتصال بالأرواح والشياطين، متحسسة طريقها في ظلمات علوم السِّحر والتنجيم الخفية.

وأمَّا الشعب فلم يكن خيرًا من هؤلاء الكهنة رغبة في التحقُّق، ولا سيما الذين يكرهونه أو يتقززون منه، فقد كان «كوازيمودو» في نظر الشعب شيطانًا، و«كلود فروللو» ساحرًا.

وإذا كان «كلود» قد واجه هوة عميقة في علمه، فقد واجه مثل ذلك أيضًا في قلبه. هذا على الأقل ما يراه المُشاهد وهو يتفحص وجهه، حيث لا ترى الروح فيه إلَّا من خلال السحب، فمن أين له هذه الجبهة العريضة، وذلك الرأس المنحني، وذلك الصدر الذي كان يضطرب دائمًا بأنفاسه؟ ما هي هذه القوَّة الفكرية الخفية التي كانت تبعث الابتسامة بين شفتيه بمثل هذه المرارة الشديدة، في الوقت نفسه الذي كان يتقارب فيه حاجباه كأنَّهما ثوران يتقاتلان؟ وما هي هذه النار الداخلية التي تتفجَّر في نظراته في بعض الأحيان، بحيث إنَّ عينيه تكاد تشبهان ثقبًا في حاجر فرن من الأفران؟

الحق أنَّ الأعراض العنيفة لهذه القضية الخُلقية قد اكتسبت مزيدًا من القوَّة، فقد هرب أكثر من طفلٍ واحد مذعور لأنَّه وُجد في الكنيسة وحده، يُضاف إلى ذلك أنَّ نظراته كانت غريبة متفجرة.

و«كلود» مبتعدٌ عن المرأة، بسبب صفته الدينية وخُلقه الشخصي، يبدو كارهًا لها، إنَّ حفيف ثوب أنثوي حريري كاف لإسقاط قبعته فوق عينيه، وقد بلغ من كُرهه للمرأة أنَّه اعترض أمام أسقف باريس على مجيء ابنة الملك وزيارتها لدير كنيسة نوتردام.

كما سيُلاحظ حقده على المصريات والغجريات قد تضاعف في تلك الآونة، وهو الذي كان قد تقدَّم إلى الأسقف يرجوه أن يُصدر قانونًا يمنع بموجبه الغجريات منعًا باتًا من الرقص في ميدان الكنيسة، ثم أقبل على الوثائق والملفات يُفتش فيها عن الحالات التي أُدين فيها سَحرة وساحرات فقتلوا حرقًا بالنار أو شنقًا بالحبال بتهمة الاشتراك في ارتكاب أعمال سِحرية مؤذية.

لقد كان الكاهن وقارع الأجراس موضع بغض الناس ممَّن كانوا حول الكاتدرائية. فإذا خرج «كوازيمودو» والكاهن معًا، وهذا ما يحدث مرَّات كثيرة، وقعت أنظار الناس عليهما، فينالهما سيل من الكلمات الخارجة، أو التعليقات الساخرة، أو الإشارات المهينة، اللَّهم إذا مشى «كلود فروللو» برأسٍ مستقيمٍ مرتفعٍ، مُظهرًا جبهته بما فيها من قسوةٍ وجلالٍ للساخرين المبهوتين.

لقد كان في مُحيطهما كالشعراء، الذين يصفهم أحدهم بقوله:

«يركض كل الناس وراء الشعراء

كما يركض العصفور صارخًا وراء البوم».

قد يُخاطر أحد الأطفال بحياته ليجد اللَّذة الفائقة التي يحس بها بغرز دبوس صغير في حدبة «كوازيمودو»، وقد تقترب إحدى الفتيات الجميلات الجريئات تارة أخرى من الكاهن حتى تكاد تلامس ثوبه الأسود، وهي تُغني أغنيةً ساخرةً متهكمةً.

وفي بعض الأوقات تصخب مجموعة من العجائز اللاتي يجلسن القرفصاء عندما يمرّ الكاهن وقارع الأجراس، حتى يقولون:

«هاك إنسانًا ذا روح صُنعت على شاكلة جسم الإنسان الآخر».

وأخيرًا، قد تكون هناك مجموعة من الطلاب أو قاذفي الحصى يقف أفرادها في كتلةٍ واحدةٍ، فيحيون الرجلين بهتافاتٍ خارجةٍ باللاتينية.

والغالب أن تكون هذه الإهانات بعيدة عن متناول الرجلين، أمَّا قارع الأجراس فلأنَّه أصم، وأمَّا الكاهن فلأنَّه غارق في أحلامه الساحرة.

❊ ❊ ❊ ❊

المحاكمة و العقاب
TRIAL AND PUNISHMENT

كانت المحكمة صغيرة منخفضة مُقبَّبة. وقد جلس كاتب المحكمة يُسجل أقوال المتهمين، وإلى جانبه مقعد كبير من الخشب المنحوت مُخصَّص للقاضي الأوَّل. أمَّا الشعب فكان يجلس في القاعة تجاه منصة القُضاة، كما كان يقف أمام الباب والمنبر جنود من الشرطة للحراسة.

كان القاضي مُصابًا بالصمم، وهذا عيب خطير. وكان من بين المستمعين مُراقب شديد القسوة متمثلًا في شخص «جوهان فروللو» طالب الأمس الصغير، كان «جوهان» يُحدث صديقه «روبان بوسبان» بصوتٍ خفيضٍ:

«انتبه يا روبان! ما هذا الذي يدخلونه؟ إنَّ كلاب الصيد كلَّهم هنا! يجب أن يكون الصيد ثمينًا! خنزيرٌ بريٌّ.. ها هو يا روبان.. ها هو..!!».

فقال «روبان»:

«. . وهو خنزيرٌ جميلٌ! انظر! إنَّه أميرنا بالأمس، بابا المجانين، قارع الأجراس، أعورنا، أحدبنا، تكشيرتنا، إنَّه كوازيمودو..!!».

بالفعل إنَّه «كوازيمودو» مُقيَّدًا، مجرورًا، تحت حراسة قوية. كان ضابط الحرس شخصيًّا يُرافق الكتيبة التي تقود «كوازيمودو». ولم يكن في «كوازيمودو» شيء يُلفت النظر غير بشاعته، وهي وحدها تُبرز حمله إلى المحكمة.

كان قاتمًا، صامتًا، مطمئنًّا، فلا تكاد عينه المُفردة تلقي نظراتها الساخرة، الغاضبة فوق الأربطة التي تُثقل كاهله. ثم نقل نظره فيمَنْ حوله، وهو في حالةٍ من الهمود والنُّعاس.

وفي هذه الأثناء كان القاضي «فلوريان» Florian يتصفح ملف الشكوى المُقدَّمة ضدّ «كوازيمودو»، ثم لم يلبث حتى بدا في هيئة المُستغرق في تفكيره. وبفضل هذا الاحتياط يستطيع دائمًا أن يعرف اسم المتهم، وصفته، وعُمْره، ويُهيئ الأسئلة المنتظرة والإجابات المتوقعة في حدود ما يتخيلها. وهكذا يحول دون أن يعرف الناس بصممه.

وبعد أن اجتر طويلًا قضية «كوازيمودو» قلب رأسه إلى الوراء، وأغمض عينيه نصف إغماضة، ليستجمع مزيدًا من الجلال والحيدة، ثم بدأ التحقيق، قائلًا:

«اسمك؟».

وبقي «كوازيمودو»، الذي لم يسمع شيئًا بسبب صممه، صامتًا لا يُعطي جوابًا، وقد ثبَّت في القاضي نظراته البلهاء.

وظن القاضي أنَّ المتهم قد أجاب، جهلًا منه بصممه. فأردف:

«هل هذا هو عُمْرك؟».

وسكت «كوازيمودو» أيضًا. واعتقد القاضي أنَّ المتهم راض قانع.

- «ما هي وظيفتك؟».

فشاع الصمت كالمرَّتين السابقتين، وبدأ الناس يتهامسون، ويتبادلون النظرات.

وتابع القاضي يقول:

«إنَّك متهمٌ أمامنا، أولًا: بإثارة الاضطرابات أثناء الليل، ثانيًا: بالاعتداء على شخص امرأة مجنونة، ثالثًا: بالعصيان على الرُّماة من حرس جلالة مليكنا المُعظم، فما هو ردك على هذه الاتهامات؟.. أيها الكاتب: هل سجلت أقوال المتهم كلَّها؟».

بعدها انفجرت سلسلة من القهقهات القوية الصارخة بين المُستمعين، ومنضدة الكاتب. ومع ذلك كلّه لم يستطع كل من القاضي، و«كوازيمودو» أن يسمعا شيئًا منها.

والتفت «كوازيمودو» بازدراءٍ وهو يُحرِّك حدبته، بينما اعتقد القاضي أنَّ الناس قد ضحكوا لصدور جواب وقح عن المتهم، فحدبه بنظرةٍ غاضبةٍ ثائرةٍ.

- «لقد أجبت أيها الأبْله بجوابٍ يستحق الجلد؟ هل تعرف مع مَنْ تتحدَّث؟!».

وانطلقت الضحكات أكثر قوَّةً وعنفًا، ثم امتدت حتى بلغت الدهليز الخارجي، حيث ارتسمت فوق شفاه حرس الأبواب من الشرطة.

وفي هذه الأثناء دخل السيد «روبير داستويفيل» Robert d'Estouteville قاضي باريس الأوَّل. والتفت القاضي «فلوريان» إليه يتابع خطته، قائلًا:

«يا صاحب السعادة! إنَّني أطالب بعقوبةٍ شديدةٍ تُدخل السرور إلى نفسك، ضدّ هذا المتهم الواقف هنا؛ لتجرئه على العدالة، وتحديه للقضاء».

ثم جلس وجبينه يتفصد عرقًا.

فقطب «روبير» حاجبيه، ثم وجه كلامه إلى المتهم:

«ما الذي صنعته حتى جيء بك إلى هنا أيها التافه؟».

فظن «كوازيمودو» أنَّ القاضي «روبير» يسأله عن اسمه، فقطع حبل الصمت، قائلًا بصوته المبحوح:

«كوازيمودو».

فأردف «روبير»، بعد أن انطلقت ضحكات الناس مرَّة أخرى:

«وهل تهزأ بي أيها السخيف الأبْله؟».

فأجاب «كوازيمودو»:

«قارع أجراس كنيسة نوتردام».

وزاد غضب «روبير»، ثم قال:

«حكمت بضربك على ظهرك في ساحةٍ من ساحات باريس، هل سمعت أيها التافه؟».

ثم تابع «كوازيمودو» المسكين:

«إذا كنت يا سيدي راغبًا في معرفة عُمْري فإنَّني سأبلغ تمام العشرين في عيد القديس مارتان».

وهنا لم يعد «روبير» قادرًا على الاحتفاظ بهدوئه:

«آه! وتهزأ بالقضاء أيها البائس؟!».

- «.....!!».

- «أيها الحراس خذوا هذا الرجل واربطوه في وتد التعذيب في ساحة جريف، ثم اضربوه، واتركوه بعد ذلك يدور به الوتد، تشهيرًا له، وزراية به».

ثم التفت القاضي «روبير» ثانية إلى «كوازيمودو» وثبَّت فيه عينيه المتألقتين بالشرر، ثم أردف يقول:

«أضف أيها الكاتب اثني عشر درهمًا إلى عقوبته بسبب اليمين المعظم التي أقسمها!».

وسُجل الحكم. أمَّا «كوازيمودو» فقد بقي ينظر فيمَنْ حوله نظرة لامُبالاة واندهاش.

وأشفق الكاتب على «كوازيمودو»، واقترب من القاضي «فلوريان» يرجوه تخفيف الحكم. وطبيعي أنَّ «فلوريان» لم يسمع شيئًا، ولكنه رغب في التظاهر بالسماع، فقال:

«آه! آه! هذا شيء آخر. لم أكن أعرف ذلك».

ثم قال «روبان» الذي كان يحقد على «كوازيمودو» بسبب حادث الأمس:

«لقد أحسن القاضي صُنعًا، إنَّ هذه العقوبة ستعلمه كيف يمتنع عن التعدي على الناس».

حبيسة برج رولاند
ROLAND TRAPPED TOWER

في ميدان «جريف» يوجد بناء قوطي قديم، نصف روماني يُدعى برج رولاند. وعند زاوية الرصيف يمكن للمُشاهد أن يرى كتابًا كبيرًا عامًّا للصلاة. تبدو بجانبه حجرة صغيرة تطل على الساحة الخالية من الباب والنوافذ ما عدا كوة يأتيها من خلالها قليل من الهواء وشيء أقل من النور، وقد بنيت هذه الحجرة عند أسفل الجدار في البيت القديم.

وقد أنشئت هذه الحجرة من قِبل السيدة «رولاند» التي بسبب حزنها على والدها المقتول سجنت نفسها بقية حياتها ولمدة عشرين عاما، تصلي ليلًا ونهارًا. وكانت تفترش القش وتضع على رأسها حجرًا تستخدمه كوسادةٍ، وعند وفاتها أوصت بهذه الحجرة للنساء والأرامل والإناث اللواتي رغبن بالصلاة والانقطاع عن الحياة على أثر مأساة يُصبن بها.

ولكي نتعرَّف إلى المرأة التي كانت تشغل حجرة السيدة رولاند هذه الأيام علينا أن نتسمع إلى حديث ثلاث نسوة كن يأتين من الشاتيليهChateau إلى ساحة جريف.

كانت اثنتان منهن تلبسان لباس بورجوازيين، أمَّا رفيقتهما الثالثة فلم تكن أقلّ منهن تزيُّنًا بالملابس الثمينة، ولكن في طريقة ارتدائها ما يدل على أنَّها ريفية. كانت تمسك بيد صبي ضخم في إحدى يديها، أمَّا في اليد الأخرى فكانت تحمل كعكة كبيرة. قالت «أودارد» Oudarde:

«انظروا.. هؤلاء الناس الذين تجمعوا هناك عند طرف الجسر».

- «الحقيقة إنَّني أسمع صوت دفّ»، قالت «جيرفيزGervaise».

- «وأظن أنَّ الأسميرالدا تُقدِّم سخريتها مع عنزتها».

قالت «ماهيات» Mahiette، وهي ترجع إلى الوراء بقوَّةٍ وتمسك بيد ابنها:

«الغجرية! إنَّها قد تسرق طفلي! تعالى يا أوستاش Eustache».

قالت «أودارد»:

«هل تعتقدين حقًّا أنَّ الغجرية تسرق طفلكِ؟ إن الأخت جودول Gudule تقول هذا أيضًا عن الغجرية!!».

وسألت «ماهيات»:

«ومَنْ هي الأخت جودول؟».

أجابت «جيرفيز»:

«إنَّها حبيسة جُحر الجرذان (حجرة السيدة رولاند) التي نحمل إليها الكعكة».

قالت «ماهيات»:

«فلنسرع! إنَّني لا أُحبّ أن يُصيبني ما أصاب باكيت لاشانت فلوري Papuette la Chante Fleurie».

فقالت لها «جيرفيز»:

«إنَّكِ ستقصين علينا قصَّة باكيت هذه».

- «حسنًا، سأفعل ذلك».

وبدأت «ماهيات» تقصّ الحكاية:

«كانت «باكيت لاشانت فلوري» صبية جميلة في الثامنة عشرة من عُمْرها. مات والدها وهي طفلة، فعاشت مع والدتها في «ريمس» Rheims. وعانت هي ووالدتها كثيرًا لكسب عيشهما فعملتا في الحياكة والتطريز، وهو عمل لم يستطع أن ينقذهما من الفقر. وعندما توفيت والدتها لم تجد «باكيت» في العالم مَنْ تُحبّه ومَنْ يُحبُّها، عاشت حياة بائسة ثم تحوَّلت إلى امرأةٍ ساقطةٍ.

وقد كرَّست قلبها كلَّه من أجل طفل، وتضرَّعت إلى الله من أجل أن يهبها ذلك فأشفق عليها ومنحها طفلة جميلة. وكان فرح هذه البائسة بها عظيمًا، فعانقتها وأغرقتها بعاطفةٍ من القُبَل والدموع، وأرضعت طفلتها، وصنعت لها الثياب، وصرفت كل النقود التي جمعتها على الأطعمة والقبعات وكساء الطفلة، وبين الأشياء الأخرى. كان للطفلة حذاء صغير وردي اللَّون، ليس هناك أجمل منه لقد قامت الأم بتطريزه وتزيينه بكل ما أوتيت من فنٍّ وذوقٍ ومهارةٍ.

وتابعت» ماهيات» قائلة:

«كانت طفلة «باكيت» ابنة أربعة أشهر فقط، وكان لها قدمان رائعتين، كما كان لها عينان جميلتين كبيرتين أكبر من فمها، وكان لها شعر أسود كالحرير، وكانت أمُّها تزداد هيامًا بها في كل يوم حتى الجنون..».

قاطعتها «جيرفيز»:

«القصَّة جميلة، ولكن أين الغجر فيها؟».

قالت «ماهيات»:

«صبرًا، هذه هي.. ذات يوم وصلت إلى ريمس مجموعة غريبة من الناس، كانوا لصوصًا ومتشردين، بوجوه سمراء داكنة، وشعر مُجعَّد، وأقراط فضية في آذانهم، لقد أتوا إلى ريمس من مصر السفلى عبر بولندا، وكثر الكلام حول سرقتهم للأطفال، وسلب أموال الناس، وأكل لحم البشر، وكانوا يقرءون الكف ويتنبئون أقدار الناس ومستقبلهم.

وذات يوم رغبت «باكيت» في أن تعرف مستقبل ابنتها «إيناس» Agnes وحظها، ولم تكن الطفلة قد بلغت السنة من عُمْرها، وقد أحبّت الغجريات الطفلة وأعجبن بها، وقبلنها بأفواههن السوداء، وقلن للأمِّ إنَّ «إيناس» ستكون جميلة جدًّا، بل ملكة من الملكات الرائعات.

وفي اليوم التالي خرجت الأم بينما كانت طفلتها نائمة في البيت على سريرها، ثم رجعت الأمّ.. ولم تلبث أن وجدت فتحة الباب أكبر ممَّا تركتها، ركضت إلى السرير.. يا لها من أمٍّ مسكينة.. لقد اختُطفت الطفلة، ولم يبق من أشيائها غير قطعة واحدة من زوج الأحذية.

وانطلقت المسكينة خارج الغرفة تصرخ:

«ابنتي! من أخذ ابنتي؟!».

وبحثت في كل شارع باكية صارخة:

«أرشدوني أين أجد ابنتي، وسأكون خادمة لمَن يرجعها إليَّ».

وأخبرتها جارتها أنَّها رأت أثناء غيابها غجريتين تحملان صُّرة كبيرة دخلتا بيتها خلسة، ثم رجعتا بسرعةٍ.

وضحكت باكية، مُعتقدة أنَّها ستجد ابنتها، ولكنها وجدت مكانها شيئًا يشبه الوحش الصغير، أعور، أعرج، مشوهًا، يزحف فوق أرض غرفتها.

وأسرع الجيران، وأبعدوا هذا الكائن الغريب، الذي كان في الرابعة من عُمْره.

ثم نهضت «باكيت لاشانت فلوري» فجأة، وانطلقت تركض في الشوارع صارخة:

«إلى معسكر الغجر!».

ولكن الغجر كانوا قد رحلوا.

وفي اليوم التالي ابْيضَّ شعرها كلَّه، ثم اختفت في اليوم الذي تلاه».

فعلَّقت «جيرفيز»:

«قصَّةٌ غريبةٌ في الحقيقة، ولم أعد أستغرب خوفكِ من الغجر!!».

ووسط هذه المحادثة، وصلت النساء الثلاثة إلى ساحة «جريف»، وبلغن برج رولاند، فقالت «أودارد»:

«يجب ألَّا ننظر دفعة واحدة حتى لا نخيف الأخت جودول.. أنا سأخبركما متى تقتربان».

وبعد برهة قصيرة أشارت لـ «ماهيات» أن تقترب، فاقتربت تمشي على رؤوس أصابعها، ونظرت من خلال الكوة.

- «لا تزعجاها إنَّها تصلي» قالت «أودارد».

في حجرةٍ ضيقةٍ جلست فوق البلاط امرأة أسندت ذقنها فوف ركبتيها، وكانت ذراعاها تحيطان برجليها، مُغطاة بكيسٍ من قماش بُني، ويسقط شعرها الأبيض فوق وجهها، ثم يمتدّ حتى بلغ ساقيها.

وتأملت «ماهيات» الوجه الذابل بعينين مليئتين بالدموع، ثم أخرجت رأسها من الكوة وسألت «أودارد»:

«ماذا تسمون هذه المرأة؟».

- «الأخت جودول».

فرددت الأخت «ماهيات»:

«أما انأ فسأسميها باكيت لاشانت فلوري».

ثم استطردت تقول:

«انظرا إلى الزاوية التي تثبتت الحبيسة فيها».

وأدخلت «أودارد» رأسها من خلال الكوة، فرأت في الزاوية حذاءً صغيرًا من قماشٍ، وردي اللَّون، مُطرزًا بخيوطٍ من الذهب والفضة.

وألقت النسوة الثلاث النظر، وبكين دون أن ينبسن ببنت كلمة.

وأخيرًا حاولت «جيرفيز» أن تُنادي الحبيسة:

«أيتها الأخت! أيتها الأخت جودول».

ولم تتحرَّك الحبيسة، ولم تنظر، أو تتنهد، أو حتى تُعطي أية إشارة للحياة.

سالت «أودارد»:

«ماذا يمكن أن نفعل لنوقظها؟!».

ثم قالت أيضًا:

«خذي هذه الكعكة لقد أحضرناها لكِ!».

فدفعت الحبيسة بالكعكة جانبًا.

- «هل تريدين نارًا».

فحرَّكت رأسها رافضة، ثم قالت:

«نارًا! تقولين؟».

مستطردة:

«وهل تستطيعين أن تُقدمي منها شيئًا لتلك الصغيرة التي تُقيم تحت التراب منذ خمس عشرة سنة؟!».

ثم مدّت يدَها البيضاء النحيلة نحو الطفل فجأة، وصرخت:

«احملن هذا الطفل بعيدًا! ستمر الغجرية بعد حين!».

ثم سقطت على وجهها فوق الأرض، وقد اصطدمت جبهتها بالبلاط مُحدثة صوتًا مُخيفًا.

- «لقد قتلت نفسها!!»، قالت «جيرفيز»، ثم راحت تصرخ:

«أيتها الأخت! أيتها الأخت جودول!».

وأخيرًا نهضت، وصرخت:

«الغجرية! الغجرية! تُناديني». وذلك عندما سمعت «ماهيات» تناديها وهي تكاد تختنق حزنًا:

«باكيت! باكيت لاشانت فلوري!»

وارتجفت الحبيسة بكل جسدها، ونهضت واقفة فوق قدميها، ثم قفزت نحو الكوة بعينين اشتعلتا لهبًا ونارًا، حتى أنَّ النسوة قد ركضن فبلغن حاجر الرصيف.

وهنا ظهر وجه الحبيسة ملتصقًا بشبكة الكوة، مُتجهمًا، قاسي القسمات، وصرخت في ضحكةٍ مُخيفةٍ:

«إنَّها الغجرية تُناديني!!».

وفي هذا الوقت بالذات، ظهر مشهد عند وتد التعذيب، فاستوقف نظراتها الذاهلة، وتجعَّدت جبهتها من الرهبة والخوف، ثم مدت ذراعي هيكلها المعروقتين، وصرخت مرَّة أخرى، بصوتٍ يُشبه حشرجة المُحتضر:

«هذه أنتِ أيضًا يا بنت بوهيميا! أنتِ التي تُناديني يا سارقة الأطفال! وإذًا ليلعنك الله! ملعونة! ملعونة!!».

❋ ❋ ❋ ❋

دمعة حزينة، وقطرة ماء
TEAR SAD AND A DROP OF WATER

كانت الجموع قد بدأت تتجمَّع في ساحة «جريف» حول وتد التعذيب والمشنقة. وقد تضخَّمت صفوف المُشاهدين؛ بسبب تمركز الفرسان الأربعة من شرطة القاضي الأوَّل «روبير».

وصل المتهم المُدان أخيرًا مربوطًا إلى مؤخرة عربة، وبعد أن رُفع وهو مُقيَّد بالحبال والأحزمة الجلدية، ارتفعت من بين الجماهير هتافات ممتزجة بالقهقهات، والتعليقات الساخرة. لقد عرفته هذه الجموع، لقد كان حقًا «كوازيمودو».

لقد كان رجوعه إلى هذه الساحة غريبًا، إنَّه يُعذب بالمكان الذي كان فيه بالأمس بابا، وأميرًا على المجانين.

والواضح أنَّه لا عقل للجماهير، ولا قلب، لقد كان «كوازيمودو» بالأمس يُهتف له ويُصفق، فأصبح اليوم يُستمتع، ويُسلي بالنظر إلى تعذيبه.

وقف الممثل المُحلِّف لجلالة الملك، يُعلن حكم القاضي الأوَّل، بإدانة الشقي «كوازيمودو». ويصف العقوبة التي ستوقع عليه، ثم انسحب إلى ما وراء العربة مع رجاله.

أمَّا «كوازيمودو» الهادئ فلم يُطرف له جفن. كان يستحيل عليه أن يُقاوم أمام شدة الأربطة والأحزمة، وما فيها من حلقاتٍ حديديةٍ تكاد تنغرس في لحمه.

فاستسلم إلى جلاديه، يقودونه ويدفعونه، لا يرى أحد في وجهه غير دهشة إنسان متوحش وأبْله. كان الناس يعرفون صممه، أمَّا الآن فيكاد يُقال إنَّه أعمى.

ثم وُضع فوق اللَّوح الدائري على ركبتيه، فانقاد طائعًا، وجُرِّد من قميصه، وسترته حتى حزامه، فانقاد أيضًا. وأُحيط بطبقةٍ أخرى من الأربطة والأحزمة، فتركهم يُقيدونه. إلَّا أنَّه كان يتنفس تنفُّسًا قويًا بين وقتٍ وآخر.

ولم يكد الجمهور يرى حدبة «كوازيمودو» عارية، وصدره كثيف الشعر، حتى عصفت به ضحكات شديدة عالية. وفي أثناء هذه الموجة من المرح صعد رجلٌ قصير القامة، تبدو عليه الصلابة إلى السقيفة. فعرف فيه الناس جلاد شاتليه، وبدأ بخلع معطفه، ثم رأى الجمهور سوطه الدقيق بشرائطه الطويلة البيضاء اللامعة، المجدولة والمُسلحة في أطرافها بأظافر معدنية. كان يطوي بيده اليسرى كُمَّ ذراعه اليُمني حتى ما تحت إبطه.

وارتفع صوت «جوهان فروللو»، بعد أن علا كتف صديقه «روبان بوسبان»، قائلًا:

«تعالوا! انظروا! أيها السادة والسيدات!إنَّ المُعلِّم كوازيمودو، قارع أجراس أخي، كاهن جوزا، سيجلو في أُبَّهةٍ فائقةٍ بالغةٍ، إنَّه فنّ هندسي شرقي.. في ظهره قُبَّة، وساقاه عمودان ملتويان!!».

وانطلق الجمهور ضاحكًا، لا سيما الأطفال والفتيات.

وأخيرًا ضرب الجلاد الأرض بقدميه، وبدأت العجلة تدور، وتأرجح «كوازيمودو» تحت أربطته وقيوده. وقد تضاعف الخوف والرُّعب الذي ارتسم في وجهه البشع ممَّا جعل الجمهور يضحك، ويسخر.

وفجأة ارتفعت يد الجلاد بسوطه الذي أرسلت أشرطته صَفيرًا كصَفير الأفاعي، ثم هبط عاصفًا فوق منكب البائس المسكين.

وقفز «كوازيمودو» كمَنْ يستيقظ من حركةٍ مُفاجئةٍ. وبدأ يفهم. فأخذ يتلوى تحت القيود، وتمدَّدت عضلات وجهه تحت ضغط الألم والدهشة، ولكنه لم يُرسل تنهيدة واحدة. بل اكتفى بتحريك رأسه إلى الوراء، أو إلى اليمين واليسار، يؤرجحه كما يفعل الثور الذي تلذعه ذُبابة البقر.

وتتابعت لسعات السوط واحدة تلو الأخرى، فلا تكف العجلة عن الدوران، ولا تتوقف الضربات عن الإمطار. ثم لم تلبث الدماء حتى انبثقت من جراحه، وسالت في خطوطٍ دقيقةٍ فوق جسد الأحدب العاري الأسود، أمَّا أشرطة السوط الجلدي فقد كانت تنثر هذا الدم فوق المُشاهدين كلَّما ارتفعت في الهواء صَافرة.

ثم اتخذ «كوازيمودو» مرَّة أخرى هيئة الغائب عن المكان بعد أن حاول بادئ الأمر أن يقطع أربطته وقيوده، ولكن الأربطة والقيود استطاعت أن تصمد أمام مجهوده الجبار، الذي جمَّع له أعصابه، وقلَّص من أجله عضلاته، دون جدوى فاستسلم لقدره، أغلق عينه الوحيدة، وأحنى رأسه فوق صدره، واتخذ هيئة الميت.

ومن لحظتها لم يتحرَّك أبدًا، وقد عجز كل شيء على أن ينتزع من جسده حركة واحدة، حتى الدم الذي يسيل دون توقف، والضربات التي تعصف به، وغضب الجلاد الذي تزايد حنقه وينتشي بتعذيبه له، وضجة الأشرطة الجلدية التي كانت تُصَفر وتفري لحمه.

وأخيرًا أرسل أحد فرسان الشرطة إشارة بعصاه يُعلن بها توقف التعذيب. فجمدت العجلة الدائرة، وامتنع الجلاد عن متابعة الضرب. ثم فتح «كوازيمودو» عينه ببطءٍ شديدٍ، وأقبل خادمان بعد انتهاء عملية الجلد

فغطيا جراح «كوازيمودو» المسكين بمراهم خاصَّة، لم تلبث أن التأمت بها، ثم أُلقي فوقه ثوبًا أصفر، بينما كان الجلاد ينظف أشرطة سوطه ليُزيل ما علق بها من دماء الضحية.

ثم تُرك «كوازيمودو» بعد ذلك ساعة أخرى فوق العجلة ليكمل العقوبة التي أضافها السيد «روبير».

كان «كوازيمودو» موضع كُره عامّ، لقد كان المرح شاملًا، وكانت الفرحة طاغية بظهور «كوازيمودو» مربوطًا إلى عجلة وتد التعذيب، وبدلًا من أن تبعث الشدّة التي عُومل بها، والآلام التي تحملها، شفقة هؤلاء الناس، فإنَّها جعلت الحقد العام أكثر خبثًا وأشدّ سوءًا.

وهكذا، وبعد أن أُشبعت نقمة الجماهير، بدأت الأحقاد الشخصيَّة الخاصَّة تلعب دورها أمام هذا المسكين. كانت النساء هنا كما كُنّ بالأمس في البهو الكبير، أكثر المُشاهدين انفجارًا وعبثًا، كُنّ كُلهن ينطوين على حقدٍ دفينٍ، منهن الحاقدات على خبثه، ومنهن الحاقدات على قبحه، وقد كانت الحاقدات على قبحه أشدّهن كُرهًا.

وانطلقت تعليقاتهن يتناولن به قبحه وزندقته فيما يزعمن، مُردِّدات لازمتهن الدائمة:

«أوه! الأصم! الأعور! الأحدب! الوحش القبيح!».

بينما كان الطالبان «جوهان فروللو»، و«روبان بوسبان» يُغنيان.

وأُمطرت الساحة بآلافٍ أخرى من الإهانات، والهتافات الصاخبة الحاقدة، والقهقهات، والأحجار من هنا وهناك.

ولئن كان «كوازيمودو» رجلًا أصم، فقد كان يرى جيدًا ما حوله. كان يشهد غضب الجماهير الذي يرتسم على الوجوه، ويتمثَّل في الأقوال. أمَّا الحجارة فإنَّها تعكس الضحكات المتفجرة.

ولكن «كوازيمودو» الذي صمد أمام التعذيب، لم يسعه إلَّا أن يغضب، ويثور أمام لسعات هذه الحشرات التي تتجمَّع حوله.

فنقَّل بادئ الأمر نظراته مُهدِّدة ثائرة بين الناس، ولكن هذه النظرات لم تفعل شيئًا، وهو المُقيَّد بأربطةٍ وقيودٍ عجزت عن طرد هذا الذُّباب.

فاضطرب وتلوى تحت أربطته، حتى أنَّ عجلة الوتد كانت تئز تحت وطأة محاولاته الثائرة، ومع ذلك كانت الضجة الساخرة تتزايد، ولسعات الحصى تشتد.

وهنا رجع إلى هدوئه، ولكن الغضب والحقد واليأس، قد عملت مجتمعة على إشاعة سحابة قاتمة، فيها شحنة كهربائية فائقة تتفجَّر في مئات من بروق عينه الواحدة.

وبدأت الغيمة تنقشع، حين مرّ بغل يعلوه كاهن وسط المُشاهدين، بدأت الابتسامة تبدو في وجه «كوازيمودو» طاردة حقده وثورته منذ وقع نظره على الكاهن وبغله مطلين من بعيد. وكلَّما اقترب الكاهن زادت الابتسامة رقة وحلاوة وضياء، كما لو كان «كوازيمودو» يستقبل بها ويُحيّي صديقًا مخلصًا له. واقترب الكاهن وعرف «كوازيمودو»، ولكنه لم يلبث أن لوى رأس بغله وانطلق بعيدًا تخلصًا ممَّا كان يمطر به الناس هذا المُعذب المسكين من الإهانات والشتائم والرجم بالحصى.

لقد كان هذا الكاهن «كلود فروللو».

وهبطت السحابة مرَّة أخرى فوق جبين «كوازيمودو» أكثر كثافة وقتامة. وبقيت الابتسامة مختلطة بها فترة من الزمن، ولكنها ابتسامة مُرَّة، يائسة، عميقة الحزن.

ومرّ الزمن، وسجل العقرب ساعة ونصف ساعة على الأقلّ، والمُعذب عرضة للتمزيق وسوء المُعاملة والسخرية في غير كلل أو ملل.

ثم انتفض المسكين، فجأة، مرَّة أخرى، في يأسٍ متضاعفٍ واضطرابٍ لانتفاضة الجهاز الخشبي الذي كان يحمله ويصرخ، وقد قطع الصمت الذي كان قد التزمه بعنادٍ بالغ منذ وقت طويل، لا كما يصرخ إنسان، بل كما يكون العواء. فغطى بصراخه ضجة الهتافات المنطلقة، قائلًا:

«إليَّ بالماء!».

ولم يكن لهذا النداء المُتهالك الحزين من أثرٍ غير ما كان لما قبله من المُشاهدين، من مُضاعفةٍ لفرح الناس وسخرياتهم، والحق أنَّ هذا الجمهور لم يكن خيرًا من طغمة اللصوص المُخيفة، ولا فرق بينهما سوى أنَّ قبيلة اللصوص هي الطبقة الدنيا من طبقات هذا الشعب.

لم يرتفع صوت واحد لينجده، ولو وُجد بين المتفرجين مَنْ بعث هذا النداء عاطفة الشفقة في نفسه، لما جرؤ على اقتحام صفوف هؤلاء الأوغاد والوصول إليه.

ونقل «كوازيمودو» نظراته بين الناس خلال دقائق، وكرَّر بصوتٍ أشد تمزيقًا للقلوب:

«إليَّ بالماء!».

والكل يضحكون.

كان «روبان بوسبان» يصرخ، وقد رمي إليه بإسفنجةٍ مغموسةٍ في مجرى مائي موحل، قائلًا:

«اشرب هذه! خذ أيها الأصم الكريه».

ورجمته إحدى النساء بحجرٍ في رأسه:

«هاك ما يعلمك على إيقاظنا في وسط الليل بأجراسك الملعونة».

وضربه ثالث بعصاه التي كان يتوكأ عليها.

ووضع رابع في صدره جرَّة مكسورة.

ثم كرَّر «كوازيمودو» نداءه، وهو يتهاوى:

«إليَّ بالماء!».

وفي هذه اللَّحظة رأى الناس يتباعدون، وقد بدت وسطهم فتاة ترتدي ثيابًا غريبةً، ترافقها عنزة صغيرة بيضاء، ذات قرنين مذهبتين، وتحمل بيدها دُفًّا.

وأبرقت عين «كوازيمودو» لقد عرف فيها الفتاة التي حاول بالأمس أن يختطفها والتي كان يعتقد أنَّه يتلقى الآن عقوبة محاولته تلك، فلم يشك لحظة في أنَّها آتية لتنتقم لنفسها منه.

والواقع أنه رآها تصعد السلم سريعًا، وقد كاد الغضب والحقد أن يخنقاها، فود لو استطاع أن يُحطم الوتد، ولو كان لبرق عينه أن يحطم لوجب أن تستحيل الفتاة هباءً منثورًا، قبل أن تصل إلى السقيفة.

واقتربت الفتاة منه دون أن تتفوه بكلمةٍ واحدةٍ، بينما كان يتلوى راغبًا في التخلُّص منها، ثم نزعت من حزامها قربه ماء، ووضعت فوهتها رقيقة حلوة فوق شفتي البائس المسكين.

وهنا شُوهدت هذه العين التي كانت جامدة محترقة حتى ذاك الوقت، شُوهدت دمعةٌ كبيرةٌ تنسكب بطيئة عبر هذا الوجه المشوه، والذي طال تقلصه من اليأس، ومن الممكن أن تكون هذه الدمعة هي الأولى التي أرسلها البائس في حياته كلِّها.

وفي هذه الأثناء كان قد نسي أن يشرب، وكشرت الغجرية تكشيرتها الصغيرة تعبيرًا عن نفاد صبرها، ثم ثبتت فوهة القربة وهي تبتسم فوق فم «كوازيمودو» الممطوط، فشرب في جرعاتٍ كبيرةٍ. لقد كان عطشه شديدًا.

ومدّ المسكين شفتيه في حركةٍ يرغب في تقبيل اليد الجميلة التي أنجدته، ولكن الفتاة لم تكن خالية من الشعور بالحذر، والتي كانت تذكر محاولته اختطافها في الليلة السابقة، جذبت يدها في حركة الطفل الذي يخاف أن يعضه حيوان.

وهنا ثبت الأصم المسكين فيها نظرة عاتبة، ذات حزن فائق لا يُعبَّر عنه. والحق أنَّه كان مشهدًا مُثيرًا: فتاةٌ جميلةٌ، طاهرةٌ، بالغة الضعف، في الوقت نفسه تسرع ورعة لإنجاد مثل هذا البؤس العظيم، والبشاعة الكبيرة، والخبث البالغ. لقد كان مشهدًا نبيلًا فوق وتد التعذيب.

والحق أيضًا أنَّ الجماهير قد انفعلت متناثرة بنبل هذه البادرة فصفقت قائلة:

«نوويل! نوويل!».

وفي هذه الفترة بالذات شهدت الحبيسة من خلال كوة جُحرها تلك الغجرية واقفة فوق الوتد، فأرسلت نحوها دُعاءها المتجهِّم:

«كوني ملعونة يا بنت بوهيميا! ملعونة!ملعونة!».

وامتقع وجه «الأسميرالدا»، وهبطت سلم الوتد وهي تتهاوى في مشيتها، أمَّا صوت الحبيسة فقد لحقها أيضًا:

«انزلي! انزلي! يا سارقة الأطفال، أم أنَّكِ ستصعدين إليه مرَّة أخرى؟!».

قال الشعب مدمدمًا: «الحبيسة.. تهذي!!».

وجاءت الساعة التي حُلَّت فيها قيود «كوازيمودو»، وتفرَّق الناس.

السر ينكشف!

THE SECRET IS REVEALED!

مرَّت أسابيع عديدة.. وكان الناس في بداية شهر مارس، وكان تجاه الكاتدرائية بعض الفتيات يضحكن ويتحدثن فوق شرفة حجرية لبيتٍ قوطيٍ يشي بثراء قاطنيه.

كُنَّ في الحقيقة «فلور دو لي» Fleur de lys، وأمَّها الأرملة السيدة «دو جوندو لوريا» Dame de Gondelauier، وصديقاتها.

كانت الفتيات جالسات، قسمٌ منهن في الغرفة، وقسمٌ آخر فوق الشرفة. وكل واحدة منهن تمسك بجزءٍ من قطعة سجاد كبيرة يشتغلن فيها معًا. وكن يتحدثن فيما بينهن بصوت منخفضٍ، وضحكاتٍ مختنقةٍ، على عادة الفتيات حين يكون في وسطهن شاب جميل.

أمَّا الشاب فقد بدا كأنَّه لا يلقي باله إليهن.

وكانت السيدة العجوز «دو جوندو لوريا» توجه إليه الحديث من حينٍ إلى آخر. وكان من السهل ملاحظة أنَّ الأمر يدور حول خطبة معقودة بين الضابط الشاب، وابنتها «فلور دو لي».. وكان برود الشاب ظاهرًا، ولكن السيدة العجوز كانت تجتهد في لفت نظره إلى الفتنة التي تتحلى بها ابنتها، وهي تشك إبرتها:

«لماذا لا تذهب وتتحدَّث إليها؟».

ثم استطردت تقول:

«اذهب.. قل لها شيئًا!». ثم دفعته إلى ابنتها «فلور دو لي».

يشعر الشاب بضرورة الكلام، فيقول:

«إنَّها لوحة جميلة!».

وهنا صرخت الصغيرة «شان شافريا» Champchevrier، وكانت تنظر إلى الساحة من على الشرفة:

«انظروا! انظروا! هذه الراقصة الجميلة التي ترقص على الرصيف!».

- «إنَّها من الغجر»، قالت «فلور دو لي».

فأسرعت صديقاتها نحو الشرفة، قائلات:

«فلنتفرج!!».

ووقف الضابط قليلًا متكئًا على حافة المدخنة مستغرقًا في التفكير، فالتفتت إليه «فلور دو لي»، وقالت:

«يا ابن عمي الجميل.. ألم تُحدثني أنك أنقذت فتاة غجرية من اللصوص أثناء الليل؟».

فقال الضابط:

«نعم، أذكر ذلك!».

ثم أردفت:

«تعال وانظر إن كنت تعرفها.. هل هي التي أنقذتها؟!».

واقترب «فوبوس» وألقى نظرة، وقال:

«نعم، إنَّها هي، عرفتها بعنزتها!!».

فقالت «فلور دو لي». مرَّة أخرى:

«مَنْ هو ذلك الرجل الأسود هناك؟».

ونظر الجميع إلى الأعالي، إلى أبراج نوتردام،

فقالت إحداهن:

«إنَّه كاهن جوزا».

فتقول «ديان» Diane:

«وكم هي غريبة نظرته إلى هذه الراقصة!!».

فقالت «فلور دو لي»:

«لتحذره هذه الغجرية، فهو لا يُحبّ الغجر أبدًا!!».

وتابعت تقول:

«يا ابن عمي الجميل، بما أنَّك تعرف هذه الغجرية، لتدعها تصعد هنا وتمتعنا!».

«نعم! افعل!». قالت الفتيات مؤيدات.

فينحني الضابط فوق حاجز الشرفة، ويُنادي مُشيرًا إليها أن تصعد:

«أيتها الفتاة!»

وأدارت الفتاة الغجرية رأسها، فوقعت عينيها على «فوبوس»، فتوقفت، واحمرَّ وجهها، ثم اتجهت وعنزتها نحو المنزل.

ثم قال لها «فوبوس»:

«لستُ أدري أيتها الجميلة ما إذا كنتِ قد تعرفتِ إليَّ..».

وقاطعته الفتاة، وهي تنظر إليه برقةٍ وابتسامةٍ جميلةٍ:

«آه! نعم!».

«لقد هربتِ في تلك الليلة بسرعةٍ بالغةٍ، فهل أخفتكِ؟!».

- «آه! لا!».

وكان في الطريقة التي لفظت بها الغجرية «آه! لا!» ما جرح إحساس «فلور دو لي». في العمق.

ثم قال «فوبوس» لها:

«ما الذي أراده منكِ ذلك الشيطان.. لقد عُوقب بقسوةٍ!».

«لستُ أدري!»، ثم أضافت:

«يا للرجل المسكين!!».

وينفجر الضابط ضاحكًا:

«أقسم بروحي أنَّها فتاة جميلة!».

فتبتسم «جيلفونتان» Gaillefontaine الجميلة، لتقول ساخرة:

«يا إلهي! أرى السادة رُماة حرس الملك يتأثرون سريعًا بالعيون الغجرية الجميلة!!».

فيقول «فوبوس»:

«ولِمَ لا؟!».

وهنا سالت من عينيّ «فلور دو لي» دمعة حزينة.

ورفعت الفتاة الغجرية عينيها فرحة فخورة، وراحت تبث في «فوبوس» نظرها من جديد.

ثم صرخت «شان شافريا»، قائلة:

«آه! ها هي العنزة الجميلة ذات القرون الذهبية!!».

فقالت «كولومب» Colombe:

«إنَّ على العنزة أن تؤدي معجزة عجيبة، سِحرًا كي تسلينا».

فأجابت الغجرية:

«أنا لا أفهم ما تريدين قوله؟!».

وهنا لاحظت «فلور دو لي» حجابًا صغيرًا مُطرزًا، مُعلقًا في رقبة العنزة، فسألت الغجرية، بدهشةٍ:

«ما هذا يا تُرى؟!».

فأجابت الغجرية:

«إنَّه سرى الخاصّ!».

في هذه الأثناء استطاعت «شان شافريا» الفضولية أن تنتزع الحجاب من رقبة العنزة، وتفك رباطه، وتُفرِّغ محتوياته على البساط، لقد احتوى على أحرف أبجدية.

ولم تكن تفعل ذلك حتى أقبلت العنزة بقدمها الذهبية، وراحت ترتب بعض الأحرف، الواحد تلو الآخر، فتكوَّنت من مجموع الأحرف المرتبة جملة من الكلمات.

وصفقت «شان شافريا» بإعجابٍ بالغٍ، وراحت تصرخ:

«انظري يا فلور دو لي ماذا فعلت العنزة الرائعة؟!».

ثم استطردت تقول منبهرة:

«لقد شكَّلت الأحرف التي رتبتها العنزة كلمة «فوبوس»!!.

- «لقد تجلى السر وانكشف!!». قالت «فلور دو لي»، ثم تابعت:

«إنَّها ساحرة حقًّا!!».

ثم سقطت مغشيًا عليها.

فصرخت الأمّ مذعورة:

«ابنتي! ابنتي! اذهبي أيتها الغجرية إلى جهنم!!».

فأُخرجت «فلور دو لي» محمولة إلى الباب.

فتغيَّر لون الغجرية، وارتجفت، ثم لملمت أحرفها في طرفة عين، وأشارت إلى عنزتها لتلحق بها، وخرجت.

ونظر إليها «فوبوس» مبتسمًا، وتردد برهة بين البابين، ثم لحق بالغجرية.

❋ ❋ ❋ ❋

خبر حزين!
SAD NEWS!

أسرع الكاهن الذي شُوهد في أعلى البرج «كلود فروللو»، وقد هبط مسرعًا، وبعد برهة صغيرة كان في الساحة.

وكانت الفتاة الغجرية ما تزال في ذلك البيت. فوجد الكاهن رجلًا بزي أحمر وأصفر، ولكي يكسب بعض النقود، كان الرجل يدور في حلقةٍ واضعًا يديه فوق خاصرتيه، قالبًا رأسه إلى الوراء، مادًّا رقبته، وقد احمرَّ وجهه، وبين أسنانه مقعد رُبط فيه قطة.

فقال الكاهن مُندهشًا:

«ماذا يصنع المُعلِّم جرنجوار هنا؟».

ولدى سماع صرخة الكاهن فَقَد «بطرس جرنجوار» توازنه، فسقط المقعد والقطة كلاهما على رؤوس الناس.

ثم قال له الكاهن بحدةٍ:

«تعال إليَّ يا مُعلِّم بطرس جرنجوار، هناك أشياء لابدّ من شرحها!».

فقال «جرنجوار» منكسرًا:

«سيدي أعترف أنَّها مهنة غريبة ومُحزنة، ولكن ماذا تُريدني أن أصنع؟ إنَّ المدنية لم تتقدَّم بعد إلى درجةٍ بحيث يكون بوسع المرء أن يخرج عاريًا.. إنَّ اللَّوم يقع على معطفي المتهرئ القديم!!».

فرد الكاهن:

«إنَّك يا جرنجوار تُمارس مهنة جميلة!!».

فاستطرد يقول «جرنجوار» آسفًا ونادمًا:

«أنا أعترف هنا أنَّ عملي مُحزن بالنسبة لما أملكه من ملكاتٍ عقليةٍ وفكريةٍ، ولكني سيدي المحترم لكي أعيش فيجب أن أكسب خبز يومي».

فرد الكاهن:

«حسنٌ جدًّا، ولكن كيف وجدت نفسك رفيقًا لهذه الراقصة الغجرية؟!».

فقال «جرنجوار»:

«ذلك لأنَّها زوجتي!».

واشتعلت عينا الكاهن، واتقد منهما الشرر، فصرخ غاضبًا:

«أيها البائس! أهل حقًّا ما تقول؟!».

ثم أردف:

«وهل أصبحت بعيدًا عن الله بحيث تتزوج من هذه المخلوقة؟!».

فقال «جرنجوار» منزعجًا:

«أقسم! أنَّها لم تسمح لي بأنْ ألمسها أبدًا!!».

ثم شرح «جرنجوار» للكاهن ظروف زواجه، وتابع يقول:

«إنَّ الأسميرالدا مخلوق جميل، ظريف. إنَّها فتاة ساذجة. غامضة أحيانًا، وتؤمن بالخرافات.. أخبرني صديق قديم أنَّها إمَّا ضائعة، أو أنَّها التقطت من قِبل الغجر، وهي تُعلق تميمة في رقبتها لتستدل على أهلها، وتقول إنَّ التميمة تفقد تأثيرها وفاعليتها، إذا فقدت هي ـ الغجرية ـ عفتها!!».

فرد الكاهن بنوعٍ من الارتياح:

«إذًا! تعتقد أنَّ الغجرية ما زالت طاهرة؟!».

فقال «جرنجوار»:

«هذا ما قيل لي.. والحق إنَّها جميلة، ورائعة، وذكية».

سكت بعض الوقت، ثم استكمل:

«وقد استطاعت أن تُدرِّب عنزتها البيضاء الجميلة، خلال شهرين فقط، على ترتيب حروف كلمة «فوبوس» من بين حروف كثيرة».

فقال الكاهن بدهشةٍ عارمةٍ:

«فوبوس! ولِمَ فوبوس؟!».

ثم قال فجأة لـ «جرنجوار»:

«أقسم أنَّك لم تلمسها!».

فرد «جرنجوار»:

«أقسم على ذلك، ولكن ماذا يعنيك سيدي من هذا القسم؟!!».

احمرَّ وجه الكاهن، بعد أن كان شاحبًا باهتًا، ثم قال في حرجٍ ظاهر من وقع السؤال المُباغت:

«أصغ إليَّ يا مُعلِّم بطرس جرنجوار.. إنَّ اللَّعنة لم تُصبك بعد، أنا لا أُريد لك إلَّا خيرًا.. في اللَّحظة التي تلمس فيها هذه الفتاة الغجرية تصبح عونًا من أعوان الشيطان.. هذا كل شيء!!».

ثم صرخ الكاهن وهو يحدج «جرنجوار» بنظرةٍ رهيبةٍ، قائلًا:

«والآن... اذهب!!».

صمت الأجراس
SILENCE THE BELLS

لاحظ جيران كنيسة نوتردام منذ حادث وتد التعذيب، أنَّ حماسة قارع الأجراس «كوازيمودو»، قد فترت فتورًا بالغًا.

لقد كانت تقرع قبل هذا الحادث في كل مناسبةٍ، فتنطلق أصواتها متنوعة، نشيطة، متتابعة، حتى لكأنَّها نمنمات صوتية مُطرزة. أمَّا الكنيسة العتيقة، فهي في فرحةٍ دائمةٍ بأجراسها. أمَّا الآن فقد بدا أنَّ هذا الروح قد اختفى بصورةٍ نهائيةٍ، وبرزت الكنيسة محزونة واحتفظت بالصمت مُختارة دون إكراه.

ثم لم تعد لمناسبات الأعياد والموت غير رنات جافة، عارية من الضَّجة المضاعفة التي كانت ترسلها الكنيسة بأجراسها في الخارج، وأرغنها في الداخل، غير ضجة الأرغن، حتى تراءى للناس أنَّه لم يعد في أبراج الأجراس موسيقيون. ومع هذا كلِّه فقد كان فيها «كوازيمودو» فما الذي حدث هناك؟ هل هما الخجل واليأس اللذان بقيا في أعماقه، ولسعات سوط الجلاد التي ما تزال آثارها بادية على روحه، وأنَّ الحزن الذي تركته هذه المُعاملة الشائنة قد أطفأ كل شيء في نفسه وروحه، حتى أصاب حُبَّه الفائق لأجراسه؟ أو أنَّ منافسة بالغة الروعة والرقة، قد بدأت تحتل قلب قارع الأجراس، وتخرج الكنيسة منه، فيهمل جرسه الكبير وإخوته الصِّغار.

كان عيد البشارة يوافق الثلاثاء 25 مارس (1482)، وكان الهواء من الرقة والخفة بحيث إنَّ «كوازيمودو» قد شعر برجوع جانب من حُبّه لأجراسه إلى قلبه، فصعد إلى البرج الشمالي بينما كانت أبواب الكنيسة الخارجية تنفتح على مصارعيها.

ولم يكد «كوازيمودو» يصل إلى البرج حتى راح يتأمَّل حزينًا هذه الأقماع النُّحاسية وكأنَّه يزمجر متأوهًا من شيءٍ غريبٍ يحجز بينه وبينها، ثم لم يلبث أن استعاد مزحته وحبوره حين بدأت الأجراس تتأرجح رائحة غادية، لقد نسى كل شيء، وبعث قلبه الذي يتمدد الازدهار في وجهه.

كان يروح ويجيء، ويصفق بيديه، وينتقل من حبلٍ لآخر، فيبعث الحياة في الأجراس الستة، وكأنَّه قائد موجة موسيقية يُشرف على توقيع أفذاذ من الموسيقيين.

كان يقول:

«هيا يا جبرائيل، اسكب ضجتك فوق الساحة، فاليوم عيد، أمَّا أنت يا تيبو، فإياك والكسل، إنَّك تبطئ في حركتك. هيا أسرع! هل أنت صدئ أيها الكسول؟ حسن جدًّا! أسرع! أسرع! لا تدع أحدًا يراك. مرحى، يا تيبو، تشجع!.. وأنت يا غليوم! إنَّك أكبر الأجراس! و باسكيا أصغرها، وهو خير منك.... ما هي هذه المناقير النحاسية التي تبدو متثائبة حين يجب أن تغنى؟

فلنعمل.. إنَّه عيد البشارة. يجب أن تكون لأجراسنا ضجة جميلة، حين تكون الشمس في السماء بهية!»

كان منهمكًا بكليته في بعث الحياة في أجراسه، التي تقفز كأحسن ما يمكن أن يُتاح لها القفز.

وفجأةً، وقع نظره خلال فتحة في جدار برج الأجراس، على فتاةٍ تتزين بزى غريب، وقد وقفت في ساحة الكنيسة تبسط بساطًا، ثم أتت عنزة صغيرة تجلس فوقه، وقد تجمَّع حولها عدد من المشاهدين.

وغيَّر هذا المشهد فجأة سير أفكاره، وجمَّد حماسته الموسيقية. وتوقف عن العمل، فأدار ظهره للأجراس وتجمَّع وراء الفجوة، مثبتًا في الراقصة نظرة حالمة رقيقة حلوة، كتلك التي بعثت الدهشة يومًا في نفس الكاهن. وفى هذه الأثناء، توقفت الأجراس المنسية، وانطفأت كلّها مرَّة واحدة، مُثيرة خيبة هواة أصواتها الذين كانوا يستمعون إليها بنيةٍ حسنةٍ من فوق جسر الشانج، وراحوا في خيبتهم كالكلب الذي عُرضت عليه قطعة من العظم، فإذا جاءها وجدها قطعة من الحجر.

حجرة الكاهن، والعملة الذهبية

THE PRIEST COMPATMET AND GOLD COIN

في صباح يوم جميل من أيام مارس، التاسع والعشرين تقريبًا، لاحظ صديقنا الطالب «جوهان فروللو» أنَّ محفظته خالية من النقود، فغمغم يقول:

«لقد خوت من كل شيء، وانتزعت أحجار النرد وأكواب البيرة من محفظتي كل محتوياتها، فهي متهدلة خالية».

لبس ثيابه حزينًا. وجالت في رأسه خاطرة بينما كان يعقد شريط حذائه، ثم دفع هذه الخاطرة، ووضع سترته مقلوبة على ظهره. ثم رجعت الخاطرة أثبت ما تكون، فألقى بقبعته أرضًا، وهو يصرخ:

«ليكن ما يكون! سأقصد أخي. سيُعطيني عظة، ولكنني سأفوز معها بقطعةٍ ذهبيةٍ!».

وانطلق إلى الخارج يائسًا بعد أن التقط قبعته، ثم هبط في شارع لاهارب «متجهًا نحو المدينة القديمة، وقد اقترب من شارع «لاهوشات»، حتى لا مست رائحة الشواء أنفه. ولأنَّه لا يملك نقودًا يدفع بها ثمن إفطاره، رُغم جوعه، فقد تابع طريقه حتى بلغ باب شاتليه، وهو يُرسل تنهيدة عميقة.

وعندما وجد نفسه أمام كنيسة نوتردام، رجع إليه تردده، فأخذ يروح ويغدو وهو يُردِّد في نفسه:

«أمَّا العظة فمضمونة، ولكن القطعة الذهبية شيء مشكوك فيه!!».

ثم سأل أحد الخدم: «أين السيد كاهن جوزا؟».

فقال له الخادم:

«أعتقد أنَّه في مخبئه من البرج، نصيحتي إليك ألَّا تزعجه، اللَّهم إذا كنت رسولًا من قِبل البابا أو الملك!!».

وصفق «جوهان» بيديه وهو يُردِّد:

«إنَّها مناسبة رائعة أطلع فيها على مخبئه السحري الشهير!»

وبعد أن حزم أمره، انطلق في تصميم ظاهر، يجتاز الباب الأسود الصغير، ثم يصعد السلم الحلزوني الذي ينتهي إلى طبقات البرج العُليَا.

كان يقول في نفسه:

«سأرى أيجب أن تكون شيئًا طريفًا حقًّا هذه الحجرة التي يُخفيها أخي المحترم.. ويُقال إنَّه يوقد فيها مطابخ جهنم، ويطهو فوق نارها العظيمة حجرة الفلسفي، وماذا يعنيني من هذا الحجر؟ إنَّني أُفضل أن أجد فوق موقده عجة من البيض، أو أي طعام آخر!!».

كانت الحجرة قاتمة. في وسطها منضدة تعلوها أشياء قبيحة جدًّا، من جماجم الموتى، وكرات مختلفة، وأواني تقطير، وأوراق مكتوبة بخط هيروغليفي.

لقد بدا أمام عين «جوهان» عبر فرجة الباب شيئًا شبيهًا بغرفة «فاوست» . كما أنَّ ما رآه هو غرفة قليلة الضياء، إضافة إلى هياكل عظمية لحيواناتٍ مُعلقةٍ في سقف الغرفة، وقوارير تضطرب فيها أوراق من الذهب، ومخطوطات كبيرة، مفتوحة كلها دون شفقه، وأخيرًا غبار، وأنسجة عنكبوت في كل مكان، والكاهن غارق في نشوته، وهو يتأمَّل الرؤيَا الملتهبة.

فتح الباب بهدوء فائق، بحيث إنَّ «كلود» لم ينتبه إلى حضور أخيه «جوهان» . فاستغل الطالب الفضولي استغراق أخيه؛ ليتأمَّل الحجرة دون حرج.

رأى أساطير مكتوبة في أعداد كبيرة فوق الجدران، بعضها مكتوب بالحبر، وبعضها الآخر منقوش بطرف قطعة معدنية دقيقة. فيها حروف غوطية، وعبرانية، و يونانية، ورومانية مختلط بعضها ببعض، مركوم بعضها فوق بعض، وهى متداخلة متعارضة كأنَّها كتلة من الأغصان المتشابكة.

وفى هذه الأثناء بدا الكاهن، وهو منحنٍ فوق مخطوطة مملوءة برسومٍ غريبةٍ، مؤرقًا مُعذبًا بفكرةٍ تأتيه في إلحاحٍ فتمتزج بتأمُّلاته، هذا ما قدره «جوهان» وهو يسمعه يقول، في تناوب متأمّل مُفكر، لحلمٍ فارغٍ، يحلم به صاحبه في صوتٍ مرتفعٍ:

«نعم إنَّ مانى يقول به، وكان زرادشت يُعلِّمه لأتباعه، والشمس تلد من نار، والقمر يخرج من الشمس. إنَّ النار هي روح الكل الكبير وجوهره!!».

فقال «جوهان» في نفسه:

«يا للشيطان، لقد انتظرت طويلًا للحصول على هذه القطعة الذهبية!!» .

ثم أغلق الكاهن كتابه بعنفٍ.

ومسح جبينه بكفه كما لو كان يطرد فكرة تلاحقه، ثم تناول من على المنضدة مسمارًا ومطرقة صغيرة رُسمت فوق مقبضها حروف سِحرية.

وقال في ابتسامةٍ مُرَّة:

«إنَّني أفشل منذ ردح من الزمن في كل تجاربي، والفكرة الثابتة تلاحقني، فتحمل الذبول إلى دماغي، كأنَّها ألسنة من اللَّهب. لقد عجزتُ عن أن أجد سرّ كاسيودور، الذي يحترق مصباحه دون زيت أو فتيل!! ومع ذلك فهو شيء يسير جدًّا!!».

ويدمدم «جوهان» قائلًا:

«يا للطاعون!!».

وبعد عدة تجارب بائسة فاشلة، قذف «كلود» بالمطرقة غاضبًا. ثم انهار فوق المقعد، حتى أنَّ «جوهان «لم يعد يراه وراء الملف الكبير. ثم لم ير خلال برهة من الزمن غير قبضته المتشنجة ممسكة بكتابٍ. وفجأة نهض «كلود»، وتناول بركارًا، ثم نقش به فوق الجدار كلمة «فاتوم» بحروفٍ لاتينيةٍ.

فقال «جوهان» في نفسه:

«إنَّ أخي مجنون! ألم يكن من الأسهل أن يكتب هذه الكلمة بحروفٍ فرنسيةٍ!!

إنَّ الناس غير مجبرين كلّهم على معرفة اللغة اليونانية!» .

ويأتي الكاهن فيجلس فوق مقعده مرَّة أخرى، وقد وضع رأسه بين كفيه، كما يفعل مريض ذو جبهة ثقيلة ملتهبة.

وكان الطالب يراقب أخاه في دهشةٍ بالغةٍ، وقد فهم أنَّه قد رأى من أخيه الكاهن ما لا يجب أن يراه، وأنَّه قد فاجأ روح أخيه في أشدِّ أوضاعها سرية وخفاء، وأن من الواجب ألَّا ينتبه «كلود» إلى وجوده.

فأخرج رأسه بهدوء شديد، بعد أن رأى الكاهن يعود إلى جموده السابق، ثم أحدث بقدميه حركة في الخارج، وكأنَّه قد وصل لتوه، وهو ينبه أخاه إلى وصوله.

فصرخ الكاهن من داخل الغرفة يقول:

«ادخل! لقد كنت أنتظرك، فتركت المفتاح في قفل الباب، ادخل أيها المُعلِّم جاك» .

ودخل «جوهان» جريئًا، أمَّا الكاهن الذي تزعجه مثل هذه الزيارة، في مثل هذا المكان، فقد اضطرب فوق مقعده وقال:

«ماذا! هل أنت، يا جوهان؟!».

قال «جوهان»، وفى وجهه حُمرة مرح وخجل:

«إنَّه دائمًا حرف ج يا أخي!».

وكان وجه «كلود» قد استرد قسماته القاسية الرصينة، فقال:

«ماذا جئت تفعل هنا؟!».

أجاب «جوهان» وهو يحاول جاهدًا أن تكون له هيئة لائقة مثيرة للشفقة متواضعة، وهو يدير قبعته بين يديه ببراءةٍ ظاهرةٍ:

«لقد أتيتك يا أخي لأسألك.....».

«ماذا؟».

«قليل من العظة، أنا في أشدِّ الحاجة إليه... وقليل من المال أنا في حاجة إليه أشد وأعظم!!».

وقد جمد هذا الجزء من الجملة فوق شفتيه.

قال الكاهن بلهجةٍ باردةٍ:

«أيها السيد، إنَّني غير مسرور منك أبدًا!.»

فتنهد «جوهان»:

«أنا آسف جدًّا»

واستدار الكاهن فوق مقعده قليلًا نحو «جوهان» وقال:

«إنَّني سعيد جدًّا لرؤيتك».

فكانت بداية مخيفه أعدها «جوهان» لنفسه!

قال الكاهن:

«هل تدرى أنَّني أتلقى في كل يوم شكاوى ضدّك؟

ثم تابع:

«وأين انتهيت من دراساتك وآدابك؟ إنَّك لا تكاد تعرف اللغة اللاتينية، كما تجهل السريانية، أمَّا اليونانية فهي من البشاعة عندك بمكانٍ، أليس كذلك؟!».

فرفع «جوهان» رأسه في تصميم ظاهر ثم قال:

«سيدي الأخ! هل يسرك أن أُفسِّر لك بلغةٍ فرنسيةٍ صحيحةٍ هذه الكلمة اليونانية المكتوبة هنا على الجدار؟!».

- «أيَّة كلمة؟».

- «فاتوم».

فتمتم الأخ الكبير:

«حسن جدًّا، فماذا تعنى هذه الكلمة؟».

- «القضاء والقدر».

ثم تابع:

«وهذه الكلمة المكتوبة تحتها، منقوشة باليد نفسها، إنَّها تعنى الفسق، ألَا ترى أنَّني أعرف اللغة اليونانية؟!».

وبقى الكاهن صامتًا.

أمَّا «جوهان» فقد أدرك أنَّ الظرف ملائم جدًّا لتحقيق أمنيته، فاتخذ صوتًا فائق الحلاوة والرقة وبدأ قائلًا:

«هل تحقد يا أخي عليَّ، فتقابلني بهذا الوجه المتجهم؟!».

فقال «كلود» بلهجةٍ جافةٍ:

«أين تريد أن تصل بهذا كلِّه؟!».

فأجاب «جوهان» متشجعًا:

«الحق يا أخي... إنَّي... في... حاجةٍ إلى نقود؟».

فقال «كلود»:

«أنت تعرف أن ما نكسبه من إقطاعيتنا شيء ضئيل جدًّا! إنَّه ليس كثيرًا كما تعلم؟».

قال جوهان في صبرٍ فائقٍ:

«إنَّني في حاجةٍ إلى النقود».

- «وتعلم أنَّني مرغم على شراء قطعة أرض من الأسقفية تتوسط إقطاعيتنا، ولم أوفق حتى اليوم إلى جمع ثمنها؟ وأنت تعلم ذلك!!».

– «أعلم أنَّني في حاجةٍ إلى نقود». قالها «جوهان» مُردِّدًا للمرَّة الثالثة.

– «وماذا تريد أن تفعل بهذه النقود؟».

فقال، وقد اتخذ هيئة رقيقة ناعمة:

«تعلم يا أخي العزيز كلود أنَّني لا أقصد وفى نفسي هدف رديء، فليست القضية أن أظهر جميلًا في الحانات.. لا يا أخي. إنَّ هذا من أجل عمل طيب».

وسأل كلود مندهشًا:

«أي عمل طيب هذا؟».

– «لي صديقان يرغبان في تقديم ثياب إلى طفل أرملة فقيرة، إنَّها صدقة كما ترى، وهى تساوى ثلاث قطع من النقود الذهبية، وفى عزمي أن أكون ثالث الاثنين».

اكتشف الكاهن بذكائه كذب «جوهان» فقال له صارخًا:

«اغرب عن وجهي، فأنا أنتظر أحد الناس!!» .

وبعد يأس شديد قال «جوهان»:

«حسن جدًّا، فإلى الشيطان وليحيَا المرح! إنَّني سأنطلق إلى الحانات، وسأقتل الناس، وأُحطم الأكواب والجرار!».

فنظر الكاهن إليه نظرة قاتمة، ثم قال:

«لم تعد لك روح يا جوهان!!».

ثم استطرد:

– «إنَّك في منزلقٍ خطيرٍ!! فهل تعرف إلى أين أنت ذاهب؟!».

قال «جوهان»:

«إلى الحانة!!».

– «الحانة تقود إلى وتد التعذيب.. ويقود وتد التعذيب إلى المشنقة».

– «المشنقة هي ميزان في إحدى كفتيه رجل، وفى الأخرى الأرض كلّها، والرجل هنا جميل رائع!!».

– «المشنقة تقود إلى الجحيم».

– «إنَّها نار عظيمة!»

«جوهان! جوهان إنَّ نهايتك رديئة!!»

وهنا بلغهما صدى خطوات في السُّلم.

قال الكاهن بصوتٍ خفيضٍ، وقد وضع إصبعه فوق شفتي «جوهان»:

«اسكت واستمع إليَّ، احذر أن تتكلم أبدًا عمَّا ترى، وتسمع في هذه الغرفة، اختبئ سريعًا تحت هذا الموقد، ولا تتنفس!!».

وتجمَّع «جوهان» تحت الموقد. وهنا جاءته فكرة ذكية فقال لأخيه «كلود»:

«بهذه المناسبة يا أخي كلود أعطني قطعة ذهبية فلا أنطق بكلمةٍ واحدةٍ».

– «اسكت إنَّني أعدك بها!».

– «يجب أن تعطيني إيَّاها الآن».

قال الكاهن غاضبًا، وهو يلقى إليه بقطعته:

«خذ إذًا!» .

وتجمَّع «جوهان» مرَّة أخرى داخل الموقد، ثم فُتح الباب.

رجلان في ثياب سوداء!
TOW MEN IN BLACK CLOTHES

كان داخل الغرفة رجلٌ ذو لباس أسود وهيئة قاتمة. فكان لهما تأثير سيئ في نفس «جوهان»، الذي اختار لنفسه زاوية من الموقد يرى فيها ويسمع كل شيء وهو في جلسة المطمئن. ومع ذلك فقد شاعت رقة خاصَّة في هذا الوجه، إنَّها رقه مصطنعة.

وكان الزائر الجديد شديد الشيب قد قارب الستين من عُمْره. وكان يطرف بعينيه، وقد ابيضَّ حاجبه، وتدلت شفته مع يدين كبيرتين. وإذ لم يجد «جوهان» غير هذه السمات أدرك أن مَنْ أمامه طبيب أو قاضٍ.

وفى هذه الأثناء لم يكن الكاهن قد نهض عن مقعده لاستقبال الداخل إلى غرفته. فأشار إليه بالجلوس فوق مقعد واطئ قريب من الباب، وبعد فترة صمت قال الكاهن له:

«مرحبًا أيها المُعلِّم جاك!».

فأجاب الرجل الأسود:

«سلامًا أيها المُعلِّم».

وأردف الكاهن بعد صمت جديد، تجنَّب المُعلِّم «جاك» أن يزعجه:

«هل تنجح؟».

قال الآخر، في ابتسامةٍ حزينةٍ:

«أنا آسف يا مُعلِّمي فهناك من الرماد ما أردت، ولكنني لم أجد ذرة واحدة من الذهب!!».

وأشار «كلود» إشارة من نفد صبره:

«أنا لا أكلمك عن هذا بل أكلمك عن قضية ساحرك، فهل اعترف مارك سينان بسِحره؟ هل نجحت في بلوغ ما تريده؟».

فأجاب المُعلِّم «جاك» في ابتسامته الحزينة دائمًا:

«لا! مع الأسف.. إنَّ الرجل صلب شديد، وسنقوده إلى العذاب قبل أن يقول شيئًا، ولن نترك وسيلة للوصول إلى الحقيقة، لقد تمزق كليًا تمامًا وقد استعنا بكل أعشاب القديس جان ولكن دون جدوى، إنَّه رجل رهيب!!».

– «ألم تجد شيئًا جديدًا في منزله؟».

«نعم! لقد وجدت هذه الأوراق بينما كنا نفتش في حزامه، ففي هذه الصحف كلمات لا نفهم معناها!!».

وكشف المُعلِّم «جاك» عن أوراق ملفوفة، قال الكاهن :

«أعطني إيّاها».

ثم ألقى عليها نظرة وقال:

«إنَّها سِحر محض! أمان ـ هوتان! إنَّها صرخة السَّحرة حين يباشرون اجتماعاتهم الصاخبة، هاكس، باكس، ماكس وهذه من الطبابة، إنَّها الصيغة التي يستعملها الطبيب ضدّ عضات الكلاب. أيها المُعلِّم «جاك»! إنَّك نائب الملك في محكمة الكنيسة، وهذه الصحف ملعونة».

– «سنخضع الرجل لتحقيقٍ جديد». وأضاف وهو يفتش مرَّة أخرى في محفظته:

«هذا ما وجدناه عند مارك سينان».

– «لقد وجدنا إناء من تلك الآنية التي تُغطى موقدك يا سيدي!!».

قال الكاهن:

«آه! إنَّه من آنية الكيمياء »، ثم قال «جاك» وهو ينحني على الأرض:

«متى يسرك أن ألقى القبض على الساحرة الصغيرة؟!».

– «أيَّة ساحرة»؟!

– «هذه الغجرية التي تعرفها جيدًا، والتي تأتى كل يوم لترقص فوق الساحة رُغم الأوامر الصادرة بنهيها عن ذلك، إنَّ لها عنزة مسكونة بالشياطين، ولها قرن الشيطان، تقرأ وتكتب، وتعرف الحساب.. القضية مُعدة وستُقدم وشيكًا، إنَّها! أُقسم بحياتي!، مخلوقة جميلة، هذه الراقصة لها أجمل عينين سوداوين، ولها ياقوتتان حمراوان من مصر، فمتى نبدأ؟!».

أمَّا الكاهن فقد اصطبغ وجهه بصفرةٍ شديدةٍ، ثم تمتم يقول:

«سأقول لك ذلك فيما بعد». ثم أردف يقول:

«اشغل نفسك بمارك سيان».

فقال «جاك»، وهو يبتسم:

«اطمئن، سأعيده إلى السرير الجلدي بعد ذهابي إليه، ولكنه إنسان شيطان، إن أحسن ما تملكه هو التحقيق معه بالآلة الرافعة تلفه حول عجلتها لفًّا!!».

كان «كلود» يبدو غارقًا في حالةٍ نفسيةٍ قاتمة، ثم التفت نحو «جاك»:

«أيها المُعلِّم بطرس! عفوًا! أقصد المُعلِّم جاك، اشغل نفسك بمارك سينان فقط».

– «نعم، نعم يا سيدي كلود. يا للرجل المسكين! إنَّه سيتألم كثيرًا، أمَّا فيما يتعلق بالصغيرة، التي يسمونها «أسميرالدا» فإنَّني منتظر أوامرك. ولكن ما لي أراك ساهمًا، فبم تفكر يا سيدي؟!».

كان «كلود» يثبت نظره بطريقةٍ آليةٍ في النسيج العنكبوتى الكبير الذي يُغطى الكوة، وفى هذه الأثناء ألقت ذبابة طائشة نفسها وهى تفتش عن شمس مارس خلال الشبكة العنكبوتية فلصقت بها، وتحرَّك العنكبوت الكبير حركة مفاجئة، ثم قفز فوق الذبابة فطواها بزبانيتيه الأماميتين، بينما كان خرطومه البشع يتفحص رأسها.

– «يا للذبابة المسكينة!!». قالها وكيل الملك في محكمة الكنيسة، ورفع يده ليخلصها، ولكن الكاهن أمسك ذراعه بعنفٍ متشنجٍ، كما لو أنَّه يستيقظ من انتفاضةٍ مفاجئةٍ. وصرخ:

«أيها المُعلِّم جاك! دع القضاء والقدر يعمل عمله!!».

وتابع الكاهن بصوتٍ يكاد يظن السامع أنَّه صادر من أحشائه:

«أوه! هاك رمزًا لكل شيء! إنَّها تطير، إنَّها مرحة سعيدة، لقد وُلدت منذ قليل، وهى تفتش عن الربيع، الهواء والحرية. أوه! نعم، ولكنها تصدم بزهرة القدر، فيخرج منها العنكبوت، العنكبوت البشع المخيف، أيتها الراقصة المسكينة! أيتها الذبابة التي كتب عليها مصيرها منذ الأزل! أيها المُعلِّم جاك! دع الأمور تجري، إنَّه القضاء والقدر!!». ثم استطرد يقول:

– «وا أسفاه يا كلود! إنَّك العنكبوت، وأنت الذبابة أيضًا، لقد كنت تطير إلى العالم، إلى الضياء، إلى الشمس، لم يكن همك إلَّا الوصول إلى الهواء

الطلق، إلى اليوم الكبير للحقيقة الخالدة، ولكنك بينما كنت تقفز نحو الكوة الباهرة التي تصلك بالعالم الآخر، عالم الضياء والعقل والعلم ألقيت بجسدك أيها المجنون البائس في شبكة العنكبوت الدقيقة التي وضعها القدر أمامك امتحانًا لك، ليحجز بينك وبين النور فكنت هذه الذبابة العمياء، والطبيب الأحمق، فلم تر أمامك شيئًا وأنت الآن في عراكٍ عنيف، قد تحطم رأسك، وانتزع جناحاك، بين قرني القدر الحديديتين! أيها المُعلِّم جاك، دع العنكبوت يعمل عمله!!».

قال «جاك» الذي ينظر إليه، ولا يفهم شيئًا ممَّا يقوله:

«إنَّني أؤكد لك أنَّني لن أمسها، ولكن دع ذراعي أيها المُعلِّم أرجوك، إنَّ لك يدًا من حديد!!».

عجل «جاك» في إرجاع «كلود» إلى عالم الواقع، بتوجيه هذا السؤال إليه:

«متى يا مُعلِّم ستساعدني على صنع الذهب، لقد تأخر نجاحي؟!».

فهز الكاهن رأسه في ابتسامة مُرَّة ثم قال:

«ليس ما نصنعه بريئًا كل البراءة!».

فأردف «جاك» بصوتٍ أكثر انخفاضًا:

«ولكن يجب أن نمارس شيئًا من أعمال السِّحر، حين لا نكون غير وكلاء للملك في محكمة الكنيسة، مقابل ثلاثين قطعة ذهبية في السنة كلِّها، على أن نتكلم بصوتٍ خفيضٍ جدًّا، ونعمل في الخفاء!!».

ثم خرج الاثنان من الغرفة، تتبعها تنهيدة «أوف!» خارجة من فم «جوهان»، الذي بدأ يخاف جديًا من أن تتخذ ركبته شكل ذقنه التي ثبتت فوقها طوال هذه المدة.

حانة تفاحة حواء
BAR APPLE EVE

انطلق «جوهان» خارجًا من جحره، وهو يقول:

«ها أن القطّين العاويين قد ذهبا. هاكس! باكس! ماكس! براغيث، وكلاب هائجة! وشيطان! لننزل ولنحمل قطعة أخينا الذهبية ولنحوِّل هذه النقود كلَّها إلى أكوابٍ من البيرة والنبيذ».

ونظر نظرة رقيقة نحو القطعة، ثم أصلح من زينته، وأزال غبار الرماد عن كميه، وأخذ يغنى، وهبط السلم في قفزات العصفور.

وبينما كان يجتاز الظلمة الدامسة في وسط طريقه، لامسه شيء لم يلبث حتى تجمَّد مُغمغمًا، فقد ران هذا الشيء هو«كوازيمودو»، وبدت هذه الملامسة شيئًا مضحكًا، ثم خرج إلى الساحة، وهو يضحك.

وهنا ضرب الأرض برجله حين شعر بها ثابتة تحته، وقال:

«أوه! كم أنتِ طيبة كريمة يا أرض باريس! أمَّا السلم الملعونة التي تلهث فيها ملائكة يعقوب فلا!».

ثم خطا خطوات قليلة، فرأى أمامه القطّين العاويين «كلود»، والمعلم «جاك» وهما يتأملان نقوش الباب الكبير فاقترب منهما على أطراف أصابعه وسمع الكاهن يقول بصوتٍ هامسٍ:

«وما يعنيني من هذا كلِّه! فالمحفظة في حوزتي!». وفى هذه اللحظة سمع صوتًا قويًا رنانًا يطلق وراءه سلسلة من التجاديف الضخمة. فصرخ «جوهان»:

«أقسم بحياتي أنَّ هذا المتكلِّم هو القائد فوبوس!!».

وبلغ اسم «فوبوس» أذني الكاهن، فانتفض ثم امتنع عن الكلام، أمام حيرة المعلِّم «جاك» ودهشته، واستدار ينظر وراءه فوجد أخاه «جوهان» يقترب من ضابط كبير واقف أمام باب «جوندو لوريا».

والواقع أنَّه القائد «فوبوس». لقد كان مستندًا إلى زاوية منزل خطيبته، يقذف بتجاديفه وشتائمه كأنَّه وثني.

قال «جوهان» وهو يتناول يدَ القائد:

«أقسم أنَّك تُجدف بحماسةٍ تبعث على الإعجاب!!».

فقال «فوبوس» وهو يهز له يدَه:

«عفوًا! أيها الرفيق الطيب جوهان، إنَّ الحصان لا يقف فجأة أبدًا. ولهذا كنت أشتم. لقد خرجت من بيت أولئك النسوة الغليظات وفى كل مرَّة أخرج فيها أشعر بامتلاء حلقي بالشتائم، فإذا لم أبصقها اختنقت وكانت النهاية!!».

وسأله «جوهان»:

«هل تُحبّ أن تأتى فنشرب؟!».

فابتسم القائد وقال:

«أريد ذلك.. ولكنى لا أملك نقودًا؟».

- «عندي ما نحتاج إليه!».

- «ماذا تقول؟ أرني ما عندك».

ونشر «جوهان» المحفظة أمام القائد.

وفى هذه الأثناء كان الكاهن الذي ترك «جاك»، قد وصل قريبًا منهما، ووقف على بعد خطوات قليلة، يراقبهما دون أن يتنبها إليه، فقد كان تأمُّل المحفظة يستغرق تفكيرهما كلَّه.

صرخ «فوبوس»:

«أراهن أن في محفظتك حصى فقط؟!».

فأجابه «جوهان» ببرودٍ ظاهرٍ:

«هاك الحصى التي أملأ بها جيبي!!».

وأفرغ ما في المحفظة دون أن يُضيف شيئًا.

فدمدم «فوبوس»:

«يا الله! أفيها دراهم حقيقية، هذه قطع فضية، وتلك نحاسية، وأخرى ذهبية.. إنَّه شيء باهر حقًّا!!».

فبقى «جوهان» محتفظًا بكبريائه وهدوئه. وتدحرجت قطع فضية وامتزجت بوحل الأرض، فانحنى «فوبوس» في حماسته يلتقطها، ولكن «جوهان» حال دون ذلك:

«عيبٌ أيها القائد فوبوس!!».

وعدّ «فوبوس» النقود المتدحرجة، ثم التفت نحو «جوهان» يقول بصوتٍ رنان:

«هل تعرف يا جوهان أنَّ ما تدحرج يساوى23 درهمًا! قل لي مَنْ سلبت هذه الليلة؟!».

فألقى «جوهان» رأسه إلى الوراء، بشعره المفتول ثم قال له:

«إنَّ لي أخًا كاهنا أبْلَه!!» .

- «الرجل الكريم النبيل».

قال «جوهان»:

«تعال نشرب!».

فأردف «فوبوس»:

«إلى أين نذهب؟.. إلى حانة تفاح حواء؟».

- «لا ! أيها القائد إلى حانة العَلم القديم» .

- «ولكن النبيذ في حانة تفاحة حواء يا جوهان أحسن وأطيب طعمًا. وإلى جانب الباب كرمة يشيع فيها نور الشمس ويدخل السرور إلى قلبي حين أشرب!»

قال «جوهان»:

«حسنٌ جدًّا، لنذهب إلى حواء وتفاحتها!!».

وانطلق الصديقان نحو حانة تفاحة حواء، بينما كان الكاهن يلحق بهما، قاتم الوجه، تائه النظرات. كان منصتًا إلى ما يقولان، مراقبًا حركاتهما، ولم يكن أسهل من أن يسمع كل ما يقولانه، لأنَّهما كانا يتحدثان بصوتٍ مرتفعٍ.

وعندما بلغا مفترق أحد الشوارع، بلغهما صوت آتيًا من المفترق الآخر. فسمع «كلود» الضابط يقول لأخيه:

«لنعجل الخُطى!!».

- «ولِمَ العجلة يا فوبوس؟!».

- «أخاف أن تراني الغجرية!».

- «أيّة غجرية؟».

- «الصغيرة ذات العنزة».

«الأسمير الدا!!».

«تمامًا يا جوهان. إنَّني أنسى دائمًا اسمها الشيطاني، لنسرع إنَّها ستعرفني حتمًا، وأنَّني لا أريد أن تقاربني هذه الفتاة في الشارع!!».

– «وهل تعرفها يا فوبوس؟!».

وهنا رأى الكاهن الضابط يضحك ساخرًا، وينحني فوق أذن «جوهان» ويهمس فيها بكلمات، ثم ينفجر ضاحكًا، ويهز رأسه في هيئة المنتصر.

قال «جوهان»:

«أحقًّا هذا؟!».

قال «فوبوس»:

«قسمًا بحياتي!».

– «هذا المساء».

– «هل أنت واثق من أنَّها ستأتي؟»

– «ماذا تقول يا جوهان وهل يشك في مثل هذه الأشياء؟!».

– «إنَّك ضابط محظوظ أيها القائد فوبوس!!».

وسمع الكاهن هذا الحوار كلَّه فاصطكت أسنانه، وسرت قشعريرة ظاهرة للعيان في جسده كلِّه فتوقف قليلًا، واستند إلى حاجزٍ كالرجل الثمل، ثم تابع طريق الشابين المرحين.

ولم يكد يقترب منهما حتى كانا قد غيرا موضوع حوارهما.

الجريمة
THE CRIME

وبقى الكاهن يروح ويجيء أمام الحانة ملتفًّا بمعطفه الذي غطى كل جسده حتى بلغ عينيه. وأخيرًا فُتح باب الحانة وخرج منها شابان ثملان.

قال أحدهما:

«لقد دقت الساعة مشيرة إلى السابعة، إنَّها الساعة التي ضربت موعدي فيها».

- «إذًا، اذهب ودعني..».

- «جوهان، ألم يبق معك شيء من المال؟ درهم واحد فقط!».

ولكن «جوهان» لا يعي ما يُقال له، فقال لرفيقه:

«لقد سبق وأخبرتك أنَّني لا أسكن في شارع مافيز؟».

- «جوهان، ارجع إلى صوابك!، إنَّها السابعة ولا أُريد غير درهم واحد!».

ولكن «جوهان» راح يُغنى، فدفعه الضابط بخشونةٍ، فانزلق حتى الجدار ثم سقط فوق الرصيف.

وكان الرجل ذو المعطف، يسمع ويرى كل شيء، فتوقف لحظة أمام الشاب المُمدَّد، ثم راح يتبع القائد.

وقد أدرك «فوبوس» أنَّ إنسانًا يتبعه، فرأى وهو يلتفت إلى الوراء ظلًّا يزحف وراءه عبر الجدران. فاستدار وقطع الصمت بضحكةٍ عاليةٍ، ثم قال:

«سيدي إذا كنت لصًّا فإنَّني ابن عائلة مفلسة! فاقصد صيدًا آخر!!»

وخرجت يد الشبح من تحت المعطف ثم انقضت فوق ذراع «فوبوس» بقوَّة براثن النسر. وقال:

«القائد فوبوس دي شاتوبار».

قال «فوبوس»:

«أتعرف اسمى؟!»

– «أنا لا أعرف اسمك فقط، بل أعرف أيضًا أنَّ لديك موعدًا هذا المساء!»

ثم استطرد يقول:

«في الساعة السابعة!».

– «نعم، وهى امرأة، عند جسر سان ميشيل واسمها..»

قال «فوبوس مقاطعًا، وبدون مبالاة:

«الأسمير الدا!»

وعاودته لامبالاته بالتدريج.

– «قائد فوبوس، إنَّك تكذب!!»

وسحب «فوبوس» ذراعه من يد الرجل ووضعها فوق مقبض سيفه، وصرخ يقول:

«هذه كلمة يندر أن تسمعها أذن شاتوبار!».

فقال الشبح ببرودٍ:

«أنت تكذب!!»

فشهر «فوبوس» سيفه غاضبًا، وقال:

«هنا في هذا المكان، على الرصيف لابدّ أن يصطبغ بدم واحد منا!».

أمَّا الآخر فلم يتحرَّك أبدًا، بل قال بمرارةٍ وبرودٍ:

«أيها القائد فوبوس، لقد نسيت موعدك!»

ثم تابع قائلًا:

«أيها القائد، غدًا أو بعد غد، بعد شهر أو بعد عشر سنوات، ستجدني مستعدًّا لقطع رقبتك، ولكن اذهب أوَّلًا إلى موعدك!!»

– «أيها السيد! شكرًا عظيمًا على لطفك. آه! نسيت، إنَّني بحاجةٍ إلى النقود!»

– «هناك ما تحتاجه!».

«شكرًا! إنَّك رجل طيب!».

– «ولكن بشرط! برهن لي أنَّك تقول الحقيقة، خبئني في زاوية من الزوايا بحيث أرى ما إذا كانت هي المرأة التي ذكرت اسمها!».

قال «فوبوس»:

«لا ضير في ذلك أبدًا!!»

وتابعا سيرهما مُسرعين، وبعد دقائق قليلة وصلا إلى جسر سان ميشيل فقال «فوبوس» لرفيقه:

«سأوصلك أوَّلًا إلى مخبئك، ثم أنطلق لآتي بالفتاة».

فلم يجبه رفيقه. ووقف «فوبوس» أمام باب خفيض ونقره بخشونةٍ، ففتح الباب بعد أن سمع صوتًا يقول:

«مَنْ هناك؟!».

وظهرت امرأة عجوز تلبس ثيابًا رثة، فوضع «فوبوس» القطعة الذهبية في يدها ودخلا البيت.

وضعت المرأة قطعة النقود الذهبية في درج، وما إن أدارت ظهرها حتى اقترب ولد، كان يجلس قرب النار، وأخذ قطعة النقود من الدرج ووضع مكانها ورقة جافة.

وأشارت العجوز إلى الرجلين أن يتبعاها، وصعدت السُّلم أمامهما. ولما وصلوا الغرفة العلوية وضعت المصباح فوق صندوق خشبي. وفتح «فوبوس» بابًا ينتهي إلى حجرةٍ صغيرةٍ قذرةٍ، ثم قال لرفيقه:

«ادخل إلى هنا عزيزي!!».

فدخل الرجل وأغلق الباب وراءه، بينما هبط «فوبوس» والعجوز ليحضرا الفتاة.

وفجأة سمع وقع الخطى فوق درجات السُّلم، كان أحدهم يصعد. وكان في باب غرفته شق عريض ألصق به وجهه، وكان من العرض بحيث مكَّنه من رؤية كل ما يحدث في الغرفة المجاورة.

وعندما نظر من خلال الشق رأى «الأسميرالدا» الرقيقة الجميلة. رآها ترتفع فوق الأرض وكأنَّها رؤيا باهرة، وارتجف «كلود»، وانتشرت سحابة فوق عينيه، وانتفضت شرايين جسده بقوَّةٍ، وكل شيء يضج من حوله ويدور، ثم لم يعد يسمع أو يرى شيئًا. وعندما رجعت إليه نفسه، كانت «الأسميرالدا»، و«فوبوس» جالسين فوق الصندوق الخشبي قرب المصباح.

كانت الفتاة مصطبغة بالحُمرة، نابضة لاهثة، ممتنعة خائفة، وكان هدباها الطويلان المنخفضان يظللان وجنتيها الأرجوانيتين. أمَّا الضابط الذي لم تكن تجرؤ على رفع بصرها إليه، فقد كان مرحًا ينبض بالحياة. كانت تخط بأنملتها فوق المقعد خطوطًا متشابكة غير منتظمة، ثم تنظر إلى أنملتها بصورةٍ آليةٍ، تنبئ عن تعثرها الطريف. أمَّا قدمها فلم تكن ظاهرة، وكانت عنزتها الصغيرة جاثمة فوق هذه القدم. والقائد فوق هذا وذاك على جانب كبير من الأناقة.

قالت الفتاة دون أن ترفع نظرها:

«أوه! لا تحتقرني يا سيدي فوبوس، فإنَّني أشعر بسوء ما أصنع!!».

وأجاب الضابط في هيئة الأنيق المترفع:

«أحتقركِ! يا طفلتي الجميلة، أحتقرك أنا! ولماذا؟».

- «لأنَّني تبعتك!».

– «يظهر أنَّنا غير متفاهمين حول هذا الجانب من الموضوع يا جميلتي! إنَّ عليّ ألَّا أحتقركِ، بل علىَّ أن أكرهكِ!!».

ونظرت إليه الفتاة مذعورة خائفة:

«تكرهني!!، وما الذي صنعته؟!»

«لأنَّكِ أطلتِ ضراعتي ورجائي!!».

قالت:

«وا أسفاه!! ذلك أنَّني حرمت أمنية من الأماني، فلن أجد أهلي، وستفقد التميمة تأثيرها. ولكن ما الذي يعنيني من هذا كلِّه؟ وما حاجتي الآن إلى أمٍّ وأب؟».

وكانت تنظر إلى «فوبوس» بعينيها السوداوين المغرورقتين بدموع الفرح والحنان، نظراتٌ عميقةٌ، وهى تتكلم.

فصرخ «فوبوس»:

«أقسم أنَّني لا أفهمكِ أبدًا!!».

فبقيت «الأسميرالدا» دقائق صامتة لا تتحرَّك، ثم سالت من عينيها دمعة كبيرة، ثم جرت من بين شفتيها تنهيدة مُحرقة، وقالت:

«سيدي! إنَّني أُحبُّك»

قال «فوبوس» في حماسةٍ عارمةٍ:

«هل تحبينني؟!».

ثم أحاط خصر الغجرية بذراعيه، إذ لم يكن ينتظر غير هذه المناسبة. ورآه الكاهن فوضع طرف أنملته فوق رأس خنجر كان يخبئه في صدره.

وتابعت الغجرية تقول، وهى تنزع يدي القائد رفيقه عن خصرها:

«إنَّك طيبٌ وكريمٌ وجميلٌ. لقد أنقذتني أنا الطفلة الغجرية الضائعة. كنت أحلم منذ زمن طويل بضابط يُنقذ حياتي. لقد كنت أحلم بك أنت قبل أن أعرفك يا حبيبي فوبوس. وكان لحلمي خصائصك المميزة، وجهٌ كبيرٌ، وسيفٌ رائعٌ. إنَّك تُدعى فوبوس وهو اسم جميل، وأنا أُحبُّه، كما أُحبّ سيفك أيضًا، فسل سيفك إذًا كي أراه».

قال القائد:

«إنَّكِ طفلة حقًّا!!».

وفكّ رباط سيفه، وهو يبتسم. ونظرت الغجرية إلى قبضته، وحَدّه، وتفحصت بفضولٍ رقيقٍ رقم السيف ثم قبلته، وهى تقول:

«إنَّك سيف رجل شجاع، وأنا أُحبّ القائد فوبوس، دعني أكلمك قليلًا، وأمش عبر الغرفة كي أراك كلك، كم أنت جميل!!».

ونهض القائد ليُفرحها، وهو يوبخها بابتسامة رضا:

«ولكن هل أنتِ طفلة؟!، وبهذه المناسبة هل نظرتِ إليّ يا جميلتي وأنا في الزي الرسمي؟!».

أجابت:

«لا، وأنا آسفة!»

- «إنَّ هذا الزى هو الجميل حقًّا».

ورجع «فوبوس» يجلس أقرب إليها ممَّا كان من قبل، ثم قال:

- «اسمعي يا عزيزتي..»

وربتت الغجرية بيدها على فمه في طفولةٍ مفعمة بالجنون والروعة والمرح، وهي تقول:

«لا! لا ! لن أستمع إليك ياعزيزي فوبوس! فهل تُحبّني؟ أريد أن تقول لي إذا كنت تُحبّني فقط؟!».

وصرخ القائد وهو ينحني على هيئة الراكع:

«ماذا إذا كنت أحبكِ، إن جسدي ودمى وروحي كلَّها بين يديكِ، ودفاعًا عنكِ، أُحبُّك ولم أُحبّ أحدًا سواكِ من قبل قط؟».

وهنا رفعت الغجرية عينيها نحو السقف الذي ينوب عن السماء، وقد امتلأت بسعادةٍ ملائكيةٍ، وتمتمت تقول:

«أوه! هذه هي الساعة التي يحلو فيها الموت».

وصرخ القائد المُحبّ:

«الموت! ماذا تقولين يا ملاكي الجميل؟!إنَّها هنا ساعة الحياة، ما هذا المِزاح، استمعي إلىّ يا عزيزتي سيميلار.. أسمينارادا.. عفوًا! إنَّ لكِ اسمًا غريبًا حقًّا.. أعجز عن التلفظ به..».

قالت الفتاة.. يا إلهي! لقد كنت أظن أن في هذا الاسم جمالًا فريدًا حقًّا! أما وهو لا يسرك فسأدعو نفسي غوتون!».

– «دعينا من البكاء على مثل هذا الشيء التافه، يا جميلتي، إنَّه اسم ككل اسم آخر أحتاج معه إلى شيء من التعوُّد، هذا كل ما في الأمر وستسير الأمور على سجيتها حين أحفظه عن ظهر قلب!». ثم قال:

«استمعي إذًا يا عزيزتي سيميلار.. إنَّني أُحبُّكِ حتى الجنون. أُحبُّكِ حقًّا حتى ليكاد يكون هذا الحُب معجزة المعجزات، وإنَّني أعرف أنَّ واحدةً من الفتيات ستموت حقدًا وثورة حتى يأتيها نبأ هذا الحُبّ «!».

فقاطعته الفتاة التي لسعتها الغيرة:

«ومَنْ هي؟!».

– «وما يعنينا من هذا؟ هل تحبينني؟».

قالت:

«أوه!!».

«حسنٌ جدًّا! هذا كل ما أريده. وسترين كم أُحبُّكِ.. سأجعلكِ أسعد مخلوق في الدنيا.. سيكون لنا بيت جميل في مكانٍ ما. وأستعرض جنون الرُّماة تحت نافذتكِ، وسأزور معكِ أجمل أماكن باريس».

هذا كلُّه والفتاة سادرة في أفكارها، تحلم على صدى صوته دون أن تفقد شيئًا ممَّا يقول.

وفجأة تلتفت الفتاة نحو «فوبوس»، لتقول في حُبٍّ سرمديٍّ:

«علمني دينك!»

وانفجر القائد ضحكًا، وهو يقول:

«ديني! أُعلمكِ ديني أنا! وماذا تنوين صُنعه بهذا الدين؟!».

أجابت:

«لكي نتزوج».

فاتخذ وجه القائد هيئة امتزجت فيها الدهشة والازدراء واللامبالاة ثم قال:

«ربّاه! وهل سنتزوج؟!».

واصفرَّ وجه الفتاة، وتركت رأسها يهبط حزينًا فوق صدرها، ثم أردف «فوبوس» بحنانٍ بالغٍ:

«ما هذا الجنون أيتها المُحبَّة الجميلة!! إنَّ الزواج شيء كبير..».

هذا كلُّه يدور و«كلود» يرى ويسمع. لقد كانت في الباب المُغلق عليه، شقوق متهرئة عفنة تسمح لنظراته التي كأنَّها نظرات الصقر أن تمرّ عبرها. إنَّ مَنْ يرى وجه هذا البائس الملتصق بسلسلة الأخشاب العفنة، يتوهَّم أنَّ أمامه وجه نمر ينظر من داخل قفصه إلى ثعلبٍ يفترس غزالًا. لقد كانت حدقته تنفجر، كما ينفجر نور المصباح عبر شقوق الباب.

وفى هذه الأثناء شاهد القائد التميمة الخفية التي تحملها الفتاة فوق نحرها، فقال لها:

«وما الذي تحملينه فوق نحرك؟!».

قالت بحماسةٍ شديدةٍ:

«لا تلمسها! إنَّها حارستي. إنَّها هي التي ستتيح لي أن أجد عائلتي التي إن بقيت جديرة بذلك. أوه! اتركني أيها القائد! أمي المسكينة، أمي أين أنتِ تعالي لنجدتي!».

ورجع «فوبوس» قائلًا بلهجةٍ باردةٍ:

«أوه! يا آنستي، يبدو لي أنَّكِ لا تحبينني؟!».

وصرخت الطفلة البائسة المسكينة تقول:

«أنا لا أُحبُّه؟!».

وتعلقت في الوقت نفسه برقبة القائد وأجلسته قريبًا منها.

– «أنا لا أُحبُّك! يا عزيزي فوبوس، ماذا تقول هنا، أيها الخبيث، لتمزق قلبي، أوه! هيا تعال. وما يهمنى من التميمة، وما يعنيني من أمي، إنَّك أنت أمي، لأنَّني أُحبُّك فوبوس..».

ثم استطردت، تقول:

«فوبوس العزيز هل تراني؟ إنَّني أنا مَنْ تُحبُّك، انظر إليَّ سأكون أسعد النساء وأشدهن فخرًا بك. وعندما أصبح عجوزًا أو قبيحةً، حين لا أعود أصلح لحُبِّك، ستحتملني لكي أقوم على خدمتك. هناك أخريات يطرزن لك ثيابك، أمَّا أنا الخادمة، فسأقوم على العناية بها وصيانتها. ستدعني أنظف

ثيابك، وأرفع الغبار عن حذائك العالي. أليس كذلك يا عزيزي فوبوس. هل ستكون لك هذه العاطفة الرقيقة؟!».

كانت الفتاة قد ألقت ذراعيها حول عنق الضابط تنظر إليه من أدنى إلى أعلى، ضارعة، مستجدية..

وفجأة رأت فوق رأس «فوبوس» رأسًا آخر، وجهًا أصفر، أخضر، أحمر، متشنج العضلات، ذا نظرات ملعونة شيطانية، وإلى جانب هذا الوجه تمتدّ يد تحمل خنجرًا مسنونًا، لقد كان الكاهن بيده ووجهه. كسر الباب ودخل إلى الغرفة، أمَّا «فوبوس» فلم يكن قادرًا على رؤيته، وتجمَّد جسد الفتاة، وانعقد لسانها، فصارت خرساء أمام الرؤيا المخيفة الرهيبة.

لقد عجزت عن كل شيء حتى عن الصراخ، ورأت الخنجر يهبط فوق رأس «فوبوس» ثم يرتفع وهو ينزف من جراح ضحيته، قال القائد:

«يا للعنة!!».

وسقط إلى الأرض.

أمَّا هي فقد أُغمى عليها، ووجدت نفسها مُحاطة بجنود الحراسة، حين رجع إليها وعيها. ثم حُمل القائد غريقًا في دمائه. واختفى الكاهن.

وكانت النافذة المطلة على النهر مفتوحة على مصراعيها، والتقطت معطف ظنته أنَّه ملك الضابط، وسمعت قائلًا من حولها يقول:

«إنَّها ساحرة طعنت قائدًا من رجال الحرس!».

بريئة أم مذنبة؟
INNOCENT OR GUILTY ?

كان «جرنجوار» والجميع في بلاط العجائب في قلقٍ شديدٍ، لقد اختفت «الأسميرالدا» منذ شهر وباءت كل محاولات البحث عنها بالفشل الذريع. وكان حزن «جرنجوار» كبيرًا عميقًا.

وبينما كان يتمشى في أحد الأيام، شاهد جماعة من الناس متجمهرة أمام أحد أبواب قصر العدالة، فسأل أحد الشبان:

«ماذا يجرى هنا؟».

فأجاب الفتى:

«لست أدري يا سيدي، يُقال إنَّهم يحاكمون فتاة قتلت جنديًّا من حرس الملك، ويبدو أنَّ وراء هذه الجريمة سِحرًا، وقد تدخل كل من الأسقف ومحكمة التفتيش وكذلك أخي الذي هو كاهن جوزا».

وتوجه «جرنجوار» يتبع الحشد الذي كان يصعد السُّلم الكبير، ثم وصلوا إلى قاعةٍ ظهر فيها عدد من الأشخاص: محامون، وقضاة، ورجال دين.

فسأل «جرنجوار» أحد جيرانه قائلًا:

«مَنْ ذلك التمساح الذي يجلس إلى اليمين؟».

فقال:

«المُعلِّم فيليب لوليا محامى الملك الاستثنائي».

– «ومَنْ هو القطّ الأسود إلى يساره؟».

- «إنَّه المُعلِّم جاك شارمولو وكيل الملك في محكمة الكنيسة».

- «وماذا يصنع كل هؤلاء هنا؟».

- «إنَّهم يُحاكمون امرأة يا سيدي، إنَّها هناك!».

- «وهل تعرف اسمها؟».

- «لا يا سيدي».

وهنا فرض عليهما الجمهور أن يصمتا، فقد كان الناس يستمعون إلى شهادةٍ مهمةٍ.

وقد وقفت امرأة عجوز تبدو وكأنَّها كومة متحركة من الرثاثة وقالت:

«سادتي، إنَّني أملك بيتًا عند جسر سان ميشيل، وفى مساء يوم طرق بابي ففتحت ودخل رجلان. كان أحدهما ملتفًّا بالسواد، وثانيهما ضابط جميل. ولم أكن أرى من الأسود غير عينيه. وقد أعطياني قطعة ذهبية وضعتها في درجي، ثم صعدنا إلى الأعلى ولم أكد أنظر إلى الوراء حتى كان الرجل الأسود قد اختفى. أمَّا الضابط فقد هبط السُّلم ثم عاد برفقته فتاة جميلة، فتركهما وحيدين في المكان.

وفجأة سمعت صراخًا، وصدى سقوط جسم فوق أرض الغرفة، فركضت إلى الشباك، فإذا بي أرى كتلة سوداء تسقط أمامي ثم تنزل الماء. ناديت الحراس. وأنتم تعرفون باقي القصَّة. إنَّ أسوأ ما في الأمر أنَّني فتحت الدرج لآخذ القطعة الذهبية ولكنني لم أجد سوى ورقة جافة!».

فقال التمساح:

«أيتها الشاهدة، هل أحضرتِ معكِ الورقة الجافة التي صارت إليها القطعة الذهبية التي أعطاكِ إيَّاها الشيطان؟».

– «نعم، يا سيدي، ها هي..».

ثم ناولته الورقة التي عرضها على الرئيس، ثم أكملت الورقة دورتها حول الجميع.

فقال «جاك شارمولو»:

«إنَّها برهان جديد على تهمة السِّحر!».

وانتشرت بين الناس دمدمة خائفة.

«رجلٌ أسودُ، العنزةُ، ورقةٌ ذابلةٌ.. إنَّ في ذلك ما ينبئ عن السِّحر!!».

فقال محامي الملك:

«إنَّ الأوراق الثبوتية أيها السادة بين أيديكم، وهى تشير أيضًا إلى شهادة وأقوال فوبوس دي شاتوبار».

وهنا نهضت المتهمة وجاوز رأسها أفراد الجمهور، فعرف فيها «جرنجوار» المذعور، «الأسميرالدا»، كانت باهتة صفراء، شعثة الشعر، وقد غارت عيناها. وراحت تقول:

«فوبوس؟! أين هو؟ يا أصحاب السيادة، أخبروني ما إذا كان حيًّا يعيش قبل أن تقتلوني!».

فأجابها الرئيس:

«اسكتي أيتها السجينة، ليس هذا من شأننا هنا!».

فأردفت:

«رحماكم أخبروني إن كان ما يزال حيًّا يعيش؟!».

قال محامي الملك:

«حسنٌ جدًّا، لقد مات. فهل أنتِ سعيدة؟!».

وتهالكت المسكينة فوق مقعدها مرَّة أخرى، فلا صوت ولا دموع، وبدت بيضاء باهتة كالشمع.

وقام أحد الجنود وهزها بعنفٍ دون رحمة، ورفع الرئيس صوته وقال:

«أيتها الفتاة! أنتِ متهمة، مستعينة بالسِّحر والإغراء بقتل فوبوس شاتوبار فهل تُصرين على إنكار التهمة؟».

وصرخت الفتاة وقد غطت وجهها بيديها:

«يا للفظاعة! يا عزيزي فوبوس، إنَّه الجحيم حقًّا!».

فكرَّر الرئيس:

«هل تصرين على إنكار التهمة؟».

- «نعم أنكرها».

- «كيف تفسرين الوقائع التي تتهمكِ؟»

- «لقد أخبرتكم. لا أعرف.. لا أعرف. إنَّه كاهن! إنَّه الكاهن الذي يلاحقني في كل مكان!!».

فقال «جاك شارمولو»:

«نظرًا لهذا العناد المؤلم، أقترح أن تطبق عليها أساليب التحقيق والتعذيب».

قال الرئيس:

«موافق».

واقشعرَّ جسد الفتاة كلّه، ونهضت وسارت يسبقها «شارمولو»، وكهنة محكمة التفتيش، نحو باب فُتح فجأة ثم أُغلق عليها.

العدالة المزعومة!
ALLEGED JUSTICE!

دُفعت «الأسميرالدا» إلى داخل غرفة مخيفة، مستديرة الشكل بلا نوافذ.

فلا نافذة في هذا الكهف، ولا مخرج له غير باب منخفض مصنوع من الحديد الكثيف. كان في الغرفة موقد مشتعل فيه نار عظيمة.

وكانت هناك ملاقط حديدية، وكماشات، وأعواد، وأسياخ، وأشكال أخرى وضعت في وسط الأتون الملتهب. وعلى الفراش الجلدى في وسط الغرفة كان يجلس «بطرس تورتارو» الجلاد المُحلَّف ومساعدوه.

واقترب «جاك شارمولو» من الغجرية تعلو فمه بسمة رقيقة، وقال:

«يا طفلتي العزيزة، هل مازلتِ تصرين على إنكار التهمة؟».

أجابت:

«نعم».

«إذًا، تفضلي وخذي مكانكِ فوق هذا الفراش.. مُعلِّم بطرس، أخْلِ للفتاة مكانها.. أين الطبيب؟

فأجاب رجل بثوبٍ أسودِ:

«إنَّني هنا».

وتردد صوت وكيل المحكمة للمرَّة الثالثة:

«هل تصرين على إنكار التهم الموجهة إليكِ؟».

فأشارت الفتاة برأسها: «نعم».

– «أنا آسف. لكن عليَّ أن أقوم بوظيفتي».

قال «بطرس» الجلاد فجأة:

«بأي شيء نبدأ يا سيدي؟».

فتردد «شارمولو» قليلًا ثم قال:

«بالحذاء الحديدي».

في هذه الأثناء قام مساعدو الجلاد بتعرية ساق الفتاة بقسوةٍ ووحشيةٍ بالغتين، ودمدم الجلاد وهو يقول:

«إنَّها خسارة حقًّا!»

ثم لم تلبث أن وجدت قدمها حبيسة داخل الحذاء الحديدي، فمنحها الرُّعب شيئًا من القوَّة فصرخت:

«ادفعوا هذا عني! الرَّحمة».

وصرخت في ألمٍ عنيفٍ ونهضت في محاولةٍ لكي ترمى نفسها تحت قدمي وكيل الملك ضارعة، ولكن قيودها الثقيلة حالت دون ذلك، فانهارت فوق الفراش خائرة القوى.

وبإشارةٍ من «شارمولو» ثبتت يدان غليظتان حول خصرها الرقيق حبلًا كان مُعلقًا في وسط السقف. عندئذ سألها «شارمولو»:

«للمرَّة الأخيرة أسألكِ، هل تعترفين بالجرائم التي اتهمتِ بها؟».

«إنَّني بريئة».

- «إذًا، ابدأ يا بطرس».

وأدار «بطرس» مقبض الرافعة، فضغط الحذاء الحديدي فوق قدمها فأطلقت البائسة صرخة مذعورة. فقال «شارمولو»:

«هل تعترفين؟».

وصرخت الفتاة:

«بكل شيء! أنا أعترف، الرَّحمة.. الرَّحمة».

فقال وكيل الملك:

«ترغمني عاطفتي الإنسانيَّة على أن أخبركِ بأنَّ اعترافكِ يعنى الموت الذي تنتظرين».

- «أرجو ذلك!».

ثم هبطت من فوق الفراش الجلدي، معلقة شبه ميتة بالحزام الحديدي الذي رُبط حول خصرها. كان واضحًا أن روحها، بل كل شيء فيها، قد انهار وتحطم.

فقال «شارمولو»:

«اكتب أيها الكاتب»، ثم توجه إلى الجلادين:

«فكوا وثاق السجينة واحملوها إلى قاعة المحكمة».

ثم التفت إلى أعضاء المحكمة الكنسية وقال:

«لقد استبانت العدالة أخيرًا سبيلها».

مشعلٌ من الشمع
BEACOM OF WAX

دخلت الفتاة إلى قاعة المحكمة، باهتة تعرج، فاستقبلتها دمدمة من السرور واللَّذة، فالجمهور كانت لذته بسبب شعوره بالرضى بعد نفاد صبره، هذا الشعور يحس به أمام المسرح عند نهاية الاستراحة الأخيرة للقطعة المسرحية، حتى يرفع الستار وتبدأ النهاية.

وأمَّا القضاة، فقد كانت لذتهم، لذة مَنْ شعر بقرب تناوله لطعام العشاء. وكذلك العنزة التي عبَّرت عن فرحتها بثغائها الرقيق، وهمَّت تلحق بسيدتها لولا أنَّها رُبطت بمقعدٍ خشبيٍّ.

وهبط الليل كاملًا. وأرسلت المصابيح قليلًا من الضياء، بحيث لم تكن جدران القاعة واضحة مرئية. وأُحيطت الأشياء بشيءٍ يشبه الضباب، ثم لم يظهر غير قلة من وجوه القُضاة المثلوجة الميتة، وبدت أمامهم في الطرف الأقصى من القاعة كتلة مبهمة صغيرة من البياض، نائية في القاع المُظلم. لقد كانت تلك الكتلة هي المتهمة.

كانت قد جرَّت نفسها إلى مقعدها، حين جلس «شارمولو» فوق مقعده في أبَّهة ظاهرة. ولم يلبث أن وقف وقال دون أن يُظهر المزيد من الغرور بنجاحه:

«لقد اعترفت المتهمة بكل شيء».

فأردف الرئيس يقول:

«هل اعترفتِ أيتها الفتاة الغجرية بوقائع سِحرك وغدرك بـ «فوبوس دي شاتوبار؟».

فانقبض صدر الفتاة. وسُمع تهدجها الباكي في الظلام.

ثم أجابت هزيلة ضعيفة:

«اعترفت بكل ما تريدون، ولكن اقتلوني سريعًا».

قال الرئيس:

«إنَّ المحكمة مستعدة للاستماع إلى محضر تحقيقك أيها السيد وكيل الملك في محكمة الكنيسة».

وكشف السيد «شارمولو» أمام الأنظار ملفه المُخيف، ثم انطلق يقرأ. وقد كان يشير بيده وهو يتكلم إلى العنزة الصغيرة، التي خيّل إليها وهى تنظر إليه أنَّه يمثل دورًا هزليًّا، فقعدت على مؤخرتها وراحت تقلده بقوائمها ورأسها ذي اللحية الطويلة، في كل ما تجده من حركات وجهه وإشاراته. فكان لهذا الحادث وقع كبير في النفوس. فقُيِّدت قوائم العنزة، ثم تابع وكيل الملك خطابه البليغ، وتم بعد ذلك الاقتراع على القضية برفع القبعات.

لقد كان القُضاة على عجلٍ من أمرهم، وبدأ الناس يرون في الظلام رؤوسًا ترفع عنها قبعاتها جوابًا عن السؤال الرهيب الذي كان يوجهه الرئيس إلى أصحابها بصوتٍ منخفضٍ. أمَّا المتهمة فقد كانت تنظر إليهم، ولكن الواقع أنَّها لم تكن ترى شيئًا أبدًا.

وراح كاتب المحكمة يكتب، ثم حمل الورقة المطوية الطويلة التي كتبها إلى الرئيس، فسمعت البائسة دمدمات الجمهور، وصليل الحراب والرماح، وصوتًا مثلوجًا يقول:

«يا فتاة الغجر ستُحملين ظهر اليوم الذي يختاره مولانا الملك عارية القدمين، وفى عنقكِ حبل فوق عربة أمام الباب الكبير لكنيسة نوتردام، وتُقدمين مشعلًا من الشمع زنته رطلان، ثم تُحملين من هناك إلى ساحة «جريف» حيث تشنقين بمشنقة المدينة، وكذلك عنزتك، وستدفعين إلى مكتب محكمة التفتيش ثلاث قطع ذهبية، تعويضًا عن الجرائم التي ارتكبت من قِبلكِ، جرائم السحر والإغراء والقتل ضدّ شخص السيد فوبوس دي شاتوبار. يرحمكِ الله وليغفر لكِ».

فدمدمت المسكينة تقول:

«أوه! إنَّه حلم جميل»! ثم أحست بأيدٍ قاسية تقودها.

❊ ❊ ❊ ❊

بانتظار الموت
WAITING FOR DEATH

وُضعت «الأسميرالدا» في مخبأ من المخابئ المنسية، خوفًا من أن تجد سبيلًا إلى الهرب، لقد كان قصر العدالة كلُّه جاثمًا فوق رأس هذه المسكينة، كانت هناك ضائعة في الظلمات، مطمورة، مسجونة، مُقيَّدة. إن كل مَنْ يراها هناك جدير أن يجد القشعريرة في جسده، وهو الذي يعرفها فتاة ضاحكة راقصة تحت ضياء الشمس الكبير. كانت باردة كالليل، باردة كالموت، محرومة من نسمة الهواء في شعرها ومن الصوت البشري في أذنها، ومن ضياء النهار في عينيها، مُحطمة، أنهكتها السلاسل. تجمَّعت بجسدها أمام جرَّة وقطعة من الخبز فوق قليل من القش، في مستنقع مائي تشبعت بمياهه جدران الكهف الذي كانت فيه، جامدة لا حراك بها، غائبة حتى لا تتألم أبدًا.

وهي منذ كانت هناك لم تكن تعرف السهر والنوم. ولم تكن قادرة على التمييز بين اليقظة والنعاس، بين الحلم والحقيقة، بين النهار والليل في ذلك المخبأ البائس.

شيءٌ واحدٌ فقط كان يشغل أذنها بصورةٍ آليةٍ: إنَّها الرطوبة التي كانت ترشح عبر الحجارة العفنة على رأسها. لقد كانت قطرة من الماء تنفصل عن هذه الحجارة وتسقط بانتظام. فكانت الفتاة تصغي بصورةٍ بلهاء للصدى الذي كانت تُحدثه هذه القطرة كلَّما سقطت في ماء المستنقع المُتجدِّد إلى جانبها.

لم تكن تعرف كم قضت من الأيام هناك. بل تذكر حُكمًا بالموت صدر في مكانٍ ما ضدّ إنسان من الناس، وأنَّها نُقلت بعد ذلك، وأنَّها استيقظت بعد

نقلها، وسط الليل والصمت الثلجي الرهيب، كانت تزحف على يديها بينما كانت حلقات من الحديد تجز أسفل ساقيها، وسلاسل أخرى ترسل صدى صليلها. واكتشفت أنَّ كل شيء حولها حاجز جذري، وأنَّ ما تحتها أرض تغطيها المياه وكومة من القش.

وأخيرًا، وفي يوم من الأيام في نهارٍ أو ليلٍ، سمعت ضجة أكبر من التي يحدثها الحارس الذي يحمل إليها الخبز وجرَّة الماء في العادة. فرفعت رأسها ورأت شُعاعًا أحمر يمرّ عَبْر الشقوق التي يحدثها باب أو كوة في قُبَّة الكهف. واصطكت «مفصلات»الفتحة الصدئة ودارت فشاهدت مصباحًا ويدًا، والجزء الأسفل لجسدي رجلين. وبهرها النور بشدةٍ حتى أنَّها أغمضت عينيها وبعد أن فتحتهما كان الباب قد أُغلق مرَّة أخرى، ووُضع المصباح فوق الدرجة الحجرية، وبقي أمامها رجل واحد فقط. وكان هذا الرجل مُغطى من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه فلا ترى منه شيئًا. كان شبحًا طويلًا يحس الناظر إليه أنَّ شيئًا يتحرَّك داخل هذا الغطاء، وثبتت نظرها في هذا الطيف دقائق قليلة. لم تتكلم كما لم يتكلم هو أبدًا خلالها، كأنَّهما تمثالان يتقابلان.

وأخيرًا قطعت السجينة الصمت، فقالت:

«مَنْ أنت؟!».

- «كاهنٌ».

فاقشعرت حين سمعت الكلمة والنبرة والصوت.

وتابع الكاهن بصوته الأصم:

«هل أنتِ مستعدة؟».

- «لماذا؟».

- «للموت!».

قالت:

«أوه! هل أصبح قريبًا؟».

- «غدًا!».

ورجع رأسها هابطًا فوق صدرها بعد أن ارتفع في شيءٍ من الفرح ودمعت:

«الأجل بعيد! فما الذي يحول دون أن يكون اليوم؟!»

قال الكاهن بعد صمت:

«إذًا أنت بائسة جدًّا!».

فأجابت:

«أُحس ببردٍ شديدٍ!!».

وأحاطت قدمها بكفيها، وهي حركة عادية تصدر عن البائسين الذين يصيبهم البرد الشديد، كتلك الحبيسة التي رأيناها في حجرة برج رولاند، ثم اصطكت أسنانها.

وبدأ الكاهن ينقل بصره من وراء غطاء رأسه عبر الكهف:

«هذا شيء مخيف، فلا ضوء، ولا نار، والسكن في الماء!!».

فأجابت باندهاشٍ منحها إيّاه البؤس:

«نعم! إنَّ النور هو لكل الناس فلماذا لا يعطونني إلَّا الظلام؟!».

فأردف الكاهن بعد صمتٍ جديدٍ:

«هل تعرفين سبب وجودكِ هنا؟».

– «أرجو الخروج من هنا أيها السيد، فالبرد شديد».

وفجأة انفجرت تبكي كالطفل الصغير:

«أُريد الخروج من هنا يا سيدي، إنَّني خائفة، يلسعني البرد، وفي الكهف حيوانات تزحف عَبْر جسدي كلِّه!».

– «حسنٌ جدًّا.. اتبعيني».

وأخذ الكاهن بذراعها، فسرى في جسدها إحساس بالبرد رُغم برودتها الدائمة، ودمدمت تقول:

«أوه! هذه يد الموت الباردة، فمَنْ أنت إذًا؟!».

ورفع الكاهن غطاء رأسه ونظرت. فإذا به الوجه المتجهم المخيف الذي يتبعها منذ زمن طويل. إنَّه رأس الشيطان الذي ظهر فوق رأس «فوبوس»، إنَّها العين التي رأتها تلمع آخر مرَّة قريبًا من الخنجر.

فصرخت قائلة، وهي تُغطي عينيها بكفيها، وترتجف رجفة متشنجة:

«آه! هذا هو الكاهن!!».

وتركت ذراعيها تهبط يائستين، ثم بقيت جالسة، رأسٌ منخفضٌ، وعينٌ مثبتةٌ في الأرض، خرساءُ، دائمة الارتجاف.

أمَّا الكاهن فبقي ينظر إليها بعين الحدأة التي حوَّمت طويلًا في الفضاء حول قبَّرة مسكينة جاثمة بين سنابل القمح، ثم انقضت فجأة فوق فريستها وتركتها معلقة في براثنها.

راحت تدمدم بصوتٍ خفيضٍ:

«اجهز عليَّ! اجهز عليَّ وأرسل ضربتك الأخيرة!».

قال الكاهن:

يبدو لي أنَّني أُخيفكِ؟!».

فلم تجب.

فكرَّر يقول:

هل أُخيفكِ حقًّا؟!».

فتقلصت شفتاها وكأنَّها كانت تبتسم. وقالت:

«نعم! إنَّ الجلاد يسخر بضحيته. هذه هي شهور تمرّ يلاحقني فيها، ويُهددني، ويُخيفني، كم كنت سعيدة دونه، إنَّه هو الذي ألقى بي في هذه الهوة.. أيتها السماء هذا هو القاتل، إنَّه هو الذي قتل فوبوس الحبيب».

وانفجرت باكية، ثم رفعت عينيها إلى الكاهن:

«أوه! أيها البائس، من أنت؟ وما الذي صنعته لك؟ إنَّك تكرهني، وا أسفاه ما الذي دفعك إلى الحقد عليَّ؟!».

فصرخ الكاهن:

«أُحبُّكِ!».

وفجأة جمَّدت عينيها، وقالت وهي ترتجف:

«أي حُبٍّ؟!».

فأردف:

«حُبّ الشيطان اللعين!.»

ثم استطرد يقول بعد فترةٍ من الصمت:

«أصغي إليَّ.. إنكِ ستعرفين كل شيء، سأقول لكِ ما لم أكن أجرؤ على أن أقوله لنفسي.. لقد كنت سعيدًا قبل أن ألتق بكِ أيتها الفتاة..».

فتنهدت ضعيفة تقول:

«وأنا أيضًا!».

– «لا تقاطعيني، نعم، لقد كنتُ سعيدًا. أو هكذا كنت أظن على الأقلِّ. كنت طاهرًا وكانت روحي مفعمة بالضياء الصافي، لقد كان كبار العلماء يأتون إليَّ فيسألونني ويستشيرونني، كان العلم هو كل شيء عندي. وفي دقائق قليلةٍ كنت أحس أشياء الأرض الكثيفة تهرب مني بعيدًا، فأجد هدوئي سعيدًا طاهرًا صافي الأعماق.. وفي يوم من الأيام كنت مستندًا إلى نافذة حجرتي. فسمعت صدى دفّ وموسيقى نظرت إلى الساحة منزعجًا. كانت فتاةٌ ترقص، عيناها سوداوان، وفي ظلمة شعرها شعيرات تخللتها أشعة الشمس فبدت ذهبية اللَّون فاتنة وقدماها تختفيان في حركتهما.. وفي ضفائر شعرها ومن حول رأسها، صفائح معدنية رقيقة تلمع تحت أشعة الشمس فتبدو تاجًا من النجوم. وذراعاها المرنتان السمراوان تتلاقيان وتتباعدان حول قوامها كمنديلين مجنحين في سماءٍ علويةٍ.

أوه! يا للجسد الرائع الذي يبرز شيئًا مضيئًا حتى في رابعة النهار.. وا أسفاه! أيتها الفتاة لقد كنتِ أنتِ هناك.. وتركت نفسي أنظر إليكِ في إمعانٍ حتى إنَّني شعرت بالقشعريرة تسري فجأة في جسدي كلِّه، لقد أدركت أنَّ القدر الغاشم قد ألقى القبض عليَّ..».

ثم تابع يقول:

«حاولت أن أتعلق بأي شيء أجده وأن أمنع نفسي من السقوط بعد أن سرى السِّحر أو كاد في روحي. وتذكرت الأفخاخ التي طالما وضعها إبليس

أمامي.. ولكن الراقصة كانت تمتلك من الجمال الفائق العجيب ما لا يمكن أن يأتي إلَّا من السماء والجحيم.

لقد كانت ملاكًا ولكنه ملاك من الظلمات، ملاكٌ من النار لا من النور.. رأيت بالقرب منكِ عنزة صغيرة، بهيمة من بهائم السحرة، تنظر إليَّ وهي ضاحكة وشمس الظهيرة تمنحها قرونًا ذهبية، وهنا تبيَّن لي فخ الشيطان، ثم لم أشك بعد ذلك أنَّكِ مصدر ضياعي، وقد آمنت بهذه الحقيقة.

وهنا نظر الكاهن إلى وجه السجينة وأضاف ببرودٍ شديدٍ:

«. . وفي هذه الأثناء أخذت فعالية جمالكِ تعمل في نفسي شيئًا فشيئًا، فرقصكِ يدور عنيفًا في رأسي، وإحساسي بالألم الخفي يتراكم في روحي، ثم أصبحت كمَنْ يموتون في الثلوج أجد لذة في اقتراب النوم الأخير! وفجأة أخذتِ تغنين ماذا كنت أستطيع أن أفعل أيتها البائسة؟ لقد كان غناؤك أروع من رقصكِ أيضًا، حاولت الهرب فتعذر ذلك عليَّ لقد كنت مسمرًا منغرسًا في باطن الأرض..».

واستراح قليلًا أيضًا، ثم تابع:

«نعم! منذ اليوم صرت رجلًا غيري أنا، لم أكن أعرفه من قبل، حاولت التوسل بكل دواء، لقد جننت.. أوه! كم يبدو العلم فارغًا حين نأتيه يائسين، وبرأس مفعم بالأهواء.. أما ولم أستطع التحرُّر من خيالكِ، أما وأن أسمع غنائكِ يطن في رأسي، أمَّا وأنا أرى قدميكِ ترقصان فوق كتاب الصَّلاة، فقد رغبت في رؤيتكِ مرَّة أخرى، في أن أعرفكِ.. فيا لبؤسي إذ لم أكن أراكِ كالمرَّة الثانية حتى رغبت في رؤيتكِ ألف مرَّة، في رؤيتكِ دائمًا أبدًا.. انتظرتكِ تحت حنايا الأبواب، وأراقبكِ عند زوايا الشوارع، والبحث عنكِ من فوق برجي، وفي كل مساء أرجع إلى نفسي أكثر يأسًا وضياعًا. عرفت

أنَّكِ غجرية فكيف أشك في سِحركِ. لقد أحرق أحدهم إحدى الساحرات فشفي من مرضه بعد أن شغف بها حُبًّا. كنت أعرف هذا فرغبت في تجربة هذا الدواء.. حاولت بادئ الأمر أن أُبعدكِ عن ساحة الكنيسة راجيًا أن أنساكِ فيما لو امتنعت عن الرجوع إليَّ، ولكنك لم تفعلي ذلك، في إحدى الليالي كنا اثنين قد أمسكنا بكِ حين تدخل هذا الضابط البائس فحرَّركِ. وأخيرًا وشيت بكِ إلى محكمة التفتيش بعدما فشلت في أن أعرف ما أصنع، وما سأنتهي إليه؟

وهنا بدأت أُخيفكِ حيث التقيتكِ. كانت المؤامرة التي أنظمها ضدّك والعاصفة التي أجمعها فوق رأسكِ تنفجر خارجة من نفسي رعودًا وبروقًا وتهديدات، وفي هذه الأثناء كنت مُتردِّدًا أيضًا، لقد كانت لمشروعي جوانب مُخيفة أتراجع أمامها. كان من الممكن أن أقلع عمَّا عزمت عليه، وكنت أظنّ أنَّ إيقاف هذه الدعوى أو متابعتها متعلق بي، ولكن الفكرة السيئة خطيرة ملحاحة، وهي تحاول أن تكون حقيقة واقعة، فحيث ظننت أنَّني الطرف القوي، كان القدر أقوى مني، وا أسفاه! وا أسفاه!..»

«وفي يوم من الأيام في نهار شمسه كبيرة مضيئة رأيت رجلًا يمرّ أمامي وهو يلفق اسمكِ ضاحكًا، يا للعنة.. وأنتِ تعرفين الباقي..».

وسكت. أمَّا الفتاه فلم تجد غير عبارة واحدة:

«آه! فوبوس العزيز».

قال الكاهن وهو يمسك -عنيفًا- بذراعها:

«لا تنطقي هذا الاسم أبدًا، هذا هو الاسم الذي ضيعنا.. أصغي إليَّ، لقد تبعتكِ إلى غرفة الآلام، وبينما كنت أنظر إليكِ كنت أحمل خنجرًا أضربه في

صدري، وحين أرسلتِ صرختكِ الأولى غرسته في لحمي، أمَّا بعد الصرخة الثانية فقد دخل إلى قلبي انظري...».

وتراجعت السجينة خوفًا ورعبًا.

فزحف الكاهن نحوها على ركبتيه وصرخ:

«أتضرع إليكِ! لا تدفعيني إذا كان لكِ قلب، أوه! كم نستطيع أن نكون سعداء، إنَّنا سنهرب، ننطلق إلى مكانٍ ما، نبحث عن الأرض التي تحظى بالنصيب الأكبر من نور الشمس، أو الأشجار الخضراء، والسماء الزرقاء سنمزج روحينا معًا..».

فقاطعته الفتاة بقهقهةٍ مُخيفةٍ، وهي تقول:

«انظر، إنَّ تحت أظفارك دمًا !!».

ولبث الكاهن قليلًا جامدًا ينظر إلى يديه، ثم قال، أخيرًا برقةٍ بالغةٍ:

«أهينيني! اسخري بي! ألقي عليَّ ما تشائين! ولكن تعالي تعالي لنسرع سينزل القضاء بكِ، إنَّها مشنقة جريف، هل تعرفينّ؟ وإنَّه شيء رهيب أنْ أراكِ محمولة فوق هذه العربة، أوه! رحماكِ! اتبعيني سيكون لكِ في الوقت ما تشائين لتحبيني بعد أن أنقذكِ وستكرهينني طويلًا كما ترغبين أيضًا ولكن تعالي.. غدًا! غدًا المشنقة! عذابكِ الرهيب، أوه! أنقذيني لا تتركيني أقع في الهاوية..».

قال الكاهن وهو يتحسس ذراعها.

«آه! إنكِ قاسية خالية من الشفقة !».

وردَّدت ببرودٍ قائلةٍ:

«ماذا أصاب فوبوس؟!».

صرخ الكاهن قائلًا:

«لقد مات!!».

فقالت بصوتٍ دائم الجمود والبرود:

«مات! فلِمَ تُحدثني إذًا عن الحياة؟!».

أمَّا الكاهن فلم يكن يسمعها بل قال يُحدث نفسه:

«نعم! يجب أن يكون ميتًا. لقد نفذ الخنجر بعيدًا في أعماقه، وفي ظني أنَّني قد أصبت قلبه، لقد كنت أعيش حتى طرف الخنجر!».

وألقت الفتاة نفسها فوقه، وكأنَّها نمرة غاضبة، ثم دفعته نحو درجات السُّلم بقوَّةٍ غير ضعيفة، ثم قالت:

«اغرب عني أيها الوحش! اغرب عني أيها القاتل! دعني أموت وليترك دمانا نحن الاثنين في جبهتك ملطخة خالدة! لن يجمعنا شيء أبدًا، حتى الجحيم! اغرب عني أيها الملعون أبدًا! لن أكون لك!!».

وتعثر الكاهن فوق درجات السُّلم، ثم أخرج قدميه صامتًا في ثنايا ردائه، وحمل مصباحه، وراح يصعد وئيدًا الدرجات التي تقود إلى الباب، ثم فتحه وخرج.

وفجأة رأت الفتاة رأسًا يبرز مرَّة أخرى، وفي قسماته تعبير مُخيف وصرخ في حشرجة الغيظ واليأس:

«قلت لكِ إنَّه قد مات!!».

وسقطت يصطدم وجهها بالأرض، فلم يسمع بعد ذلك في الكهف غير صدى قطرة ماء التي تنداح لها مياه المستنقع في أعماق الظلمات.

الحذاء الصغير
SMALL SHOE

رغم اختفاء الطفل وذهاب صوره الحلوة الرقيقة، هي تعتقد أنَّها تراه، وهي تراه حقًّا كاملًا، حيًّا، مرحًا، بيديه اللطيفتين، ورأسه المستدير، وشفتيه الطاهرتين، وعينيه الصافيتين. إنَّه هنا يزحف فوق البساط، ويتسلَّق مقعدًا منخفضًا في جهدٍ بالغٍ والأمّ ترتجف خوفًا من أن يصل إلى النار. وإذا كان الصيف يحمل نفسه إلى الباحة في الحديقة، ينتزع العشب من بين بلاطات الأرض، وينظر بريئًا إلى القط والكلاب والخيول الكبيرة دون خوف أو وجل، يتسلى بالأصداف والأزهار، ويدفع البستاني إلى انتهاره حين يجد ترابًا فوق المماشي والردهات، كل شيء يضحك ويلمع، وكل شيء يلعب من حوله حتى أنَّ أنفاس الهواء وأشعة الشمس تتزاحم في حلقات شعره الطائشة. وتُحبّ الأمّ هذا كلَّه في الحذاء فيذوب قلبها كما يذوب الشمع أمام النار.

أمَّا حين يضيع الطفل نهائيًا فإنَّ هذه الآلام من صور المرح والجمال تتجمَّع حول الحذاء الصغير، تصبح أشياء رهيبة مخيفة، ويصبح الحذاء المطرز الجميل آلة تعذيب تسحق قلب الأمّ أبدًا.

وفي صباحٍ، بينما كانت شمس مايو(آيار) ترتفع في سماءٍ عميقة الزُّرقة، سمعت حبيسة برج رولاند صدى عجلات تمر، وصهيل خيول، وصليل حديد في ساحة «جريف»، فلم تستيقظ إلَّا قليلًا، ثم عقدت شعرها حول أذنيها لكي لا تسمع، وراحت جاثية على ركبتيها تتأمَّل الشيء الجامد الذي

كانت تتعبد له كذلك منذ خمس عشرة سنة. لقد كان الحذاء بالنسبة لها الوجود كلَّه. قد أغلق فكرها على نفسه فيه فلا تخرج به منه إلَّا بالموت.

كان ألمها يبدو في هذا الصباح أشدّ عُمقًا ممَّا هو في العادة، كانت تقول نادبة نفسها بصوتٍ مرتفعٍ رتيب ببعض الأسى في القلوب:

«آه! يا ابنتي! يا طفلتي المسكينة العزيزة، هل لن أراكِ أبدًا، لقد انتهى إذًا كل شيء، يُخيل إليَّ أن كل ما أصابكِ قد حدث أمس فقط! يا إلهي! يا إلهي أما وأنت تريدها بمثل هذه السرعة، فقد كان حقك عليَّ ألَّا تعطيني إيَّاها، آه! كم أنا بائسة إذ خرجت في ذلك النهار إلهي! إلهي.. كنت أدفئها فرحة قرب النار، تبتسم لي وهي ترضع، لم تنظر إليَّ وأنا أرفع قدميها إلى صدري ثم أبلغ بهما شفتي، وا أسفاه ! هاك هو الحذاء! ولكن أين هي القدم؟ أين الباقي؟ بل أين الطفل كلُّه، يا بنيتي! ما الذي صنعوه، أعدها إليَّ يا إلهي. لقد قضيت خمسة عشر عامًا أصلي لك راكعة على ركبتي الداميتين.. أعدها إليَّ يومًا واحدًا، أو ساعةً واحدةً، بل دقيقةً واحدةً فقط يا سيدي وإلهي.. أوه! لو كنت أعرف أين أجد طرف ردائكِ لتعلقت به بيدي هاتين، هذا هو حذاؤها الجميل الصغير، أفلَا تشفق عليَّ يا إلهي! أيتها العذراء الطيبة! يا عذراء السماء إن طفلي قد أُخذ مني، لقد سُرق وشُرب دمه، أيتها العذراء الطيبة أشفقي عليَّ.. إنَّها ابنتي! أريد ابنتي.. أوه! سأتلوى فوق الأرض، وسأحطم الحجر بجبيني، وسألعن نفسي.. أوه! لو أستطيع فقط مرَّة واحدة أن أضع قدمها الوردية الصغيرة الجميلة في هذا الحذاء ثم أموت.. أيتها العذراء الطيبة.. وأنا أباركِ.. كم يؤلمني أن أقول: هاك حذاءها ثم لا يكون شيء وراء ذلك!!» .

وألقت البائسة نفسها فوق هذا الحذاء، فهو عزاؤها الوحيد منذ سنين طويلة، إنَّ آلامها لا تُهزم أبدًا.. وهناك بلغتها أصوات أطفال مرحة صافية فكانت كلَّما سمعت هذه الأصوات تقفز نحو أشد الزوايا قبرها ظلمة وقتامة حتى ليُقال إنَّها تحاول الغوص في الحجر لكي لا ترى ولا تسمع. أمَّا في هذه المرَّة فقد حدث العكس، لقد نهضت وكأنَّها تقفز قفزًا، وأَصغت متعطشة إلى الأصوات. كان أحد الأطفال يقول: «ستشنق اليوم فتاة غجرية».

وركضت المسكينة نحو كوتها التي تطل على ساحة «جريف» في سرعة العنكبوت، والواقع أنَّ سُلمًا نصب قريبًا من المشنقة الدائمة، وقد انهمك العامل المختص في ضبط وتهيئة السلاسل الصدئة بفعل حياة الأمطار وكان هناك من حولها بعض الناس.

وابتعد الأطفال وحاولت الحبيسة بعينيها البحث عمنْ تستطيع أن تسأله الخبز، فشاهدت قريبًا من كهفها كاهنًا يتظاهر بقراءة كتاب الصَّلاة العمومي، ولكن انشغاله بالمشنقة بدا أعظم كثيرًا من انشغاله بصلوات الكتاب. كان يوجه نحوها بين فترة وأخرى نظرة قاسية مظلمة. فعرفت فيه كاهن جوزا، الرجل القديس. فسألته:

«مَنْ سيشنقون يا أبي؟».

فنظر الكاهن، ثم لم يجب، وقال بعد أن كرَّرت سؤالها:

«لا أدري!!».

– «لقد سمعت أطفالًا يقولون إنَّها غجرية؟!».

قال الكاهن:

«أظن ذلك!».

وهنا انفجرت «باكيت لا شانت فلوري» بقهقهةٍ كقهقهة الفهد.

قال الكاهن:

«وإذًا فأنتِ تكرهين الغجريات؟!».

فصرخت الحبيسة:

«نعم! إنِّي أكرههن، إنَّهن ساحرات، سارقات للأطفال قد افترسن الصغيرة، طفلتي! طفلتي الوحيدة! لم يعد لي قلب، لقد أكلنه». لقد كانت مُخيفة. أمَّا هو فكان ينظر إليها ببرود.

– «هناك واحدة أكرهها بصورة خاصَّة، وقد لعنتها، إنَّها فتاة شابة، لها عُمْر ابنتي الآن لو لم تأكلها أمُّها. وكلَّما مرَّت هذه الأفعى بالقرب من حجرتي بعثت في دمائي القلق والاضطراب».

قال الكاهن باردًا كتمثالٍ:

«حسنٌ جدًّا يا أختاه! استمتعي إنَّها هي التي سترينها تموت اليوم!».

وهبط رأسها فوق صدرها، وابتعد هو بطيئًا وئيدًا.

وضمت الحبيسة ذراعها فرحة مرحة:

«لقد تنبأت لها بذلك ياسيد الكاهن، فشكرًا لك» .

وأخذت تروح وتجيء بخطواتٍ واسعةٍ أمام عوارض الكوة، بشعرٍ متناثرٍ، وعين لاهبة، تصدم الجدار بكتفها وهي في هيئة ذئبة وحشية جائعة في قفصها منذ زمن طويل، وقد شعرت باقتراب موعد تناول الطعام.

ثلاثة رجال حول الساحرة
THREE MEN ON THE CHARMING

لم يكن الضابط «فوبوس»في تلك الأثناء ميتًا. وعندما قال المُعلِّم «فيليب لوليا»محامي الملك الاستثنائي لـ «الأسميرالدا» المسكينة إنَّه مات، فقد أخطأ، أو قصد المِزاح. أمَّا حين ردّ الكاهن على السجينة بقوله: «إنَّه مات»، فالواقع أنَّه لم يكن يعرف الحقيقة، إلَّا أنَّه كان يُريد هذا الموت، ويؤمن به، وينتظره ويرجوه. كان شديدًا عليه أن يحمل إلى المرأة التي يُحبّ أخبارًا طيبة لغريمه.

ولا يعني هذا أنَّ جرح «فوبوس» لم يكن خطيرًا، لكن خطورته أقلّ ممَّا يتصوَّر الكاهن، لقد تغلب الشاب، وأنقذت الطبيعة هذا المريض تحت سمع الطبيب وبصره. وقد خضع لتحقيقات «فيليب لوليا» الأولى، ثم تحقيقات محكمة التفتيش ولم ينهض من فراشه بعد، ممَّا أزعجه إزعاجًا شديدًا. وفي صباح يوم من الأيام ابتعد هاربًا. فلم يُسبِّب هذا الهرب أي بطء في سير التحقيقات، إذ لم تكن العدالة آنذاك شديدة الاهتمام بوضوح الدعوى القضائية ونظافتها، شرط أن يُشنق المتهم، هذا هو كل ما يجب لها وتلتزم به. وعلى ذلك فقد كان بين يدي القضاة ما يكفي من الإثباتات لإدانة «الأسميرالدا»، وظنوا «فوبوس ميتًا».

و«فوبوس» لم يهرب بعيدًا، لقد التحق بفرقته التي كانت تُعسكر على بُعد قليل من باريس. لقد كان «فوبوس» قليل الورع، شديد التمسُّك بالخرافات، شأنُه شأن كل جندي لا يكون إلَّا جنديًا. وحين كان يسأل نفسه عن هذه المُغامرة، لا يحس بالاطمئنان إلى العنزة، إلى الطريقة الغريبة التي لقي بها

«الأسميرالدا»، إلى الأسلوب الذي أعلنت به الفتاة الغجرية إليه عن حُبِّها، عن صفتها الغجرية، وأخيرًا لم يطمئن إلى الكاهن الشرير.

كان يرى في هذه القصَّة السحر أكثر ممَّا يجد من الحُبِّ، قد تكون هذه الفتاة ساحرة في نظره، وقد تكون هي الشيطان، إنَّها مهزلة، سحرٌ بشعٌ قبيح دوره فيه هو البله، فكان القائد من ذلك في خجلٍ دائم. وكان يرجو ألَّا تترك هذه القضية ضجة في الخارج، وألَّا يتردد اسمه كثيرًا وهو الغائب دائمًا عن مسرح القضية، وهنا لم يُخطئ ظنّه.

لقد أراح «فوبوس»ضميره بشأن «الأسميرالدا» الجميلة، ومنذ خلا قلبه من ذكرى الغجرية، رجعت صورة «فلور دو لي» إليه.

وبما أنَّ «فلوردولي» كانت موضوع هواه قبل الهوى الأخير، وهي فتاة جميلة، ذات مهر دسم كبير، فقد وصل الفارس المُحبّ، وحصانه يقفز فرحًا إلى باب منزل «جوندو لوريا»، بعد أن شُفي تمامًا، وظنّ أنَّ قضية الفتاة الغجرية قد نُسيت حتمًا بعد مرور شهرين متتابعين.

وهنا ربط حصانه بحلقةٍ في الباب، ثم صعد فرحًا نحو خطيبته التي كانت معها أمّها فقط، بينما لم يلقِ بالًا إلى مجموعةٍ كبيرةٍ من الناس تجمَّع أفرادها في ساحة «بارفيس»أمام باب نوتردام الكبير.

كانت ذكريات هذه الساحرة، وعنزتها وألعابها الملعونة، وغياب «فوبوس» الطويل، ثقيلة على قلب «فلوردولي»، ولكنها لم تكد تراه بوجهه الجميل، وثوبه الجديد، وأسلحته اللَّامعة، وغرامه الظاهر، حتى اصطبغ وجهها بحُمرة السرور واللَّذة. وكانت الآنسة الجميلة أجمل ما يكون الجمال، كان شعرها الأشقر مضفورًا ضفائر مُغرية رائعة، وكانت تلبس ثوبًا ذا زُرقة سماوية يُناسب البيضاوات من الفتيات، وعيناها غائمتان في الاسترخاء الغرامي الذي يناسبها أيضًا.

كانت الفتاة جالسة بالقرب من النافذة، تُطرز، والقائد يقف مستندًا إلى مسند كرسيها، وهي توجه إليه لومها بصوتٍ خافتٍ.

- «ما الذي أصابك أيها الخبيث خلال الشهرين الماضيين؟!».

فأجاب «فوبوس»، وقد أحرجه قليلًا هذا السؤال:

«أقسم لكِ أنَّك جميلة، أنَّكِ لتُدرين رأس الأسقف نفسه!».

فلم تستطع الامتناع عن الابتسام، ثم قالت:

«هذا حسن جدًّا أيها السيد، دع جمالي جانبًا، وأجبني!».

- «الحقيقة يا ابنة عمّي العزيزة أنَّني قد استدعيت إلى المُعسكر».

- «وأين هو المعسكر؟ ولِمَ لم تأت لتودعني؟!».

وبعد سلسلة من الأسئلة والإجابات، قال لها:

«أُعلمكِ يا ابنة عمّي الجميلة أنَّني كنتُ مريضًا».

فأردفت، مذعورة، تقول:

«مريضٌ!!».

- «نعم، لقد جُرحت».

- «جُرحت!!».

وأُصيبت الطفلة بانزعاجٍ شديدٍ.

فحاول «فوبوس» أن يُهدئ من روعها:

«أوه! لا يزعجنكِ هذا كلَّه، إنَّه خلاف، أعقبه تبادُل ضربات بالسيف، فما الذي يعنيكِ من هذا الأمر؟!».

وصرخت «فلور دو لي» ، تقول وقد امتلأت عيناه بالدموع:

«ماذا يعنيني من هذا الأمر؟! أوه! إنَّك لا تعني ما تقول! ما قصَّة هذا السيف؟ أُريد أن أعرف كل شيء؟».

فقال «فوبوس»:

«حسنًا جدًّا يا جميلتي، لقد وقع نزاع بيني وبين ملازم واستعنا بالسيف لحسمه، فترك كل منا في الآخر جروحًا في جلده، هذا هو كل ما في الأمر».

لقد كان القائد الكاذب يعرف أنَّ الدفاع عن الكرامة هو الأسلوب الوحيد الذي يبرِّر به الرجل أفعاله أمام المرأة.

أجابته:

«أرجو أن تكون شُفيت تمامًا يا عزيزي فوبوس».

ثم صرخ ليُغيِّر وجهة الحديث:

«ما هي هذه الضجة في ساحة بارفيس؟!».

واقترب من النافذة:

«أوه! يا إلهي، هناك أُناس كثيرون في الساحة!!».

قالت «فلور دو لي» :

«لستُ أدري، الظاهر أنَّ هناك ساحرة ستقبل نحو الكنيسة لتُقدِّم قربانها إليها في هذا الصباح، ثم تُشنق بعد ذلك!».

كان القائد يظنّ أنَّ قصَّة «الأسميرالدا» قد انتهت منذ زمن بعيد، ولذلك لم ينفعل إلَّا قليلًا بما سمع من أقوال «فلور دو لي» ، وفي هذه الأثناء ألقى عليها سؤالًا واحدًا أو سؤالين:

«ما اسم هذه الساحرة؟!».

- «لستُ أدري!».

– «وماذا يُقال عمَّا فعلته؟!».

فهزت أيضًا كتفيها البيضاويين، وقالت:

«لستُ أدري!».

ثم قالت الأمّ:

«أوه! يا إلهي، لقد كثر السحرة اليوم، حتى أنَّهم يُحرقون، أو يشنقون دون أن تعرف أسماؤهم!».

ثم قالت، وقد نهضت متوجهة للنافذة:

«أوه! يا للسيد المسيح، إنَّك على حق يا فوبوس، الناس اليوم كثيرون جدًّا، وهم منتشرون حتى فوق سطوح المنازل!».

وبعد فترة صمت، قالت «فلور دو لي» فجأة:

«يجب أن نتزوج يا فوبوس خلال ثلاثة أشهر، فأقسم لي أنَّك لم تُحبّ امرأة غيري أبدًا!».

فأجابها «فوبوس»، وقد انضمت نظراته إلى لهجة الإخلاص في صوته لطمأنة «فلور دو لي»:

«أُقسم لكِ يا ملاكي الجميل».

شعرت «فلور دو لي» بالحرِّ، فجرت نحو النافذة، وفتحتها، وقفزت إلى الشرفة، فتبعها «فوبوس».

كانت ساحة بارفيس التي تطل على شرفة البيت تزخر بالجماهير. كانت أبواب الكنيسة مُغلقة، بينما كانت نوافذ البيوت وأبوابها مفتوحة كلّها، وقد برزت خلالها ألوف الرؤوس المتراكمة، ينتظرون مشهدًا من أبشع المشاهد وأقبحها على الإطلاق. كان في هذه الجماهير من القهقهات أكثر ممَّا كان فيها من الصراخ، وكان فيها من النساء أكثر ممَّا كان فيها من الرجال.

كانت «فلور دو لي» تقول:

«يا إلهي! كم هي مخلوقة بائسة!».

ثم بدأت ساعة نوتردام تدق هادئة بطيئة مُعلنة حلول وقت الظهر. وانفجرت دمدمة رضى بين الناس، ثم ارتفع صوت هادر جماعي كبير من أرض الساحة والنوافذ والأسطح، يقول:

«ها هي!».

ووضعت «فلور دو لي» يديها فوق عينيها كي لا ترى شيئًا.

قال «فوبوس»:

«هل تريدين الدخول إلى البيت أيتها الجميلة؟».

فأجابت:

«لا!».

ثم فتحت عينيها فضولًا، بعد أن أغمضتهما خوفًا ورُعبًا.

لقد أقبلت عربة يجرها جواد نورماندي ضخم، تواكبه كوكبة من الفرسان بثياب بنفسجيةٍ وصلبانٍ بيضاء، وأخلى جنود الحراسة ممرًّا في أرض الساحة لهم بقوَّة أسواطهم، وعصيهم. كما كان يُرافق العربة فريق من ضباط العدالة والشرطة، وعلى رأسهم المُعلِّم «جاك شارمولو» Jacques Charmalue.

وقد جلست في العربة الملعونة فتاة قُيِّدت ذراعاها إلى ما وراء ظهرها، دون أن يكون الكاهن إلى جانبها.

لقد كانت في قميصها، وكان شعرها منسدلًا فوق عنقها وكتفيها العاريتين، وقد جرت العادة آنذاك ألَّا يُقصّ شعر المُجرم إلَّا في ظل المشنقة.

كان يُرى خلال هذا الشعر المتموج، حبلٌ غليظٌ ملتو مُنعقد شديد الخشونة، قاتم اللَّون، يترك آثارًا دامية في نحر الفتاة، ويتعلَّق كدودة الأرض

التي تتعلَّق بوردةٍ رقيقةٍ. وكانت تُلمح فيما دون الحبل تميمة من الزجاج الأخضر سُمح لـ «الأسميرالدا» بحملها؛ لأنَّ السائر إلى الموت لا تُرفض له أيّة رغبة من رغباته. أمَّا المُشاهدون الواقفون إلى وراء النوافذ وفوق الأسطح فقد كان بإمكانهم أن يروا ساقيها عاريتين تحاول المسكينة، بدافع من غريزتها أن تُخفيهما عن الأنظار. وعند قدميها تبدو عنزة مُقيَّدة، والفتاة تُمسك بأسنانها القميص التي حزمت حول جسدها حزمًا رديئًا.

قالت «فلور دو لي».:

«يا للمسيح! انظر يا ابن عمّي الجميل، إنَّها الغجرية الكريهة، ذات العنزة!».

والتفتت إلى «فوبوس»، وهي تتكلم. لقد كان مثبتًا نظره في العربة، وكان باهتًا، شديد الصُّفرة.

قال في تمتمةٍ متعثرةٍ:

«أيَّة غجرية ذات العنزة؟!».

فأردفت «فلور دو لي»، تقول:

«كيف؟ أفلا تذكرها؟!».

فقاطعها قائلًا:

«لستُ أدري ما تقصدين؟!».

ثم قالت له:

«ماذا بك؟ يكاد الرائي يظنّ أنَّ هذه المرأة قد أقلقتك وأهاجتك؟!».

فحاول «فوبوس» أن يبتسم ويسخر:

«أنا!، أبدًا! لا شيء من ذلك!».

فأردفت:

«ابق إذًا! ولننتظر حتى النهاية!».

وأُرغم «فوبوس» البائس على البقاء. وممَّا يطمئنه قليلًا، أنَّ الفتاة لم تكن ترفع نظرها عن أرض العربة. إنَّها «الأسميرالدا» بالذات كانت دائمًا، حتى في أشدِّ درجات البلاء والمهانة جميلة، بالغة الروعة، قد بدت عيناها السوداوان الكبيرتان أكبر وأوسع بسبب هُزال وجنتيها.

كانت المسكينة منهارة ومُحطمة تحت وطأة اليأس والخوف، جسدها يتقلقل فوق العربة الخشبية كشيءٍ ميت أو مُحطم. ونظراتها محزونة ومجنونة، وفي حدقتها دمعة تأبى السقوط.

وفي هذه الأثناء كان الموكب المكتئب قد اخترق صفوف الناس، وسط عواصف من الهتافات الصارخة، ومواقف الفضول الغريبة. والحق أنَّ كثيرين من الناس قد سرى الإشفاق إلى قلوبهم، بل إلى قلوب أشدّهم قسوةً وعنتًا، حين رأوها بمثل هذا الجمال الفائق، والانهيار المُطبق.

ودخلت العربة إلى ساحة الكنيسة، ثم توقفت أمام الباب الكبير، اصطف الفرسان من الجانبين، وصمت الناس، ثم انفتح الباب على مصراعيه وئيدًا هادئًا. وهنا بدت في الكنيسة العتيقة القاعة الحزينة على امتدادها كلّه لا تكاد تضيء إلَّا بقليلٍ من الشموع ذات الشعاع المتذبذب والموضوع بعيدًا فوق المذبح.

وقد انطلق من الكنيسة بعد أن فُتح الباب نشيد وقور متفجر رتيب، كان النشيد الذي يُتلى فوق رأس هذه المخلوقة المُفعمة بالشباب والحياة، هو نشيد الموت.

أمَّا البائسة الخائفة، فقد كانت تبدو وكأنَّها أضاعت فكرها وبصرها في أحشاء الكنيسة المُظلمة. كانت شفتاها تتحرَّكان كأنَّهما تُصليان. وعندما

اقترب مُعاون الجلاد ليُساعدها على الهبوط من العربة، سمعها تُردِّد بصوتٍ منخفضٍ هذه الكلمة: «فوبوس».

وفُكت يداها، وانزلقت من العربة ترافقها عنزتها التي فُكت قوائمها أيضًا، فراحت تثغو فرحة حين شعرت برجوع حريتها إليها، ثم تُركت الفتاة تمشي حافية فوق البلاط الخشبي حتى أدنى درجات الباب الكبير، أمَّا الحبل المعقود حول عنقها فكان ينسحب وراءها تسحُّب أفعى تلاحقها.

ثم انقطع نشيد الموت، وبدأ صليبٌ ذهبيٌّ يُرافقه موكب كبير من الشموع يتحرّك في الظلِّ، ثم لم يلبث أن وجد الجمهور أمامه صفوفًا من الكهنة، بثيابهم المرقشة تتقدَّم وتمتد وهم ينشدون نشيدًا قاتمًا وقورًا، أمَّا الفتاة فقد توقف نظرها عند أوَّل كاهن كان يترأس الموكب وراء الصليب الذهبي، وقالت، وهي ترتجف:

«أوه! إنَّه الكاهن أيضًا!».

والواقع أنَّه هو الكاهن نفسه، كان إلى يساره المُرتل المُعاون، وإلى يمينه المُرتل نفسه يحمل عصاه رمز وظيفته، كان يتقدَّم ورأسه منقلب إلى الخلف، وعيناه مفتوحتان ثابتتان ينشد بصوتٍ قويٍّ.

ولم يكد يبلغ الضوء الذي يبدو في أنظار الناس باهتًا شديد الصُّفرة، حتى تساءل البعض عمَّا إذا لم يكن هذا الكاهن واحدًا من أساقفة الرّخام الراكعين فوق الأحجار القبرية، وقد نهض يستقبل عند عتبة القبر تلك التي كانت تسير إلى الموت.

أمَّا الفتاة، ولم تكن أقلّ اصفرارًا أو جمودًا منه، فإنَّها لم تكن تصغى إلى الصوت الناعم، صوت كاتب المحكمة الذي يقرأ مرسوم التكفير، حين طلب منها أن تقول:

«آمين»، فأجابت: «آمين».

ثم اقترب الكاهن منها بطيئًا، ثم قال بصوتٍ مرتفعٍ:

«أيتها الفتاة هل سألتِ الله أن يعفو عن خطاياكِ وتصرُّفاتكِ المُنحرفة؟».

ثم انحنى فوق أذنها، وأضاف ـ والناس يظنون أنَّه يستقبل اعترافها الأخير ـ

- «مازلت قادرًا على تخليصكِ؟!!»

فنظرت إليه بعينٍ ثابتةٍ، وسألته:

«ماذا صنعت بـ «فوبوس» حبيبي؟!».

فقال لها الكاهن:

«لقد مات!».

وفي هذه اللَّحظة بالذات رفع الكاهن البائس بطريقةٍ آليةٍ في الطرف الآخر من الساحة، فوق شرفة آل «جوندو لوريا» القائد نفسه، واقفًا بالقرب من «فلوردولي»، فتأرجح، ومرَّر يده فوق عينيه، ثم نظر أيضًا، ودمدم يلعن بصوتٍ خافتٍ، وتقلَّصت قسمات وجهه بعنفٍ شديدٍ. وهنا رفع يده فوق الغجرية وصرخ بصوتٍ جنائزي، يُرتل العبارة التقليدية التي ينتهي بها هذا الحفل، ثم أدار ظهره، وهبط رأسه فوق صدره، وتصالبت ذراعاه، فالتحق بموكب الكهنة، واختفى بعد قليل مع الصليب والشموع تحت حنايا الكنيسة الضبابية.

وكانت أسلحة الجنود السويسريين، التي تنطلق متباعدة، ثم تختفي شيئًا فشيئًا، تحت قبَّة أعمدة الكنيسة، تبدو وكأنَّها الساعة التي تدق آخر لحظات الفتاة الأخيرة.

والظاهر أنَّ الفتاة البائسة قد استشعرت، وهي تصعد مرَّة أخرى إلى العربة أسفًا شديدًا قاهرًا على الحياة، استشعرت هذا كلَّه وهي تسير إلى محطتها الأخيرة.

لقد رفعت عينيها الحمراوين الجافتين نحو السماء، نحو الشمس، نحو السحب الفضية التي تشكَّلت هنا وهناك أشكالًا متنوعةً متباينةً، ثم خفضتهما تنظر إلى ما حولها، إلى الأرض، إلى الناس، إلى المنازل..

وفجأة، وبينما كان الرجل ذو الزي الأصفر يُقيد لها مرفقها، أرسلت صرخة رهيبة، صرخة فرح وحبور.

لقد رأت فوق الشرفة هناك عند زاوية الساحة، رأته هو، صديقها، سيدها، «فوبوس» نفسه، رؤيَا حياتها الثانية، لقد كذب القاضي، وكذب الكاهن، إنَّه هو نفسه، لا يسعها أن تشك في ذلك أبدًا.

وصرخت كالمجنونة:

«فوبوس! فوبوس الحبيب!».

ورغبت أن تمدَّ ذراعيها الراجفتين نحوه، مُعبِّرة عن عظيم فرحها، ولكنهما كانتا مُقيَّدتين.

وهنا رأت الضابط يُقطب جبينه، ورأت بالقرب منه فتاة متكئة عليه، تنظر إليها بشفقةٍ مُزريةٍ، وعينين ثائرتين، فأطلق «فوبوس» كلمات لم تسمعها المسكينة، واختفى كلاهما فجأة وراء حاجز الشرفة الزجاجي، الذي انغلق بعدها.

وأردفت صارخة:

«فوبوس! هل تصدقه؟!».

وبدت لها فكرة بشعة، لقد تذكَّرت أنَّها حكمت بالموت جزاء اقترافها جريمة القتل في شخص «فوبوس دي شاتوبار»، كانت قد احتملت كل شيء حتى الآن، ولكن هذه الصدمة الأخيرة كانت شديدة القسوة، فسقطت فوق بلاط الساحة جامدة لا حراك بها.

قال «شارمولو»:

«هيا! احملوها إلى العربة ودعونا ننتهي منها!!».

الواقع أنَّ أحدًا من الناس لم ير في ردهة تماثيل الملوك المنحوتة مباشرة فوق حنايا الباب الكبير، مُشاهدًا غريبًا، قد تفحَّص الأمر كلَّه، ببرودٍ فائقٍ، ووجه بشع مُخيف، والذي يكاد يظنه الراءون لولا ثوبه بلونيه الأحمر والبنفسجي، واحدًا من هذه الوحوش الحجرية التي نخرج من أشداقها مزاريب (قنوات تسريب المياه) الكنيسة منذ ستمائة سنة. إنَّه لم يكن يغفل شيئًا ممَّا حدث منذ الظهيرة أمام الباب الكبير. وقد ربط ـ منذ الفترات الأولى دون أن يتنبه إليه أحد ـ حبلًا بواحدةٍ من القوائم الحجرية، ثم دلاه حتى بلغ أرض الفناء، وبعد الانتهاء راح يُصفر من وقتٍ إلى آخر، حين كان يمرّ به طير من الشحرور.

وفجأة قفز فوق حاجز الردهة، بينما كان مُعاونا الجلاد يُحاولان حمل الفتاة إلى العربة، عملًا بأوامر «شارمولو»، فأمسك الحبل بقدميه وركبتيه ويديه، ثم انزلق فوق شرفة الكنيسة، كما تنزلق قطرة ماء من المطر فوق لوح زجاجي، وركض نحو الجلادين بسرعة قطّ، هابط من أحد السطوح، ثم ألقى بهما ممددين فوق الأرض بلكمتين سريعتين من قبضتيه المُخيفتين، واختفت الغجرية بيده، كما يختطف الطفل لُعبته، ثم أصبح في داخل الكنيسة بقفزةٍ واحدةٍ، يحمل الفتاة فوق رأسه، وهو يصرخ بصوته الرهيب: «الملاذ! الملجأ!».

حدث هذا بسرعةٍ بالغةٍ، ولو أنَّه جرى في الليل لاستطاع المُشاهدون أن يروه كلَّه على هيئة ضوء لسان واحد من البرق اللَّامع. وكرَّرت الجماهير:

«الملاذ! الملجأ!.. الملاذ! الملجأ!». وصفقت الآلاف من الأكف، تبعث الشرر والضياء والفخر من عين «كوازيمودو» المُفردة.

لقد أيقظت هذه الهزة الشديدة الفتاة المسكينة من إغمائها، فرفعت هدبها، ونظرت إلى «كوازيمودو»، ثم أنزلته فجأة، وكأنَّها مذعورة من مُحرِّرها ومُنقذها.

وبقي «شارمولو» فاغرًا فاه، وكذلك الجلادون، وأفراد الموكب كلهم، والواقع أنَّ الفتاة في حمى من كل عدوان، حين تكون داخل سياج الكنيسة، فالكاتدرائية ملجأ لكل هارب. أمَّا «كوازيمودو» فقد وقف تحت الباب الكبير، وبدت قدماه ثابتتين صلبتين فوق أرض الكنيسة، ثبات الأعمدة الرومانية الثقيلة وصلابتها. كان رأسه الكبير يغوص بلمة شعره الكثيف بين كتفيه، كالأسود. ويحمل الفتاة الراجفة مُعلقة فوق يديه القاسيتين وكأنهما قماش ناصع البياض، يحملها بعنايةٍ بالغةٍ حتى ليبدو خائفًا من أن يكسرها أو يحمل الذبول إليها.

هنا كانت النساء تبكي وتضحك، والجماهير تضج بالحماسة، إذ كان للأحدب «كوازيمودو» في هذه البرهة جماله الرائع حقًّا. لقد كان هذا اليتيم، هذا الطفل، هذا الكائن المرزول جميلًا جدًّا، إنَّه يشعر بأبَّهته وقوته، ينظر إلى هذا المجتمع الذي نفاه وأبعده وقد تحداه بمثل هذه القوَّة الفائقة، ينظر إلى هذه العدالة البشرية التي انتزع منها فريستها، ينظر إلى هذه النمور المتوحشة التي تجد نفسها مرغمة على مضغ الفراغ، ينظر إلى هؤلاء الزبانية، إلى هؤلاء القضاة، إلى هؤلاء الجلادين، إلى كل هذه القوَّة، إلى قوَّة الملك التي حطمها ـ وهو الإنسان المشوه ـ بقوة الإله العظيم.

كان مُثيرًا حقًّا أن تهبط هذه الحماسة من إنسانٍ في مثل هذه البشاعة، فوق إنسان في مثل هذا البؤس محكومة بالموت، لقد تلاقيا فيها بؤسين: «بؤس الطبيعة، وبؤس المجتمع» يتلاقيان ويتعاونان.

وفي هذه الأثناء، وبعد دقائق معدودة من هذا الانتصار، غاص «كوازيمودو» فجأة في الكنيسة مع حَمَله الوديع. أمَّا الشعب الذي يُعجب بكل جرأةٍ، فقد كان يبحث عنه بعيونه تحت القُبَّة المظلمة، أسفًا على أنَّه قد تجنَّب الاستماع إلى هتافاته بمثل هذه السرعة.

وفجأةً، رآه الناس يظهر مرَّة أخرى عند طرف من أطراف ردهة ملوك فرنسا يجتازها راكضًا كالمجنون، الفاقد لوعيه، وهو يحمل غنيمته بين ذراعيه صارخًا:

«الملاذ! الملجأ!».

وانفجر الناس مرَّة أخرى يصفقون، وغاص «كوازيمودو» مرَّة ثانية في داخل الكنيسة بعد أن اجتاز الردهة، ثم ظهر من جديد فوق السقيفة العُليا والغجرية بين ذراعيه، وهو يركض دائمًا بجنونه الشديد، وأخيرًا ظهر للمرَّة الثالثة فوق قمة برج الجرس الكبير، وبدا هناك كأنَّه يعرض على المدينة كلِّها باعتدادٍ وكبرياءِ الفتاة التي أنقذها، وردد صوته المدوي الذي ندر ألَّا يسمعه الناس، والذي لم يسمعه هو شخصيًا أبدًا، لازمته يرسلها ثلاث مرَّات إلى الغيوم السابحة في الفضاء في ثورةٍ عصبيةٍ مجنونةٍ:

«الملاذ! الملجأ!.. الملاذ! الملجأ!.. الملاذ! الملجأ!».

والشعب يصرخ هاتفًا بإعجابٍ وتشجيعٍ:

«نوويل! نوويل!».

وانطلق هذا الهتاف الهادر يبعث الدهشة في الضفة الأخرى، حيث كانت جماهير أخرى تنتظر في ساحة «جريف»، وحيث كانت الحبيسة متربصة، تترقب وصول الموكب، وعينها مثبتة على المشنقة.

روح أم كائن حي؟

ASPIRT OR A LIVING HUMAN ?

لم يكن «كلود فروللو» في نوتردام عندما أنقذ «كوازيمودو» الغجرية. لقد أسرع إلى خارج الكنيسة وطلب من أحد أصحاب المراكب أن يحمله إلى الضفة الأخرى من النهر. وهناك راح يتجوَّل دون مقصد في الشوارع. لقد كان تائهًا، باهت اللَّون، مضطرب النفس.

وتزاحمت في ذهنه أفكار بشعة مختلفة؛ فارتجف كل جسده.

لقد فكَّر في الفتاة البائسة التي ضيَّعها وضيَّعته. ونقل نظره التائه عبر الطريق الأزلية الملتوية التي قضى عليه القدر وعليها، و أن يسيرا فيها حتى نقطة التقائهما حيث حطم أحدهما الآخر دون شفقة أو رحمة.

وضحك ضحكةً مُخيفةً، ورجعت صُفرته على وجهه، وهو يتأمَّل الجانب الرهيب من هواه، هذا الهوى الحاقد، الهدَّام، الذي يسري به سُم زعاف. والذي لم ينته إلَّا إلى المشنقة بأحدهما، وإلى جهنم بالنسبة إلى الآخر. هي محكومة بالإعدام، وهو مرذول ملعون.

ثم رجعت الضحكة إليه حين فكَّر أنَّ «فوبوس» ما يزال حيًّا، إنَّ القائد بعد كل الذي جرى، يعيش سعيدًا مطمئنًا. وتضاعفت تكشيرته الضاحكة حين فكَّر أنَّ الغجرية هي المخلوقة الوحيدة التي لا يكرهها، وإنَّها هي التي أصابها الموت مع ذلك كلِّه من بين أولئك الأحياء الذي تمنى الموت لهم.

وكان قلبه يذوب أسى حين يحاول أن يكوِّن فكرة عن السعادة التي كان يمكن أن يجدها على الأرض لو لم تكن هذه الفتاة: غجريةً، ولو لم يكن هو: كاهنًا، ولم يكن «فوبوس» موجودًا بينهما.

لقد أصبح كالمجنون، منذ أن فَقَد الأمل والإرادة على إنقاذها، ولم يبق في ذهنه غير صورتين واضحتين: «الأسميرالدا»، والمشنقة، والباقي ظلمة حالكة، كانت هاتان الصورتان المتقاربتان تُبرزان كُلًّا مُخيفًا ورهيبًا، وكلَّما أمعن في إثبات فكرة وانتباهه فيهما، أمعنتا في خياله نموًّا وامتدادًا، كانت أولاهما جمالًا وأناقةً وروعةً وضياءً، وأخراهما رهبةً وهولًا، بحيث «الأسميرالدا» قد بدت في النهاية كوكبًا يضيء، أمَّا المشنقة فقد ظهرت لها ذراعًا ضخمة متمزقة.

كانت الشمس تقترب من الغروب، وقد وجد «كلود» صاحب مركب قُرب ضفة النهر، فنقله في مركبٍ عَبْر السين إلى جهة المدينة على الضفة الأخرى. وغربت الشمس وراحت بعض الأضواء تتلألأ هنا وهناك من خلال النوافذ، لقد كان المسكين شديد اليأس مرهقًا، لا يعرف إلى أين يتجه؟.

لقد أصبح أمام جسر سان ميشيل، فاتخذ قراره وأسرع باتجاه نوتردام، وكان باب الدير مُغلقًا، لكن الكاهن كان يحمل مفتاح البرج دائمًا حيث حجرته.

وانطلق عبر الكنيسة، حيث خُيِّل إليه أنَّ الكنيسة نفسها تنتفض، وتتحرَّك، وتنبعث فيها الحياة، فتحيَا. وأنَّ كل عمود ضخم، قد أصبح قائمة ضخمة تضرب الأرض بسوطها الحجري، وأنَّ الكاتدرائية في حقيقتها، قد تحوَّلت

إلى فيلٍ عملاقٍ يتنفس ويسير بركائزه التي هي قوائمه، وبرجيه اللذين هما خرطوماه، وبثوبه الأسود الهائل الذي هو هودجه الكبير.

وبينما كان يغوص في جانبٍ من جوانب الكنيسة، شاهد ضوءًا أحمر وراء كتلة من الأعمدة، فأسرع باتجاه الضوء.

لقد كان المصباح الهزيل الذي يُضيء كتاب الصَّلاة العمومي لكنيسة نوتردام، فألقى بنفسه فوق الكتاب المقدس راجيًا أن يجد فيه بعض العزاء والسلوان، وقد وجده مفتوحًا على صفحة فيها فقرة «أيوب»: ومرّ روح أمام وجهي، فوقف له شعر جسدي كلّه.

وهنا أحس الكاهن بما يحس به الأعمى حين يجد العصا التي التقطها قد لسعته، فهربت ركبتاه من تحته، وارتمى فوق أرض الكنيسة منهارًا تعبًا، مُفكرًا في تلك المسكينة التي قُتلت خلال النهار. وكان يحس أنَّ دخانًا هائلًا يمر أو يصبّ في دماغه، حتى ليبدو له أنَّ رأسه قد أصبح مدخنة من مداخن الجحيم.

وحين استعاد «كلود» وعيه، فكَّر باللجوء إلى البرج بالقرب من «كوازيمودو» الأمين، فتسلق سلم البرج بطيئًا مُفعمًا بخوفٍ خفيٍّ.

وفجأة أطفأت الريح مصباحه، فرأى في الوقت نفسه تقريبًا، ظلًّا، بياضًا،، بل شكلًا، بل امرأة، تبدو عند الزاوية المُقابلة من البرج. فاقشعر. وإلى جانب هذه المرأة وجد عنزة صغيرة.

ووجد القوَّة على النظر. فكانت هي.

كانت باهتة مُظلمة، تهدلت ضفائر شعرها فوق كتفيها شأنها في الصباح. واختفى الحبل الذي كان في عنقها، والقيود التي كانت في يديها، لقد كانت حُرَّة. لقد كانت ميتة.

كانت تلبس ثوبًا أبيض، وعلى رأسها برقع أبيض أيضًا.

كانت تتجه نحوه بطيئة، وهي تنظر إلى السماء. والعنزة العجيبة تتبعها، فشعر أنَّه ثقيل جدًّا، وأنَّه قد أصبح كتلة من الحجر، فلم يستطع أن يهرب.

كان يخطو خطوة واحدة إلى الوراء، كلَّما خطت المرأة نحوه مثلها. هذا هو كل شيء.

ودخل غائمًا في ظلمة قُبَّة السُّلم. تُرعبه فكرة أنَّها قد تدخل إلى ظلمة القُبَّة أيضًا. وإنَّها لو دخلت، لوقع ميتًا من الرُّعب، والواقع أنَّها قد بلغت باب السُّلم، ووقفت أمامه قليلًا، وثبتت نظرها في الظلال، دون أن يبدو أنَّها قد رأت الكاهن. وتابعت طريقها. لقد بدت أكبر ممَّا كانت أثناء حياتها.

ونزل بعد أن مرَّت المرأة ببطء الطيف نفسه، مُعتقدًا أنَّه هو طيف أيضًا، وقد زاغت عيناه، ووقف شعر رأسه، ومصباحه منطفئ في يده.

وسمع خلال نزوله في السلم الحلزوني صوتًا يضحك ويُردِّد: ومرّ روح أمام وجهي، فوقف له شعر جسدي كلّه.

❊ ❊ ❊ ❊

الملاذ
THE SANCTUARG

كانت في الكنائس في القرون الوسطى مناطق حماية يحتمي بها الناس لا يكاد المذنب يضع قدمه داخل هذه المنطقة حتى يصبح شيئًا مُقدسًا، شرط ألَّا يخرج منها.

وكان في كاتدرائية نوتردام حجرة صغيرة، خاصَّة لاستقبال هؤلاء اللاجئين، حيث وضع «كوازيمودو» فتاته «الأسميرالدا» وهي شبه فاقدة الوعي.

واستيقظت أفكارها فرجعت إليها واحدة تلو الأخرى، فرأت أنَّها في نوتردام، وتذكَّرت أنَّها انتُزعت من يدي الجلاد، وأنَّ «فوبوس» كائن حي يُرزق، وأنَّه لم يعد يُحبُّها أبدًا. فالتفتت إلى «كوازيمودو» فشعرت بذعرٍ شديدٍ، ثم سألته:

«لِمَ أنقذتني؟!».

فنظر إليها بقلقٍ، محاولًا أن يفهم ما تقوله، فردَّدت سؤالها، فنظر إليها نظرة عميقة الحزن، ثم ابتعد.

وبعد قليل عاد إليها يحمل صُرة من الثياب، احتوت على رداءٍ أبيض مع برقع أبيض أيضًا. وترك الغرفة حتى تتمكَّن من ارتداء ملابسها. ثم عاد «كوازيمودو» يحمل سلة وفراشًا. وكان في السلة قنينة، وقطع من الخبز، وشيء من المئونة، وقال:

«كُلِي!».

ثم ناولها البساط، وقال:

«نامي!».

لقد قدَّم لها قارع الأجراس طعامه الخاص، وفراشه الخاص أيضًا.

ورفعت الفتاة عينيها لتشكره، ولكنها لم تستطع أن تنبس بكلمةٍ واحدةٍ. فقد خفضت رأسها في قشعريرةٍ من الخوف والرهبة، فقال المسكين:

«آه! لقد أخفتكِ، إنَّني قبيح جدًّا، أعرف ذلك، لا تنظري إليَّ، فقط استمعي، إنكِ ستبقين هنا أثناء النهار، أمَّا في الليل فبوسعكِ أن تتنزهي عبر الكنيسة كلِّها.. ولكن لا تخرجي منها أبدًا، فإن فعلتِ سيلقون القبض عليكِ، وستموتين، وسيكون ذلك موتي أيضًا».

ورفعت رأسها لتجيب، ولكنه كان قد خرج.

واستيقظت في الصباح التالي، ووجدت أنَّها قد نامت، لقد مرّ وقت طويل نسيت خلاله النوم، وقد ألقت أشعة الشمس بعضًا من أشعتها الجميلة فوق وجهها. ورأت في الوقت نفسه شيئًا على النافذة أخافها، إنَّه وجه «كوازيمودو»، فأغمضت عينيها بحركةٍ لا إراديةٍ، فسمعت صوتًا خشنًا يقول لها برقةٍ شديدةٍ:

«لا تخافي جئت لأراكِ نائمة. إنَّني ذاهب، بإمكانكِ أن تفتحي عينيكِ!».

وقد تأثَّرت الفتاة الغجرية بكلامه، إلى درجةٍ كبيرةٍ، ففتحت عينيها، ولكنه كان قد ابتعد عن الكوة، فاقتربت منه ونادته:

«تعال!»

وبما أنَّ «كوازيمودو» كان أصمَّ، فقد ظنّ من حركة شفتيها أنَّها تطلب منه أن يُغادر، فانسحب إلى خارج الغرفة، فخرجت من الغرفة تجري نحوه، وأمسكت ذراعه فارتجف «كوازيمودو» حين أحس بلمستها، وحين رأى أنَّها تجره نحوها، قال:

«لا! لا! إنَّ البومة لا تدخل إلى عش القبَّرة».

وأصرّ أن يبقى عند العتبة.

وكانت «الأسميرالدا» تكتشف فيه كل لحظة قبحًا جديدًا، ومع ذلك فقد كان في هذه الكتلة من القبح والبشاعة قدر كبير من الحزن والألم والرقة. بحيث إنَّها بدت تعتاد النظر إليه وتألفه.

فقال لها:

«إذًا، فقد كنتِ تقولين ارجع!!».

فهزت رأسها وهي تردِّد:

«نعم!».

- «للأسف! إنَّني أصم لا أسمع!».

- «يا للرجل المسكين!!».

- «إنكِ تفكرين أنَّه لم ينقصني غير هذا! نعم إنَّني أصم، هذا رهيب أمَّا أنتِ فجميلة رائعة».

وابتسم بحزنٍ، وتابع:

«لم أر لقبحي مثيلًا أبدًا، حين أقارن نفسي بكِ أُشفق على هذه النفس، إنَّني وحش بائس مسكين، إنَّني أصم، ولكنكِ ستتكلمين معي بالإشارات والحركات، وسأفهم ما تريدين من حركة شفتيكِ».

وابتسمت الفتاة وسألته:

«حسن جدًّا! قل لي إذًا لماذا أنقذتني؟!».

– «لقد فهمت!! هل نسيتِ بائسًا لم تترددي في نجدته فوق وتد التعذيب، جرعةٌ من الماء وقليل من الشفقة، هذا دين لا أستطيع أن أوفيه بحياتي كلِّها، انظري إنَّ لنا هنا أبرجًا عاليةً جدًّا، عندما ترغبين في التخلُّص مني أخبريني لأرمي بنفسي من قمة البرج».

ثم نهض وقال:

«يجب عليَّ ألَّا أبقى طويلًا هنا، سأبحث عن مكان آخر يكون بوسعي أن أنظر إليكِ دون أن تريني، خذي هذه وعندما تحتاجين إليَّ انفخي فيها، وسوف أسمع صداها».

قال ذلك، وأخرج من جيبه صافرة معدنية، وناولها إيّاها.

ومضى الوقت، ورجع الهدوء إلى نفس «الأسميرالدا» شيئًا فشيئًا، فالألم الشديد كالفرح الشديد، شيء عنيف لا يدوم في القلب طويلًا. واللَّحظات المريرة والصور الرهيبة التي لاحقتها دائمًا راحت تتركها شيئًا فشيئًا، ومن الآلام الكبيرة التي عانت منها، لم يبق لها غير الدهشة، كل الأشباح المُخيفة وحتى الكاهن نفسه قد تلاشت من ذهنها، أمَّا «فوبوس» فقد كان يعيش، لقد رأته بأمِّ عينها، كانت حياته كل شيء في نظرها، كانت تظن أنَّ «فوبوس» ما زال يُحبُّها، بل إنَّه لم يُحبّ أحدًا سواها، ألم يُقسم بذلك.

وممَّا لا شك فيه أنَّ «الأسميرالدا» لم تكن تفكر بالقائد دون مرارة، لقد كان رهيبًا أن يصدق أنَّ الطعنة قد أتته من قِبَل مَنْ هي مستعدة لأن تمنحه ألف حياة.

وأخيرًا وجدت أن لا سببًا يدعوها لتغضب منه، ألم تعترف بجريمتها، ألم تضعف أمام التعذيب.

وكانت الغجرية تُفكِّر في «كوازيمودو» دائمًا، حين يترك لها تفكيرها في «فوبوس» بعضًا من الوقت. لقد كان «كوازيمودو» الرابطة الوحيدة التي بقت تربطها بالناس.

وكان «كوازيمودو» يتفقدها من حينٍ لآخر. وحاولت هي جاهدة لتخفي اشمئزازها وخوفها منه، ولكنه كان قادرًا على ملاحظة أقلّ أنواع هذه الحركات المشمئزة.

فقد جاء مرَّة ووقف أمام عتبة الغرفة، وكانت «الأسميرالدا» تُغني أغنيةً إسبانيةً جميلةً، ولم تكد ترى هذا الوجه المُفزع حتى توقفت عن الغناء، فما كان من قارع الأجراس إلَّا أن جثا على ركبتيه، عند العتبة، وضم كفيه الغليظتين المُشوهتين في توسلٍ، وقال:

«أوه! أرجوكِ تابعي الغناء، ولا تطردينني!!».

وبالطبع، ورغبة منها في ألَّا تزعجه، تابعت الفتاة غناءها، وهي ترتجف، وبقي «كوازيمودو» على ركبتيه، ويداه مضمومتان كأنَّه في صلاةٍ، لقد كان يستمع إليها بعينيه.

وفي صباح أحد الأيام خرجت «الأسميرالدا»، ووقفت على السطح ناظرة إلى الساحة، وكان «كوازيمودو» يقف وراءها، وفجأة ارتعدت

الغجرية، وأضاء في عينيها بريق فرح، ودمعة حزينة، وركعت وقد مدّت ذراعيها بألمٍ نحو الساحة، وهي تصرخ:

«فوبوس! تعال! تعال! كلمة واحدة بحق الله.. فوبوس!!».

وكان الضابط بعيدًا إلى درجة لم تسمح له بسماع ندائها.

وانحنى «كوازيمودو»، ورأى أن موضوع رجائها الحنون كان فارسًا، شابًّا، جميلًا، مُسلحًا. وكان يُحيي سيدة جميلة فوق الشرفة.

وتنهد «كوازيمودو» بحرقةٍ، واستدار، كان قلبه مُفعمًا بدموعٍ غالبها، وراح يضرب رأسه بقبضتيه، ولما أبعدهما، كانت كل واحدة منهما مليئة بخصلات شعر أحمر، كان يقول بصوتٍ خافتٍ:

«اللعنة!هكذا يجب أن يكون شكل المرء.. إنَّه بحاجةٍ فقط إلى مظهر جميل!».

ثم جذبها برقةٍ من كمّ ثوبها، وقال:

«هل أذهب لأحضره لكِ؟!».

فأرسلت الغجرية صرخة فرح، وقالت:

«أوه! هيا اذهب! أسرع!».

وعندما وصل «كوازيمودو» إلى الساحة، لم يجد غير الحصان الجميل مربوطًا إلى باب منزل آل «جوندو لوريا»، وكانت «الأسميرالدا» ما تزال باقية في مكانها.

وأسند «كوازيمودو» ظهره إلى أحد ركائز الباب، ينتظر خروج القائد.

ومرَّ النهار كلُّه: «كوازيمودو» مستندًا إلى الباب، و«الأسميرالدا» فوق السطح، و«فوبوس»، دون شك، عند قدمي «فلور دو لي»..

وأخيرًا جاء الليل، ومرَّت بضع ساعات، ثم سُمع بعدها صوت جواد يركل الأرض بقوائمه تحت باب المنزل، ومرّ الضابط ملتفًّا بمعطفه، مُسرعًا أمام «كوازيمودو»، الذي راح يغدو خلفه، وهو يصرخ قائلًا:

«ها! أيها القائد!».

ووقف القائد، وأسرع إليه «كوازيمودو»، وأمسك بجرأةٍ عنان الجواد، وقال:

«هناك شخصٌ يُريد التحدُّث إليك أيها القائد، هيا اتبعني!».

– «اترك عنان جوادي، قلت لك اترك جوادي!».

– «تعال أيها القائد! إنَّها امرأة تنتظرك، امرأة تُحبُّك، إنَّها الفتاة الغجرية التي تعرفها!».

والحق أنَّه كان لهذه الكلمات أثر عميق في نفس «فوبوس»، وكان القائد قد انسحب إلى داخل الغرفة مع «فلور دو لي» قبل أن أنقذ «كوازيمودو» الغجرية، فقال القائد وهو شبه مذعور:

«الغجرية!! ماذا؟ فإذًا أنت قادم من العالم الآخر!!».

وضرب «فوبوس» الأحدب «كوازيمودو» ضربةً مؤلمةً بكرباجه، فأصابت ذراعه.

وعاد «كوازيمودو» إلى نوتردام، وأضاء مصباحه، وراح يصعد إلى الدرج. وكما توقع، كانت «الأسميرالدا» ما تزال في نفس المكان منذ

الصباح، وما إن رأته، حتى جرت نحوه، وصرخت في ألمٍ بالغٍ، وهي تضم أيديها:

«هل أتيت وحدك؟!».

فقال «كوازيمودو» ببرودٍ:

«لم أستطع أن أجده!!».

فصرخت غاضبة:

«كان عليك أن تنتظره الليل كلَّه!!».

- «سأراقبه بشكلٍ أفضل في المرَّة القادمة!!».

- «اغرب عن وجهي!!».

وتركها المسكين، وقد فضَّل أن تُساء مُعاملته من قِبلها، على أن يُدخل الألم إلى قلبها. لقد احتفظ بالعذاب كلِّه لنفسه.

ومنذ ذلك الوقت لم يُعاود المجيء إلى غرفتها، لم تكن تراه، ولكن كانت تشعر بوجود روحه الطيبة حولها.

كانت مئونتها تتجدد بيدٍ خفيةٍ أثناء نومها. وفي صباح يوم وجدت على نافذة غرفتها قفص طيور، وفي صباح يوم آخر وجدت مزهريتين وورداً.

كانت في بعض الأحيان تسمع في الأمسيات صوت رجل مختبئ يُغني أغنية حزينة، وكأنَّه يدعوها إلى النوم، وذات ليلة سمعت تنهيدة قُرب باب غرفتها، فنهضت واستطاعت على ضوء القمر أن ترى كتلة مشوهة ممددة في الممر، لقد كان «كوازيمودو» نائمًا على الأحجار.

لن يفوز بها أحد أبدًا
IT WILL NOT WIN ONE NEVER

في هذه الأثناء بلغت الشائعات التي تناقلتها العامَّة حول الطريقة العجائبية التي أُنقذت فيها الفتاة مسامع الكاهن. كان قد أعدّ نفسه لتقبُّل موت «الأسميرالدا» وبهذه الطريقة كان مطمئن النفس. لقد لمس أعماق الألم الممكنة وتجرَّع كأس الشقاء حتى آخر قطرة. إنَّ القلب البشرى لا يستطيع أن يحتوى إلَّا على كميةٍ محدودةٍ من اليأس، و بالتالي فإنَّ في وسع البحر أن يمرَّ فوق الأسفنجة المُشبَّعة دون أن يضيف إلى مائها دمعة واحدة.

وقد حبس نفسه في غرفته لا يخرج منها أبدًا، ولا يُفتح بابها أبدًا حتى لأخيه الحبيب «جوهان». كان يقضى أيامًا كاملةً لاصقًا وجهه بزجاج نافذته حتى كان يرى من خلالها غرفة «الأسميرالدا». كان يراها مع نفسها ومع عنزتها، وكان يُلاحظ أيضًا «كوازيمودو» وعنايته، وطاعته، وأساليبه اللطيفة، وخضوعه المطلق للغجرية. هذه الفكرة بالذات أذهلته.

وكان في كل ليله يتخيَّل «الأسميرالدا» في جميع الصور التي تجعل الدَّم يغلى في عروقه. وذات ليلة قضت هذه الصور مضجعه فقفز من فراشه وحمل مصباحه وغادر الغرفة. كان يعرف أين يجد مفتاح الباب الأحمر الذي يصل بين الدير والكنيسة.

وكانت «الأسميرالدا» في هذه الليلة نائمة في غرفتها، وبدا لها وكأنَّها تسمع ضجة حولها. وكانت الليلة شديدة الظلمة. ولكنها رُغم ذلك استطاعت أن ترى على النافذة وجهًا ينظر إليها، وبالقرب منه مصباح يُرسل ضوءه، ثم قام بإخفائه.

فقالت، بصوتٍ هامسٍ:

«أوه! إنَّه الكاهن!». .

وبعد ذلك بقليلٍ شعرت أنَّ شيئًا يلمسها فارتعدت من الخوف، ثم أجلست نفسها وهى ثائرة، تقول:

«اغرب عن وجهي أيها الوحش! اغرب عن وجهي أيها القاتل!».

– «إنَّني أُحبُّكِ! الرَّحمة! الرَّحمة! إنَّ هذا الحُبّ هو ألف سكينة مغروسة في قلبي!»

– «اغرب عن وجهي أيها الشيطان!!».

وانسحبت قليلًا إلى الوراء.

وفجأة وقعت يدها على شيءٍ معدني بارد، إنَّها صافرة «كوازيمودو». فنفخت فيها بكل ما تبقى لها من قوَّةٍ. وفى الوقت نفسه تقريبًا شعر الكاهن بذراعٍ قويةٍ تمسكه، وكانت الغرفة معتمة ولكن كان فيها القليل من الضوء مكَّن الكاهن من رؤية شفرة سكين لامعة فوق رأسه.

وخُيِّل إلى الكاهن أنَّه يرى شكل «كوازيمودو»، وفى طرفة عين وجد الكاهن نفسه مُمدَّدا على الأرض، وشعر بركبةٍ من الرصاص تجثم فوق صدره، ولكن «كوازيمودو» تردد وقال في صوتٍ حفيفٍ:

«لا! لا! لن أحملها مسؤولية الدماء!».

وهنا عرف الكاهن صوت «كوازيمودو» وشعر بيدٍ غليظة تجرّه من قدمه إلى خارج الغرفة، فهناك يحب أن يموت، ولحسن حظه أنَّ القمر قد أطل منذ قليل.

ونظر «كوازيمودو» إلى وجه الكاهن، ثم توقف وهو يرتجف، وتراجع إلى الوراء، وأمَّا الغجرية فقد رأت الأدوار تتغيَّر فجأة. لقد أصبح الكاهن يُهدِّد، و«كوازيمودو» يرجو ويتوسل.

وخفض «كوازيمودو» رأسه، ثم أتى يجلس على ركبتيه أمام باب الغجرية، وقال:

«سيدي! اقتلني أولا!».

وقدَّم له السكين، ولكن «الأسميرالدا» كانت أسرع منه لانتزاعها وراحت تقهقه بشجاعةٍ هستيريةٍ:

«اقترب! اقترب أيها الجبان! لقد عرفت أن «فوبوس» حي يرزق».

ورمى الكاهن «كوازيمودو» أرضًا بركلةٍ عنيفةٍ، ثم أسرع وهو يرتجف غضبًا باتجاه قبَّة السُّلم.

لقد أصبح الكاهن «كلود» يغار من «كوازيمودو»، ثم راح يُردِّد عبارته الهائلة وهو يُفكِّر:

«لن يفوز بها أحد أبدًا!!».

❋ ❋ ❋ ❋

المؤامرة
THE PLOT

كان «بطرس جرنجوار» واقفًا عند زاوية إحدى الكنائس الجميلة التي تعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي. وكان يتأمَّل منتشيًا المنحوتات الخارجية للكنيسة. وكان مستغرقًا في تأمُّله لا يرى شيئًا غير الفن الذي يُحبُّه.

وفجأة أحس بيدٍ ثقيلةٍ توضع على كتفه، فالتفت إلى الوراء ليجد أمامه صديقه القديم، وأستاذه القدير الكاهن «كلود فروللو» ممَّا أصابه بدهشةٍ كبيرةٍ.

وأخيرًا قطع الكاهن الصمت وهو يقول بلهجةٍ هادئةٍ باردةٍ:

«كيف حالك أيها المُعلِّم بطرس؟!».

– «بالنسبة إلى صحتي فيمكن أن يُقال هذا أو ذاك!».

– «وماذا تصنع الآن؟».

– «إنَّك ترى أنَّني أدرس أشكال هذه الأحجار!».

– «وهل يسليك هذا؟».

– «إنَّها الجنّة».

– «وإذًا فأنت سعيد؟!».

– «نعم! أقسم بشرفي».

– «أفلا ترغب في شيء آخر، أو لست نادمًا على شيءٍ؟!».

– «لقد نظمت حياتي فلا رغبة، ولا أسف!».

– «وكيف تكسب عيشك؟».

– «إنَّني مازلت أنظم الملاحم والمآسي، ولكن ما يريحني أكثر هو هذه المهنة التي رأيتني أُمارسها!».

– «أنت إذًا مازلت كما كنت فقيرًا!».

– «فقيرٌ جدًّا! ولكنني لست بائسًا».

– «وماذا فعلت بالراقصة الغجرية الشابة؟!».

– «الأسميرالدا! زوجتي العزيزة ذات الجرة المكسورة، يبدو لي وكأنَّك دائم التفكير فيها؟!».

– «وأنت! ألَا تُفكِّر فيها أيضًا؟!».

– «قليلًا! إنَّني مشغول جدًّا!».

– «ألم تنقذ هذه الغجرية حياتك؟».

– «نعم! ولكن للأسف إنَّهم شنقوها!!».

– «أو تظن كذلك؟!».

– «لست واثقًا من ذلك! لقد ابتعدت حين رأيتهم عازمين على شنقها لقد قيل لي إنَّها لجأت إلى نوتردام، وأنَّها هناك في مأمنٍ من الموت، وقد أسعدني ذلك «ولكني لست متأكدًا من صحّة هذا الكلام!».

فقال «كلود»:

«سأخبرك بالمزيد عنها. إنَّها فعلًا مختبئة في نوتردام، ولكن العدالة ستخرجها منها بعد ثلاثة أيام وستشنق في ساحة جريف. لقد أصدر البرلمان تشريعًا بذلك».

– «هذا محزن حقًّا! ومَنْ هو هذا الشيطان الذي أمتع نفسه باستصدار مثل هذا التشريع من البرلمان؟!».

– «إنَّ في العالم شياطين رجيمة! ألا تُريد أن تصنع شيئًا من أجلها؟!.

– «لا أبغي غير هذا سيد كلود، ولكن قد أضع نفسي في مأزقٍ سيئ من وراء هذه القضية!».

– «وما يهمك؟ ألم تنقذ حياتك؟ إنَّك فقط تفي دينك!».

– «هناك ديون أخرى كثيرة لا أفيها!».

– «أيها المُعلِّم بطرس لقد فكَّرت في الأمر مليًّا ووجدت أنَّ هناك حلًّا وحيدًا لإخراجها».

– «وما هو؟».

«أصغ إليَّ أيها المُعلِّم بطرس.. إنَّ الكنيسة مراقبة ليلًا ونهارًا، وكل من يدخل إليها يجب أن يُشاهد وهو يخرج، وأنت تستطيع الدخول وسآخذك إليها وتبادلها ثيابك!».

– «هذا أحسن حتى الآن، وماذا نفعل بعد ذلك»؟!.

– «سوف تخرج الفتاة بثيابك، وأنت تبقى بثيابها، وقد تشنق أنت، ولكنها ستنجو من الموت».

وحك «جرنجوار» حاجبيه على هيئةٍ جادةٍ، وقال:

«سأفكر في الموضوع! مَنْ يدري، فقد لا يشنقونني أبدًا! وقد ينفجرون ضاحكين!».

– «هل تم اتفاقنا إذًا؟ انتهى الأمر هل ستأتي غدًا؟».

فصرخ «جرنجوار» بلهجة الرجل الذي يستيقظ من النوم فجأة:

«لا! أرجو المعذرة! أن أشنق لا!».

- «الوداع! إذًا سأجدك مرَّة أخرى».

ثم ركض «جرنجوار» خلفه، قائلًا:

«لقد خطرت لي فكرة ملائمة!».

- «ما هو اقتراحك؟».

- «أعلم أنَّها محبوبة من قِبل اللصوص، وهم طيبون، وسيثورون عند أوَّل كلمة، لا شيء أسهل من ذلك.. هجومٌ مفاجئٌ وبفضل الفوضى التي سيحدثونها نتمكَّن من خطف الفتاة بعيدًا!!».

وسأله الكاهن غاضبًا:

«الوسيلة!!».

وقرب «جرنجوار» شفتيه إلى أذن الكاهن، وتحدَّث بصوتٍ خافتٍ، وعندما انتهى الأمر أمسك «كلود» بيده وقال ببرودٍ:

«حسنٌ! إلى الغد».

قال «جرنجوار»:

«وإلى الغد!».

ومشى كل منهما في طريقٍ. وعندما وصل إلى غرفته وجد الكاهن أخاه «جوهان» بانتظاره. فقال «جوهان» بهدوءٍ:

«لقد أتيت لأراك يا أخي».

– «ماذا تريد؟».

– «إنَّك يا أخي طيب جدًّا معي، إنَّك تعطيني من النصائح ما يدفعني إلى العودة إليك».

– «وماذا بعد؟!»

– «أخي، إنَّك ترى أمامك مخطئًا مذنبًا ومسكينًا! قد أتيتك يا أخي بقلبٍ مُفعمٍ بالندم والحزن، وإنَّني أرغب في أن أحيَا خيرًا من حياتي السابقة..».

– «هل هذا كل شيء؟».

– «نعم! ولكنى أريد بعض النقود!».

– «ليس عندي منها شيئًا!».

«حسنٌ جدًّا يا أخي إنَّك لا تُريد أن تعطيني مالًا، إذًا سأجعل من نفسي لصًّا في هذه الحالة!!».

– «اذهب إلى الشيطان! كن لصًّا!».

وانحنى «جوهان» قليلًا، وراح يهبط السُّلم وهو يصفر، وعندما وصل إلى تحت نافذة غرفة أخيه رفع رأسه، وكان الشباك قد فُتح وسمع صوت أخيه يقول له:

– «هذا آخر ما أعطيك إيّاه!!»

قال الكاهن هذا وألقى بمحفظة إلى «جوهان».

حتى آخر قطرة دم
TO THE LAST BLOOD DROP

وذات مساء، كان الصَّخب في حانة اللصوص أعظم ممَّا هو عليه في العادة، كما لو أن أمرًا مهمًّا كان يتم التخطيط له. وقد بدا اللصوص أكثر نشاطًا وحيويةً. وكان كل واحد منهم يضع بين ساقيه قطعة سلاح لامعة.

وكان من الممكن تمييز ثلاث مجموعات رئيسة في هذا الحشد، يتزاحم أفرادها حول ثلاثة أشخاص، أمَّا أحدهم فهو دوق مصر، كما كان يُسميه الغجر، أمَّا الآخر فكان «كلوبان ترويفو» الذي كان يُشرف على توزيع كميةٍ من الأسلحة المتنوعة: مناشير، وسيوف، وسكاكين، وفؤوس صغيرة، كانت موجودة في برميلٍ كبيرٍ.

وكان كل واحد يأخذ ما يحلو له من كوم الأسلحة، حتى أنَّ الأطفال أنفسهم قد تسلحوا. وإلى إحدى الطاولات جلس «جرنجوار» على كرسي قرب المدفئة مستغرقًا في التفكير.

وكانت المجموعة الثالثة مُتحلقة حول مُحارب شاب مُدجج بالسلاح. ثم قال «كلوبان» مُخاطبًا جماعته:

«تعالوا! أسرعوا! وتسلحوا، فإنَّنا سنسير بعد ساعة!».

ثم سُمع صوت المُحارب الشاب، وهو يقول:

«أنا لص! وماذا أكون غير ذلك أيها الأصدقاء؟! إنَّني أدعى جوهان فروللو. أيها الإخوة إنَّنا نقوم بحملةٍ جميلةٍ رائعةٍ. سنحاصر الكنيسة، ونُحطم

أبوابها، وننقذ الفتاة الجميلة من القُضاة والكهنة، وسوف نشنق كوازيمودو، إنَّني لص حتى أعماق قلبي!».

وقال أحدهم وهو بائع متجول:

«حسنٌ جدًّا أيها الرفاق، فإلى نوتردام».

ثم قال آخر:

«خير البر عاجله.. في الكنيسة تمثالان من الذهب الخالص فوق قواعد مطلية بالفضَّة.. أنا أعرف ذلك تمامًا فأنا صائغ».

صرخ «كلوبان» بصوتٍ راعدٍ:

«يجب أن نُخلص أختنا من قبضتهم، ولا أتوقع وجود مقاومة في الكنيسة.. لقد انتصف الليل».

وكان الليل مظلمًا. واصطف الجمع الكبير على هيئة طابور من الرجال والنساء والأطفال مُدججين بكافة أنواع الأسلحة. ثم سُمع صوت يقول:

«والآن اصمتوا والزموا الهدوء حتى نجتاز الشارع، ولن تُشعل المشاعل إلَّا أمام نوتردام».

في هذه الليلة بالذات لم ينم «كوازيمودو». لقد انهى للتو دورته التفتيشية الأخيرة حول الكنيسة، وكان يُغلق الأبواب حين يرى الكاهن يمرّ، وكان «كلود» يبدو أكثر انشغالًا واستغراقًا في التفكير في تلك الليلة منه في غيرها. والواقع أنَّه منذ حادثة قدومه ليلًا إلى غرفة الغجرية قد بدا يُعامل

«كوازيمودو» بقسوةٍ شديدةٍ، بل كان يضربه أحيانًا، ولكن شيئًا من هذا لم يهز خضوع قارع الأجراس الأمين وصبره واستسلامه وإخلاصه للكاهن «كلود».

وبعد أن ألقى «كوازيمودو» نظرة أخيرة على أجراسه راح ينظر إلى مدينة باريس، لقد لاحظ وجود أشخاص يدورون حول الكنيسة ولا ينفكون ينظرون إلى غرفة الفتاة. وظنّ أنَّ هناك مؤامرة ما تُحاك ضدّ هذه اللاجئة البائسة فضاعف من اهتمامه.

وبدا هذا المنظر غريبًا مُقلِقًا، ثم رأى طابورًا يتقدَّم عَبْر الشوارع، ثم راح ينتشر في ساحة «بارفيس». ولم يستطع أن يُميِّز شيئًا سوى أنَّ هناك جمهورًا فقط.

في هذه اللَّحظة الحرجة حاول «كوازيمودو» أن يُفكِّر ويستشير نفسه فيما يجب فعله. كان يتساءل عمَّا إذا كان عليه أن يوقظ الغجرية ويُساعدها على الهرب ولكن كيف ذلك؟ وأي منفذ ستخرج منه؟ فالشوارع مكتظة بالناس، والكنيسة من خلفها نهر، ولا قارب في المكان.

لم يجد أمامه إذًا غير حل واحد، هو أن يموت عند عتبة نوتردام، أن يُقاوم حتى آخر رمق إلى أن تأتي نجدة ما، دون أن يُزعج أو يوقظ «الأسميرالدا» من نومها.

وبعد توقف دام لحظات حول الكنيسة صاح «كلوبان»:

«إلى الأمام أيها الأبناء! إلى العمل».

فخرج من بين الصفوف ثلاثة من الرجال الأقوياء واتجهوا صوب باب الكنيسة الرئيس يحملون الكماشات والرافعات الحديدية، وكان الباب صلبًا ثابتًا، فقال أحدهم:

«يا للشيطان! إنَّه قاسٍ ومتين!».

فأجاب «كلوبان»:

«تشجعوا! أيها الرفاق! انظروا، فقد بدأ القفل يتحطم».

فوجئ «كلوبان» بدويٍّ صوت مُخيف، فنظر خلفه فإذا بسقالةٍ ضخمة من الخشب قد سقطت من السماء وحطمت عددًا من اللصوص الواقفين فوق درجات الكنيسة. فهرب المتسولون في كل اتجاه وهم يطلقون صيحات الرُّعب والذعر، وترك الحدادون الباب وأصبحت ساحة بارفيس خالية في طرفة عين.

وفي هذه الأثناء لم يكن يُرى شيء غير واجهة المبنى وسطحه مرتفع إلى مدى يتعذر على ضوء المشاعل بلوغه.

وأيقظ صدى أصوات الأسلحة النارية السكان الآمنين في البيوت المجاورة للكنيسة، وشُوهدت نوافذ تُفتح، وأيدي تحمل الشموع.

فصرخ «كلوبان»:

«أطلقوا النار على النوافذ!».

وتراجع المواطنون المساكين داخل بيوتهم.

ثم صرخ «كلوبان» أيضًا:

«أيها العمال! أيها الرفاق الطيبون أيخاف الرجال من سقالةٍ خشبيةٍ؟!».

فقال أحدهم:

«إنَّنا بحاجةٍ إلى منجنيق».

– «هذا منجنيق» وأشار «كلوبان» إلى السقالة.

وضرب المتسولون الباب بضراوةٍ شديدةٍ لكنه لم يتحطم، رُغم أنَّ الكنيسة كلَّها اهتزت تحت وطأة تلك الضربة.

وبدأ في الوقت نفسه وابل من أحجارٍ كبيرةٍ تسقط فوق رؤوس المُهاجمين، وبعد برهة قصيرة توقفت الحجارة عن السقوط، وتوقف اللصوص عن النظر إلى الأعلى وتجمهروا حول الباب الكبير الذي ظل صامدًا رُغم تحطمه بضربات المنجنيق. كلهم كانوا ينتظرون الضربة الكبرى الأخيرة، كان كل منهم يجتهد في التقرُّب من الباب لينطلق إلى داخل الكنيسة الكبيرة المليئة بالثروات.

وفجأة ارتفعت في الفضاء صرخات عنيفة أشدّ من تلك التي تلت سقوط السقالة الخشبية. سيلان من الرصاص الذائب كان يسقط من المبنى فوق كتلة المتجمعين أمام الباب الكبير، لقد انهار هذا البحر الضخم من الرجال تحت المعدن الهائل. وهرب اللصوص بسرعةٍ واضطرابٍ وخلت ساحة بارفيس مرَّة أخرى منهم.

انسحب زعماء اللصوص وراحوا يتجمعون عند إحدى البوابات يتشاورون. كان «كلوبان» يضرب كفيه ببعضهما بغضبٍ، وهو يقول:

«من المستحيل أن ندخل الكنيسة!».

ثم صرخ دوق مصر، قائلًا:

«هل ترون هذا الوحش الذي يروح ويجيء أمام النار؟!».

فقال «كلوبان»:

«إنَّه قارع الأجراس اللعين! إنَّه كوازيمودو».

ثم أردف «كلوبان»:

«دعونا نحاول مرَّة أخرى! هل سنترك أختنا تُشنق غدًا من قِبل هذه الذئاب؟».

وقال أحد المُهاجمين:

«إنَّني سأعود إلى هناك! فمَنْ يسير معي، بالمناسبة أين جوهان الصغير؟!».

فأجاب أحدهم:

«لا شك أنَّه مات! لم أسمعه يضحك منذ مدة!».

فقال «كلوبان»:

«والمُعلِّم جرجس جرنجوار؟!».

- «لقد هرب منذ أن وصلنا ساحة بارفيس!».

ثم صاح هذا الشخص ذاته:

«أيها القائد! إنَّه الطالب الصغير!».

- «وما الذي يجره وراءه؟».

واقترب «كلوبان منه وسأله:

«ماذا تريد أن نصنع بهذا السُّلم؟!».

فنظر إليه «جوهان» نظرة خبث وذكاء، لقد كان رائعًا في تلك اللَّحظة، ثم قال:

«هل ترى تلك الصفوف من التماثيل؟».

- «نعم! ثم ماذا؟».

- «إنَّها ردهة ملوك فرنسا، وعند طرفها يوجد باب مُغلق، إلَّا أنَّه بمغلاق عادي، وبهذا السُّلم سأصعد إليها، وهناك أكون في الكنيسة».

وفي برهة صغيرة نُصب السُّلم ووضع على حاجز الردهة الأسفل فوق إحدى البوابات الجانبية، وصعد ببطء نظرًا لثقل أسلحته. ثم تابع الصعود تلحقه جموع اللصوص. وأخيرًا لمس الشرفة، ثم قفز إليها بخفةٍ. ولكنه توقف فجأة متجمدًا مكانه من الذعر. لقد شاهد «كوازيمودو» مختبئًا في الظلام خلف أحد التماثيل الملكية وعينه تقدح شررًا.

وانقضَّ الأحدب الرهيب على قمة السُّلم ودون أن ينطق دفعهما بعيدًا عن الحائط بقوَّةٍ خارقةٍ فسقط بمَنْ عليه من اللصوص وسط صرخات الخوف والقلق التي انطلقت تشق الفضاء. ووجد «جوهان» نفسه في موقف حرج للغاية، معزولًا عن رفاقه بحائط عمودي يرتفع لمسافة ثمانين قدمًا، ووحيدًا مع قارع الأجراس المُخيف، وأسرع «جوهان» نحو الباب ولكنه أُصيب بخيبة أمل مريرة، لقد كان الباب مغلقًا، واختبأ وراء أحد التماثيل لا يجرؤ على التنفس، فانقض «كوازيمودو» كالجرادة على «جوهان» وجرَّده

من سلاحه، وحين وجد «جوهان» نفسه أعزل راح يضحك من «كوازيمودو» في وجهه بجرأةٍ، ولد طائش في السادسة عشرة من عُمْره.

ولكنه لم يضحك طويلًا.

فقد حمل «كوازيمودو» الطالب «جوهان» من ساقه وراح يلوح به فوق الهاوية وكأنَّه مقلاع بيده، ثم سُمع صوت أشبه بصوت حبة جوز هند وقد ضربت الجدار ثم شوهد شيء يسقط. لقد كان جسدًا ميتًا منطويًا على ذاته، الظهر مكسورة، والجمجمة مُحطمة فارغة.

وانطلقت صيحات بين اللصوص:

«إلى الأمام».

لقد أثارهم موت الطالب المسكين، وخجل اللصوص من أنفسهم بعد أن تكرَّر فشلهم في دخول الكنيسة أمام هذا الرجل الأحدب.

وخلال لحظات قليلة أحضر البعض سلالم، بينما، أحضر آخرون حبالًا معقودة. ووجد «كوازيمودو» نفسه خائفًا أمام هذه الأشكال الزاحفة نحوه من كل مكان.

في تلك اللَّحظة أرسلت بعض الكنائس نجدة إلى المكان، وامتلأت ساحة بارفيس بألف مشعل مضيء، وسُمعت أجراس الإنذار تدق في أمكنةٍ بعيدةٍ.

ووقف «كوازيمودو» عاجزًا أمام هذا الرتل من الأعداء، يرتجف خوفًا على الغجرية، وينتظر بيأسٍ معجزة من السماء.

القدر
FATE

كان «جرنجوار» يمشي في الشوارع ليلًا على غير هدى، عندما رأى في الظلام شكل رجل يلبس زيًّا أسود اللَّون. قال «جرنجوار»:

«هل أنت هنا أيها المُعلِّم؟!».

– «لقد جعلت دمائي تغلي يا جرنجوار! إنَّها الواحدة والنصف ليلًا. أنت دائمًا متخلف عن كل شيء! هل معك كلمة السرّ؟!».

– «نعم! إنَّها معي كن مطمئنًّا».

– «بدونها لن تستطيع دخول الكنيسة.. لقد قطع اللصوص الشوارع كلَّها!».

– «وكيف سندخل الكنيسة؟!».

– «لديّ مفتاح الأبراج».

– «وكيف سنخرج؟!».

– «يوجد منفذ خلف الدير يُفضي إلى النهر.. لقد أعددت قاربًا هذا الصباح».

وفي هذه الأثناء كانت الكنيسة على وشك أن تُحطم وتنهب من قِبل اللصوص، وفجأة امتلأت ساحة «بارفيس» بأعدادٍ كبيرةٍ من الفرسان المُسلحين الذين وصلوا كالإعصار.

وكانت المعركة مريرة حقًّا. وأخيرًا استسلم اللصوص، وهربوا في كل اتجاه تاركين في ساحة «بارفيس» عددًا كبيرًا من الأموات.

وعندما شهد «كوازيمودو» هزيمتهم جثا على ركبتيه ورفع يديه نحو السماء، ثم انطلق يجري وقد أسكره الفرح إلى غرفة الغجرية، ولكنه وجدها خالية خاوية.

وكانت «الأسميرالدا» نائمة عندما هاجم اللصوص كنيسة نوتردام، ولم يمرّ وقت طويل حتى استيقظت بفعل الضجة الكبيرة حول الكاتدرائية، وهرعت إلى خارج غرفتها لتستطلع الأمر، ثم رجعت بسرعةٍ خائفةٍ لتختبئ تحت غطائها.

وكانت تجهل الهدف من هذا الهجوم، ومع ذلك توقعت حدوث كارثة ما.

وفي غمرة هذا القلق الرهيب سمعت وقع خطوات بالقرب منها، فالتفتت فإذا بها ترى أمامها رجلين داخل الغرفة، فأرسلت صيحة ضعيفة، فقال أحدهم:

«لا تخافي هذا أنا!».

- «ومَنْ أنت؟!».

- «بطرس جرنجوار».

ومنحها هذا الاسم بعض الشجاعة، فرفعت عينيها ورأت إلى جانبه شخصًا أسود عقد الخوف منه لسانها.

ثم تشجعت، وسألت:

«مَنْ هذا الذي معك؟!».

– «كوني مطمئنة! إنَّه أحد أصدقائي. نحن أصدقاؤكِ، وقد أتينا لإنقاذكِ.. هيا اتبعينا!!».

– «هل هذا صحيح؟!».

– «نعم صحيح تمامًا.. هيا تعالِ بسرعةٍ».

– «ولكن لِم لا يتكلم صديقك؟!».

وأخذها «جرنجوار» من يدها، وحمل رفيقه المصباح وسار أمامهما. وكان هناك وراء الكنيسة عند ضفة النهر قارب صغير، صعد إليه «جرنجوار» و«الأسميرالدا»، أمَّا الرجل الأسود فقد جلس في مقدمة القارب وبدأ يُجدِّف. وراحت «الأسميرالدا» تراقب الرجل المجهول بخوفٍ غامضٍ خفيٍّ. وكان الضوء الخافت لمصباحه يجعله يبدو كالشبح.

وجدَّف الرجل باتجاه اليابسة. وكانت الضجة حول نوتردام قد تضاعفت وتحوَّلت إلى ثورةٍ عارمةٍ، وكانت تُسمع في المدى صرخات بعيدة واضحة:

«الغجرية الساحرة! الموت للغجرية!».

وتركت الفتاة البائسة رأسها يهبط بين يديها، وتابع الرجل المجهول تجديفه نحو الضفة بغضبٍ شديدٍ، بينما كان «جرنجوار» يُفكِّر وهو يضم العنزة بين ذراعيه، ونظر إلى الغجرية، ثم إلى العنزة، وراح يُدمدم، وعيناه مغرورقتان بالدموع:

«ليس بمقدوري إنقاذكما معًا!!».

ووصل القارب أخيرًا إلى الشاطئ، ووقف الرجل المجهول ومدّ ذراعه لـ «الأسميرالدا» ليساعدها على الهبوط، ولكنها رفضتها، وتعلَّقت بكُمِّ «جرنجوار»، وتوقفت لحظة تتأمَّل المياه، وعندما عادت إلى نفسها كانت وحيدة مع الرجل المجهول.

وحاولت جاهدة أن تصرخ، أن تتكلم، أن تنادي على «جرنجوار»، ولكن لسانها قد خانها. ولم ينبس الرجل بكلمةٍ واحدةٍ، وراح يمشي بخطىً سريعةٍ نحو ساحة «جريف» ممسكًا بالفتاة من يدها.

وفي هذه اللَّحظة بالذات شعرت الفتاة بأنَّ القدر قوَّة تستحيل مقاومتها.

وأخيرًا، استجمعت بعضًا من صوتها وسألته:

«مَنْ أنت! مَنْ أنت؟!».

واحتفظ الرجل بصمته السابق إلى أن وصلا إلى ساحة «جريف»، لقد عرفت الآن أين هي. وتوقف الرجل ورفع قناعه، وتمتمت متلعثمة وقد جمَّدها الذعر:

«لقد كنت أعرف.. لابدّ وأن يكون هو!!».

❋ ❋ ❋ ❋

لثوان معدودة.. فقط!!
FOR FEW MOMENTS ONLY !!

والواقع أنَّه الكاهن نفسه، وكان يبدو كالشبح، فقال للفتاة:

«أصغي إليَّ.. هذه ساحة جريف، لقد أسلم القدر أحدنا إلى الآخر، وسأُقرِّر أمر حياتكِ أنتِ! وأنتِ بيدكِ أمر روحي! أنا أُريد أن أقول لكِ أوَّلًا لا تُحدثيني عن فوبوس أبدًّا. فإذا نطقتِ بهذا الاسم.. ما الذي أفعله، ولكنه رهيب جدًّا!!».

ثم استطرد يقول:

«لقد صدر عن البرلمان تشريع خاصّ يُحيلكِ إلى المشنقة مرَّة أخرى.. لقد أنقذتكِ من بين أيديهم، وها هم يلاحقونكِ.. انظري..!».

وتابع الكاهن قائلًا:

«إنَّني أُحبُّكِ، وباستطاعتي أن أُنقذكِ تمامًا، وذلك يعتمد على إرادتكِ، وسأفعل ما تُريدين!».

ثم جرى بها نحو المشنقة، وقال ببرودٍ:

«اختاري واحدًا منا نحن الاثنين؟!».

فأجابته الفتاة:

«إنَّ المشنقة لا تُرعبني بقدر ما تفعل أنت!».

وأخفى وجهه بين يديه، وهو يقول:

«لا! لا يمكن ذلك! لا توجد نار في العالم أعنف من تلك التي تحرق قلبي! ألن تُشفقي عليَّ؟!».

وسمعته «الأسميرالدا» يبكي، وكانت هذه المرَّة الأولى التي يبكي فيها، ثم استمر في الحديث قائلًا:

«عليَّ أن أُخبركِ بما هو أكثر من ذلك، بشيءٍ رهيبٍ جدًّا، ماذا فعلتِ بأخي، بل ماذا فعلت أنا بأخي.. أوه! ماذا صنعت به يا إلهي! لقد ربيته وأحببته ثم قتلته! بسبب هذه المرأة..!!».

ثم صرخ بألمٍ عنيفٍ:

«قابيل! ماذا صنعت بأخيك؟!».

فقالت «الأسميرالدا»:

«أنت قاتلٌ! اتركني! قلتُ لك لن أكون إلَّا لـ «فوبوس»، إنَّه هو مَنْ أُحبّ!».

فأطلق صرخة مُدوية مروعة، كما لو أنَّ قطعة حديد ساخنة قد وُضعت على جسده اليائس، وقال:

«موتي إذًا!».

وحاولت المسكينة الهرب ولكنه أمسك بها مُجدَّدًا، وراح يجرُّها على الأرض من ذراعيها الجميلتين باتجاه زاوية برج رولاند، وصرخ بصوتٍ مرتفعٍ:

«جودول! أيتها الأخت جودول! هذه هي الغجرية، انتقمي لنفسكِ!».

وشعرت الفتاة أنَّ شيئًا قد أمسك بها من معصمها فجأة، فنظرت إليه، فإذا به ذراع نحيلة تخرج من كوة الجدار، وتطبق عليها ككماشةٍ من حديد.

– «امسكي بها جيدًا، لا تدعيها تهرب، سأذهب لأحضر الجنود، وسترينها تُشنق أمام عينيكِ!».

لقد عرفت الفتاة الحبيسة الخبيثة، فتلوت، وحاولت جاهدة أن تُحرِّر نفسها، ولكن دون جدوى. لقد شعرت بالرُّعب يسري حتى جذورها، شعرت فانهارت مُستندة إلى الحائط، وقد أخذ التَّعب والخوف من الموت منها كل مأخذ.

وسمعت الحبيسة، وهي تقول لها منفجرة ضاحكة:

«ها! ها! ها! ستشنقين!».

فقالت «الأسميرالدا»، بصوتٍ خافتٍ:

«أي أذى ألحقته بكِ؟!».

– «أي أذى! تقولين أي أذى! الغجر.. الغجر! كانت لي طفلة جميلة صغيرة إيناس».

وراحت تُقبِّل شيئًا في الظلام، ثم تابعت حديثها:

«الغجر سرقوا ابنتي! أكلوها، هاك ما صنعتِ لي!!».

– «قد لا أكون وُلدت يومها!».

– «كنتِ وُلدتِ يومها! كانت ستكون اليوم في مثل عُمْركِ، خمسة عشر عامًا وأنا هنا، خمسة عشر عامًا وأنا أتألم، خمسة عشر عامًا وأنا أُصلي.. واليوم جاء دوركِ.. آه!.. أيتها الأمهات الغجريات لقد أكلتن طفلتي.. تعالوا وانظروا كيف سآكل ابنتكن!!».

وبدأ الفجر بالبزوغ، وانبعث شعاع رمادي يُضيء هذا المشهد بغموض، لقد أصبحت المشنقة واضحة قريبة أكثر فأكثر. وقد ظنت الفتاة المسكينة

أنَّها سمعت صوت سنابك خيول تقترب من الجهة الثانية، وصاحت، وهي شبه مجنونة من الذُّعر، وقد جثت على ركبتيها:

«أيتها السيدة! أشفقي عليَّ! اتركيني، دعيني أهرب، ارحميني، إنَّني لا أرغب في الموت الآن!!».

- «أعيدي إليَّ طفلتي!».

«رحماكِ! رحماكِ!».

- «أعيدي إليَّ صغيرتي إيناس!»

وهبطت الفتاة مرَّة أخرى، مقهورة ومُحطمة، وتمتمت تقول:

«أنتِ تبحثين عن طفلتكِ! وأنا أبحث عن أسرتي!».

- «أخبريني أين ابنتي الصغيرة؟.. انتظري سأُريكِ شيئًا.. هذا هو حذاؤها.. إنَّه كل ما تبقى لي منها.. هل تعرفين أين القطعة الأخرى منه؟ قولي لي، حتى لو كانت في نهاية العالم سأزحف إليها باحثة عنها، جاثية على ركبتي ويديّ!!».

ومدَّت يدها إلى الغجرية خارج الكوة.

فقالت الفتاة، وهي ترتعد:

وكان بين الضوء ما يكفي لكي تستطيع الفتاة أن تتبيَّن شكله وألوانه:

«دعيني أرى هذا الحذاء.. يا إلهي! يا إلهي!».

وفي الوقت ذاته، وبيدها الأخرى فتحت «الأسميرالدا» التميمة ذات الأحجار الخضراء، التي كانت تُعلِّقها في عنقها.

فدمدمت «جودول»:

«ابحثي! ابحثي! في التميمة..».

ثم انقطع صوتها فجأة، وسرت الرجفة في جسدها كلِّه، وصاحت بصوتٍ خافتٍ هادرٍ، صادر من أعماق أعماقها:

«ابنتي! ابنتي!».

لقد أخرجت الغجرية من تميمتها حذاء آخر يُشبه تمامًا حذاء الحبيسة.

وأشعٍ جسد الحبيسة بالفرح، ورفعت رأسها وألصقته بالقضبان الحديدية التي تُشكّل حاجز النافذة:

«ابنتي! ابنتي!».

وأجابت الفتاة:

«أمي! أمي!».

وصاحت الحبيسة:

«آه! لهذا الحائط!».

- «أراها ولا أستطيع ضمَّها إلى قلبي، يدكِ! أعطيني يدكِ!».

ومدَّت الفتاة يدَها عَبْر النافذة، وشدَّتها الحبيسة إلى شفتيها، وبقيت غارقة في هذه القُبلة، لا يصدر عنها أيَّة إشارة للحياة غير تنهيدة باكية. وراحت الدموع تنهمر من عينيها بصمتٍ كأنَّها زخة مطر ليلي.

وراحت الأمّ تهز الحاجز الحديدي، وتشدّه شدًّا عنيفًا وهي ثائرة، لكن الحواجز استعصت عليها. ثم أحضرت مخدتها الحجرية، وضربت بها الحواجز بأقصى ما تملك من قوَّةٍ، ضربة ثم ضربة أخرى، وانهارت الحواجز الحديدية التي كانت هناك، لحظات كانت تصيح فيها يد الأم مفعمتين بقوَّةٍ هائلةٍ فائقةٍ، بل قوَّةٍ خارقةٍ، غير بشريةٍ.

ومدَّت الأمّ يديها وحملت ابنتها، وأدخلتها إلى الحجرة، وهي تقول:

«تعالي!».

وضعتها على الأرض، ثم أمسكت بها، وحملتها بين ذراعيها، كما لو كانت ما تزال صغيرتها «إيناس»، وراحت بفرحٍ تُغني، وتصرخ، وتُقبل ابنتها، تبكي وتضحك معًا.

– «ابنتي! ابنتي العزيزة، لقد أرجعكِ الرَّبّ إليَّ، آه! كم هي جميلة، آه! كم أُحبّ الغجر! إنكِ أنتِ هي إذًا! لهذا كان قلبي ينتفض وينبض عنيفًا كلَّما مررتِ بي، آه! لقد كنت أرى ذلك كُرهًا وحقدًا.. اغفري لي يا إيناس! اغفري لي! سامحيني! آه! كم سنكون سعداء معًا».

وفي هذه اللَّحظة تجاوبت جدران الحجرة بأصداء صليل أسلحة وسنابك خيل. فألقت الغجرية بنفسها في ذراعي الحبيسة، وقالت:

«أنقذيني! أنقذيني يا أمي! ها هم قادمون!».

وشحب وجه الحبيسة، وبقيت للحظات دون حِراك، ثم هزت رأسها، وانفجرت ضاحكة:

«لا! لا! إنكِ تحلمين! هذا غير صحيح، غير ممكن، أفقدها خمسة عشر عامًا ثم أجدها، لتبقى معي دقيقة واحدة؟!».

وهنا سمعت الحبيسة صوتًا يقول من بعيد:

«مَنْ هنا يا سيد تريستان؟ لقد قال الكاهن إنَّنا سنجدها قرب جحر الجرذان».

ووضعت الحبيسة رأسها في الكوة ثم جذبته سريعًا، وقالت بصوتٍ خافتٍ مذعورٍ:

«ابقي هنا، لا تتنفسي، فالجنود يملأون المكان!!».

وراحت الأمّ تجوب غرفتها بخطًى سريعة، قلقة، تتوقف من حين لآخر، لتمزق شعر رأسها الأشيب.

- «إنَّهم قادمون! اختبئي في الزاوية، سأخبرهم بأنَّني تركتكِ تهربين!».

وسمعت الفتاة صوتًا قويًّا قريبًا من الحجرة يقول:

«مَن هنا أيها القائد فوبوس دي شاتوبار».

وعند سماع هذا الاسم تحرَّكت «الأسميرالدا» قليلًا.

فقالت الأمّ:

«لا تتحركي أبدًا!».

واقترب قائد الجنود منها، وقال:

«أيتها العجوز، إنَّنا نبحث عن ساحرة هاربة لكي نشنقها، وقد قيل إنَّها عندكِ، قولي الحقيقة، لقد تُركت الساحرة عندكِ فماذا فعلتِ بها؟!».

فخافت الحبيسة أن تُثير الشبهات إذا أنكرت كل شيء، فقالت:

«إذا كنت تقصد تلك الشابة، فإنَّها قد عضتني فتركتها، فهربت!!».

- «وأي اتجاه سلكت؟».

«أظن أنَّها ركضت نحو شارع موتون».

وهنا قال أحد الرُّماة:

«سيدي، اسألها لماذا تحطمت قضبان نافذتها بهذه الطريقة؟!»

فأجابت بقلقٍ بالغٍ:

«لقد كانت دائمًا هكذا!».

- «ولكنها البارحة كانت تُشكِّل صليبًا جميلًا!!».

– «يبدو أنَّ الجندي ثمل! لقد مرَّت أكثر من سنة على الحادث حين مرَّت عربة وصدمت نافذتي بمؤخرتها وكسرت الحاجز!».

وأجاب جندي آخر:

«هذا صحيح، لقد كنتُ موجودًا حينها!».

ووصل أثناء ذلك جندي يقول:

«سيدي! العجوز تكذب، الفتاة لم تمرّ أبدًا في شارع موتون!».

فقال «تريستان»:

«أيتها العجوز، إنَّكِ تكذبين، إنَّ ربع ساعة من التعذيب ستخرج الحقيقة من حنجرتكِ!».

– «فلنذهب! هيا إلى التعذيب! أنا مستعدة لذلك!!».

لقد فكَّرت أنَّ في ذلك فرصة تُمكِّن ابنتها من الهرب.

فاقترب القائد من «تريستان» وقال:

«فلنذهب ولنتابع البحث».

وتأرجحت «جودول» بين الموت والحياة، حين رأته يُمعن النظر في المكان، غير راغب في تركه، ثم هز رأسه، واعتلى سرج الحصان. فقالت «جودول» بصوتٍ خافتٍ للفتاة:

«لقد نجوتِ!».

في هذه اللَّحظة سمعت «الأسميرالدا» صوت «فوبوس»، يقول:

«سيدي! ليس من مهمتي شنق الساحرات، سأتركك تتابع عملك، وألتحق أنا بسريتي».

فقفزت الفتاة الصغيرة نحو النافذة، قبل أن تتمكَّن والدتها من منعها، وأطلت برأسها، وهي تصيح:

«فوبوس! فوبوس! تعال إليَّ!!».

وكان «فوبوس» قد ابتعد، لكن «تريستان» كان لا يزال موجودًا.

وانقضت الأمّ على ابنتها المتهورة، وهي تزمجر كأنَّها وحش مفترس، وجذبتها بعنفٍ بالغٍ إلى الوراء، وقد غرزت أظافرها في عنقها، ولكن الوقت قد فات.

وشاهد «تريستان» كل شيء، فقال:

«آه! فأرتان في جحر واحد!!».

وتقدَّم شخصٌ من بين صفوف الجند، فقال له «تريستان»:

«أعتقد يا صديقي أنَّها الساحرة التي نبحث عنها، سوف نشنقها!».

ومنذ أن رأى «تريستان» الفتاة، فقَدت الحبيسة كل أمل في النجاة، ولم تنطق بكلمةٍ واحدةٍ، لقد وُضعت الغجرية نصف ميتة في زاوية الحجرة، ووقفت أمام الكوة بيدين كالمخالب أسندتهما إلى حاجز النافذة، وعندما اقترب الجلاد «هزيت كوزان» من الحجرة، كانت نظرة الأمّ مُخيفة ومُرعبة، فتراجع إلى الوراء، وراحت تهز رأسها صارخة:

«ليس هناك أحد! لقد أخبرتكم، ليس هناك أحد، ليس هناك أحد أبدًا!!».

- «دعيني آخذ الفتاة! لن أُسيء إليكِ أبدًا!».

فقالت ساخرة:

«انظر إذًا! ادخل رأسك من الكوة!!».

فنظر «كوازن» إلى أظفارها، ولم يجرؤ على ذلك، ثم قال مُخاطبًا «تريستان»:

«سيدي ! كيف سندخل؟!».

وأخيرًا، تقدَّم «كوزان» مع خمسة أو ستة من رجال الشرطة، وقد حملوا معهم الروافع وقضبان الحديد، واتجهوا نحو الحجرة.

ثم قال «تريستان»:

«أيتها السيدة العجوز! سلمينا الفتاة بهدوءٍ، ما الذي يمنعكِ من تسليم الساحرة إلينا؟!».

– «ما الذي يمنعني؟! إنَّها ابنتي!!».

والحق أن النبرة التي لفظت بها العجوز هذه الكلمات قد جعلت الرجفة تسري في أوصال الجميع، حتى «كوزان» الجلاد.

ثم صرخ «تريستان»:

«حطموا الجدار!».

وجلست الحبيسة أمام ابنتها، تُغطيها بجسدها، وتستمع إلى المسكينة، التي لم تبدِ حراكًا، بل راحت تتمتم بصوتٍ خافتٍ:

«فوبوس! فوبوس!».

وفجأة رأت الأمّ الحجر يهتز، فصرخت تقول:

«لقد أخبرتكم أنَّها ابنتي! أوه! أيها الجبناء! أيها الجلادون! أيها التعساء! النجدة.. النجدة!!».

وسمعت «تريستان» يقول:

«انزلوا، الحجر لقد تحرَّك!».

ونظرت الأمّ إلى الجنود، نظرة رهيبة، جعلتهم يفضلون التراجع على التقدُّم، فصاح «تريستان»:

«كوزان! تقدَّم ماذا يحدث؟! رجالٌ مسلحون يخافون من امرأةٍ؟!».

فقال «كوزان»:

«سيدي! هل تُسمي هذه امرأة؟!».

وقال «تريستان»:

«تقدَّموا! لقد اتسعت الفتحة بما يكفي!».

وعندما رأت الحبيسة ذلك، انتصبت على ركبتيها، وراحت تتساقط من عينيها دموع غزيرة، تتدحرج الواحدة تلو الأخرى، على تجاعيد وجهها، وانطلقت تتكلم بصوت ضعيف مؤثر:

«أيها السادة الجنود، كلمة واحدة فقط، سوف تتركون لي ابنتي، عندما تعرفون الحقيقة، لقد كنتُ فتاة مسكينة بائسة، وقد سرق الغجر طفلتي. انظروا، هذا هو حذاؤها، لقد احتفظت به خمسة عشر عامًا، وقضيت في هذه الحجرة خمسة عشر عامًا محرومة من النار والدفء في الشتاء، ولطالما صليت وناديت بحرقةٍ، حتى استجاب الله دعائي، إنَّها مُعجزة من الرَّبِّ، لم تكن ميتة وقد أعادها الله إليَّ، ها هي، انظروا! أنا واثقة أنَّكم لن تأخذوها مني! إنَّني أُحبُّها كثيرًا! وأنا لا أملك سواها، دعونا نمرّ نحن من ريمس.. أوه! إنَّكم طيبون أيها الجنود، وأنا أُحبُّكم جميعًا، إنَّكم لن تأخذوا مني ابنتي الصغيرة، هذا مستحيل أليس كذلك؟!».

ومع ذلك فقد تغلَّب «تريستان» على ضعفه، وقال:

«لقد انتهى الأمر! وليس باليدِ حيلة!!».

ودخل الجلاد والجنود إلى الحجرة، ولم تفعل الأمّ شيئًا، بل ألقت بجسدها فوق ابنتها.

ورأت الغجرية الجنود يقتربون، فبعث الخوف من الموت فيها شيئًا من القوَّة، فصرخت بلهجةٍ مُحزنةٍ مستعصيةٍ على التعبير:

«أماه! ها هم يأتون! احميني يا أماه!!».

- «نعم يا حبيبتي!! سوف أحميكِ، وضمتها بذراعيها وغطتها بقبلاتها!».

وحاول الجلاد أن يرفعها، وكانت عيناه طافحتين بالدموع. ولكن الأم تعلَّقت بابنتها، وحالت دون قيامه بعمله.

وبما أنَّه كان من المستحيل فصل الأمّ عن ابنتها، فقد قام «كوزان» بجرِّ الفتاة إلى خارج الحجرة، تتبعها أمُّها، لقد بدت وكأنَّها أغمي عليها.

ولم يُشاهد أي مخلوق على النوافذ، كان هناك فقط رجلان في قمة برج نوتردام ينظران إلى ساحة «جريف».

وتوقف»كوزان» أمام السُّلم الرهيب، ثم وضع الحبل حول عنق الفتاة الشابة الجميلة، وفتحت الفتاة عينيها، ورأت أمامها ذراع المشنقة البشعة ممدودة فوق رأسها.

وجثت الأمّ على الأرض دون حراك، ورفع الجلاد الفتاة فوق كتفيه، وراح يصعد السُّلم، فصرخت الفتاة بصوتٍ عالٍ يُمزق القلوب:

«لا! لا! لا أُريد..!!».

وفي أثناء ذلك فتحت الأمّ عينيها، وانتصبت واقفة، وكالوحش المفترس أمسكت يد الجلاد وعضتها، وزمجر الجلاد من شدة الألم، وركض الجنود إليه، ودفعوا الأمّ إلى الوراء بوحشيةٍ، ولُوحظ أنَّ رأسها قد اصطدم بالأرض بشدةٍ، فرُفعت، ولكنها سقطت على الأرض مرَّة أخرى، لقد ماتت.

وأمَّا الجلاد الذي لم يترك الفتاة، فتابع صعوده على السُّلم.

الجميلة ذات الثوب الأبيض

WITH BEAUTIFUL WITE DRESS

ليلة هجوم اللصوص على الكاتدرائية، وبعد رحيلهم رجع «كوازيمودو» إلى حجرة الفتاة الغجرية فلم يجدها، فأخذ يضرب الأرض بقدميه، وانطلق يركض كالمجنون في الكنيسة، وبقي يصعد وينزل، ويدخل كافة الحجرات واضعًا تحت كل قبَّة مشعلًا من المشاعل يائسًا مجنونًا، وحينما تأكَّد أنَّها قد اختُطفت أخذ يمرّ بكل مكان كانت تجلس فيه أو تجري من فوقه، خافضًا رأسه، لا صوت يخرج منه، ولا دموع تسيل من عينيه.

ثم جلس يفكِّر فيمَنْ يمكن أن يكون خاطف الفتاة، وخطرت صورة الكاهن في رأسه، ولكن إخلاصه وبرَّه به قد قاوما غيرته ويأسه. ثم تذكَّر أنَّ الكاهن هو الذي يحمل مفتاح باب السُّلم الذي يقود إلى غرفة الفتاة.

وبينما كان يُركز فكره كلَّه في الكاهن رأى في الطبقة العُليَا في نوتردام شخصًا يمشي متجهًا نحوه. لقد عرف أنَّه الكاهن نفسه. كان «كلود» يسير بخطًى بطيئة. لا ينظر إلَّا أمامه، بل يتجه نحو البرج الشمالي، وبدا أنَّه يُفتش عن شيء عَبْر السطوح، وهنا لحق به «كوازيمودو» ليعرف ما يستهدفه من صعوده إلى البرج. كان «كوازيمودو» يقترب من الكاهن في خطوات الذئب، فلم يحس الكاهن به، الذي كان يوجه انتباهه إلى شيءٍ آخر، وتسمَّر الرجلان، وحاول «كوازيمودو» أن يسأله عمَّا فعل بالغجرية، ولكنه اكتفى بمتابعة خط بصره، فوقع على ساحة «جريف».

لقد رأى الكاهن ينظر، ويُشاهد جمعًا من الناس والجنود في الساحة حول السُّلم المنصوب عند المشنقة، ورجلًا يجر شيئًا أبيض يتعلَّق به شيء أسود، ثم وقف هذا الرجل أمام المشنقة.

وهنا حدث شيء لم يستطع «كوازيمودو» أن يتبيَّنه بسبب تجمع الجنود، وفي هذه الأثناء صعد الرجل على السُّلم وعلى كتفه فتاة في زيٍّ أبيض وفي عنقها حبل، إنَّها هي، لقد عرفها «كوازيمودو».

وبلغ الرجل أعلى السُّلم حيث صحح وضع عُقدة الحبل، بينما جثا الكاهن على ركبتيه ليرى ما يحدث بوضوح أشد وأبلغ.

وفجأة أبعد الرجل سُلم المشنقة، وشاهد «كوازيمودو» المسكين جسد الفتاة يتأرجح. كما شاهد تشنُّجات رهيبة تسري عَبْر الجسد كلِّه، والكاهن من جانبه يتأمَّل هذا المشهد المُخيف.

وهنا انفجرت في فم الكاهن قهقهة الشيطان، قهقهة لا يملكها إلَّا رجل فَقَد معناه الإنساني، أمَّا «كوازيمودو» فلم يسمع القهقهة ولكنه رآها. وتراجع قارع الأجراس قليلًا وراء «كلود» الكاهن، ثم انقض عليه، وقذف به إلى الهاوية بيديه الغليظتين، فصرخ الكاهن قائلًا:

«يا للعنة!».

ثم سقط في الفضاء، ولم يكد يجتاز من هذا الفضاء قليلًا حتى علق بأحد المزاريب فأمسك به يائسًا. وبينما كان يهم بإرسال صرخة أخرى، شاهد شبح «كوازيمودو» المنتقم الرهيب، فسكت.

كان «كوازيمودو» قادرًا على إنقاذه بأنْ يمدّ إليه يدَه، ولكنه لم يكن ينظر إليه، لقد كان ينظر إلى المشنقة. كان ينظر إلى الغجرية.

واتكأ البائس المسكين على الحاجز الذي كان الكاهن بالقرب منه، وجرت دموعه سخية على خديه، في صمتٍ مطبقٍ عميقٍ، دموعٌ لم يكن سكبها حتى هذه اللَّحظة غير مرَّة واحدة.

وفي هذه الأثناء كان الكاهن يلهث، جبهته الصلعاء تتفصد عرقًا، وأظفاره تُدمي على الحجر، وركبتاه تخدشان بحجارة الجدار، كان يعلم أنَّه سيسقط

في الهاوية حين تتمزق ثيابه العالقة بالأحجار، أو تنهار يداه، أو يتفتت طرف الحجر الذي يمسك به فينتشر الرُّعب في أوصاله ويرتجف. وحينما وجد أن انتفاضاته كلَّها لن تجديه نفعا آثر الصمت والجمود، ومرّ وقت قصير بدت فيه عيناه ضائعتين زائغتين، وراحت أصابعه تنزلق شيئًا فشيئًا، وذراعاه تضعفان، وثقل جسده يتضاعف، ونظر إلى الساحة تحته التي تجمع فيها عدد من الفضوليين يدهشهم أن يتسلى أحد المجانين بالتأرجح من مثل هذا الارتفاع الشاهق، وسمعهم الكاهن يقولون بصوتٍ واضحٍ:

«ولكن هذا البائس سيكسر عنقه ليلقى حتفه!!».

أمَّا «كوازيمودو» فكان يبكي.

وأيقن الكاهن من فشل كل محاولة للاستنجاد، فبذل آخر جهد له وحاول أن يتسلق المسافة التي تفصله عن السطح، ونجح في الارتفاع قدمًا واحدةً فقط، ثم انهار أنبوب رصاص كان يتكئ إليه، وتمزق ثوبه، وانهارت يداه، فأغمض الكاهن عينيه وترك الأنبوب يسقط.

أمَّا «كوازيمودو» فنظر إليه يسقط.

ومن الطبيعي ألَّا يكون السقوط من مثل هذا الارتفاع الهائل سقوطًا عموديًا فقد دار جسد الكاهن على نفسه دورات مُتعدِّدة حتى اصطدم بالأرض فلم يبد حراكًا.

وهنا رفع «كوازيمودو» نظره نحو الغجرية التي كان يرى جسدها مُعلقًا بالمشنقة، يتشنَّج من بعيد تحت الثوب الأبيض، تشنُّجات الاحتضار، ثم خفض بصره نحو الكاهن المُتمدِّد عند قدم البرج، وقد تشوه جسده تشوُّهًا رهيبًا.

وقال باكيًا متنهدًا من أعماق صدره:

«أوه! لقد أضعت كل ما كنت أُحبُّه!!».

العناق الأبدي

THE ETERNAL HUG

عندما أتى ضباط الأسقف في المساء لرفع جثة الكاهن الممزقة كان قارع الأجراس «كوازيمودو» قد اختفى من كنيسة نوتردام. فالواقع أن أحدًا لم يره منذ ذلك اليوم ولم يعرف حقيقة ما انتهى أمره.

وفى الليلة التي تلت عذاب «الأسميرالدا» رُفع جسدها عن المشنقة تبعًا للعادة إلى كهف «مونفوكون». وهو بناءٌ ذو شكل غريب، كانت تُقدَّم فيه القرابين البشرية.

أمَّا فيما يتعلَّق باختفاء «كوازيمودو» العجيب فهذا كل ما استطعنا أن نقع عليه من حقائق:

حينما تقرَّر إخراج جثة «أوليفيه لودان» أو الحلاق من كهف «مونفوكون» خلال سنتين على التقريب أو ثمانية عشر شهرًا، بعد الحوادث التي وقعت، وقد شُنق «أوليفيه» قبل ذلك بيومين، ومنحه «شارل الثامن» الحق في أن يُدفن في «سان لوران» مع خير الأموات، وُجد بين كل هذه الهياكل البشعة، هيكلان: أحدهما يضم الآخر إليه بصورةٍ فريدةٍ. وأحد هذين الهيكلين هيكل امرأة وقد بقيت عالقة به قطع من ثوبٍ أبيض، وفى عنق الهيكل «تميمة» من الحرير مُزينة بزجاج أخضر وُجدت مفتوحة وخالية.

أمَّا الآخر الذي كان يضمها، فهو هيكل رجل، ولقد لوحظ في عموده الفقري انحناءً ظاهرًا، وأنَّ جمجمته غارقة بين عظمتي الكتفين، وأنَّ إحدى ساقيه أقصر من الأخرى. هذا ولم يكن في هذه العظام كسر في العنق، فثابت إذًا أنَّه لم يشنق. فالرجل الذي ينتمي إليه هذا الهيكل قد أتى هنا ومات.

وحينما حاول البعض أن يفصله عن الهيكل الآخر الذي كان يضمه إليه.. سقط غبارًا منثورًا.

الفهرس

مسلسل	الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة		3
تمهيد		5
الفصل الأول	في القاعة الكبرى	11
الفصل الثاني	المسرحية	19
الفصل الثالث	الكاردينال	25
الفصل الرابع	صانع الأحذية!!	29
الفصل الخامس	بابا المجانين	37
الفصل السادس	الأسميرالدا.. الأسميرالدا	43
الفصل السابع	إلى أين المسير؟	47
الفصل الثامن	الراقصة الغجرية	51
الفصل التاسع	في الشارع المظلم	59
الفصل العاشر	خداع الشيطان!	63
الفصل الحادي عشر	في بلاط العجائب	65
الفص الثاني عشر	ليلة زفاف غريبة!	73
الفصل الثالث عشر	المخلوق الغريب!	81
الفصل الرابع عشر	الكاهن	85
الفصل الخامس عشر	قارع أجراس نوتردام	89
الفصل السادس عشر	السحر و الساحر!	95
الفصل السابع عشر	المحاكمة و العقاب	101
الفصل الثامن عشر	حبيسة برج رولاند	107
الفصل التاسع عشر	دمعة حزينة، وقطرة ماء	115
الفصل العشرون	السر ينكشف!	123

الفصل الحادي والعشرون	خبر حزين!	129
الفصل الثاني والعشرون	صمت الأجراس	133
الفصل الثالث والعشرون	حجرة الكاهن، والعملة الذهبية	135
الفصل الرابع والعشرون	رجلان في ثياب سوداء!	145
الفصل الخامس والعشرون	حانة تفاحة حواء	151
الفصل السادس والعشرون	الجريمة	157
الفصل السابع والعشرون	بريئة أم مذنبة؟	169
الفصل الثامن والعشرون	العدالة المزعومة!	173
الفصل التاسع والعشرون	مشعلٌ من الشمع	177
الفصل الثلاثون	بانتظار الموت	181
الفص الحادي والثلاثون	الحذاء الصغير	191
الفصل الثاني والثلاثون	ثلاثة رجال حول الساحرة	195
الفصل الثالث والثلاثون	روح أم كائن حي؟	209
الفصل الرابع والثلاثون	الملاذ	213
الفصل الخامس والثلاثون	لن يفوز بها أحد أبدًا	221
الفصل السادس والثلاثون	المؤامرة	225
الفصل السابع والثلاثون	حتى آخر قطرة دم	231
الفصل الثامن والثلاثون	القدر	239
الفصل التاسع والثلاثون	لثوان معدودة.. فقط!!	243
الفصل الأربعون	الجميلة ذات الثوب الأبيض	255
الفصل الحادي والأربعون	العناق الأبدي	259

مُعد ومُقدم الرواية

• وفيق صفوت مختار

• حاصل على ليسانس الآداب والتربية، جامعة أسيوط، كلية التربية بسوهاج.

• حاصل على الدبلومة الخاصَّة في التربية وعلم النفس، جامعة أسيوط، كلية التربية بسوهاج.

• عمل مُحرِّرا صحافيًا بمجلة «هو وهي»، ومجلة «دُبي الثقافية».

• فاز بجائزة الشيخ «عبد المبارك الصباح» للإبداع العلمي عن نتاجه- «المُخدرات وأثرها المُدمِّر»، عن دار «سعاد الصباح» بدولة الكويت.

• سجل للتلفزيون المصري العديد من الحلقات في عدة برامج.

• تناولت جريدة الأهرام القاهرية كتابات المؤلِّف بالعرض والتحليل في باب «المرأة والطفل».

• تُرجمت بعض مقالاته إلى اللغة الإنجليزية.

• الكتب التي صدرت للمؤلِّف:

1- مشكلات الأطفال السلوكية، القاهرة: دار العلم والثقافة، 1999م.

2 – أبناؤنا وصحَّتهم النفسيَّة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2001م.

3– المدرسة والمجتمع والتوافق النفسي للطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2003م.

4 – سيكولوجية الأطفال ضعاف العقول، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

5 – سيكولوجية الأطفال الموهوبين، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

6 – الأسرة وأساليب تربية الطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

7 – مشكلة تعاطي المواد النفسيَّة المخدرة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

8 – سيكولوجية الطفولة، القاهرة: دار غريب، 2005م.

9 – بستان المعرفة، القاهرة: دار موناليزا، 2007م.

10 – كتب ومكتبات الأطفال وتنمية الميول القرائية، القاهرة: دار الطلائع، 2009م.

11 – فن رعاية الطفل في البيت والمدرسة، القاهرة: دار الطلائع، 2009م.

12 – سيكولوجية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، القاهرة: دار غريب، 2010م.

13 – وسائل الاتصال والإعلام وتشكيل وعي الأطفال والشباب، القاهرة: دار غريب، 2010م.

14 – تأخر الكلام عند الأطفال، القاهرة: دار البطوسي، 2010م.

15 – النمو الحركي للطفل وأهم الأنشطة الترويحية والمدرسية، القاهرة: دار الطلائع، 2011م.

16 – الصحَّة النفسيَّة وأساليب تنشئة الطفل... أُسريًّا، وتربويًّا، ومجتمعيًّا، القاهرة: دار الطلائع، 2012م.

17 – الموسوعة الأدبية الكبرى: أشهر المبدعات في التاريخ العالمي، القاهرة: دار الطلائع، 2013م.

• للتواصل مع المؤلِّف:

هاتف منزل: 4774608/ 093

هاتف محمول: 01063549339

E-mail: Wafeek. safwat@yahoo. com